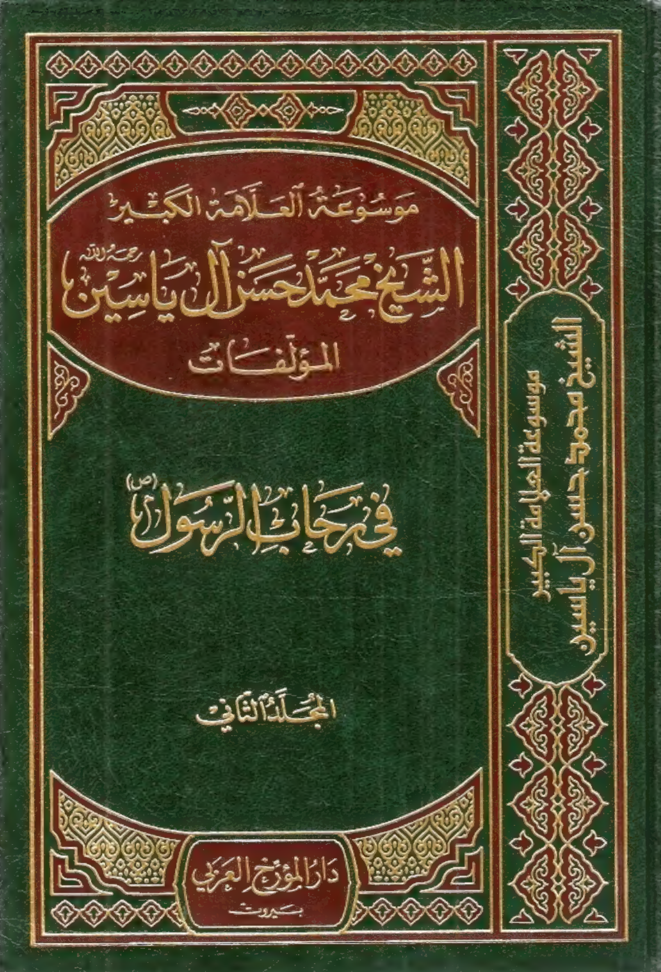

موسوعة العلامة الكبير
الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله
المؤلفات
في رحاب الرسول (ص)
المجلد الثاني
دار المؤرخ العربي
بيروت
موسوعة العلامة الكبير
الشيخ محمد حسن آل ياسين



موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين

المؤلفات

(٢)

موسوعة العلامة الكبير

الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله

المؤلفات

في رحاب الرسول (ص)

المجلد الثاني

دار المؤرخ العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م



بيروت - بئر العبد - مقابل بنك بيروت والبلاد العربية - بناية مخللة
تلفاكس: ٥٤١٤٣١ - ٠١ - هاتف: ٥٤٤٨٠٥ - ٠١ - ص.ب: ١٢٤ / ٢٤
البريد الإلكتروني al_mouarekh@hotmail.com
www.al-mouarekh.com

دليل موسوعة العلامة الكبير
الشيخ محمد حسن آل ياسين
المؤلفات

المجلد صفر (٠): سيرته الدراسية والعلمية

المجلد الأول: أصول الدين

- ـ الله بين الفطرة والدليل
- ـ العدل الإلهي بين الجبر والاختيار
- ـ النبوة
- ـ الإمامة
- ـ المعاد

المجلد الثاني: في رحاب الرسول (ص)

المجلدات الثالث والرابع والخامس: (سيرة الأئمة الاثني عشر عليهم السلام)

المجلدان السادس والسابع: من المؤمنينَ رجالٌ (سيرة ٢٩ صحابياً).

المجلد الثامن: مفاهيم إسلامية

- ـ في رحاب القرآن
- ـ عباد الرحمن
- ـ نهج البلاغة.. لمن؟
- ـ المهدي المنتظر(عج) بين التصور والتصديق

المجلد التاسع: في رحاب الإسلام

- ـ المادة بين الأزلية والحدوث
- ـ الإنسان بين الخلق والتطور
- ـ هوامش على كتاب نقد الفكر الديني

المجلد العاشر: الأعمال الفقهية

- ـ على هامش كتاب العروة الوثقى
- ـ مذكرات في الفقه الإستدلالي (١ و٢)
- ـ مناسك العمرة المفردة
- ـ بين يدي «المختصر النافع»

المجلد الحادي عشر: أعلام من التراث

- الصاحب بن عبّاد حياته وأدبه
- محمد بن محمد بن النعمان (الشيخ المفيد)
- منهج الطوسي في تفسير القرآن
- السيد علي بن طاووس (حياته، مؤلفاته، خزانة كتبه)

المجلد الثاني عشر: دراسات وصنعات

● **شعر تراثي:**

- ديوان أبي طالب بن عبد المطلب في صنعتين
- من المستدرك على ديوان الخبزارزي المتوفى سنة ٣٣٠ هـ
- ديوان متمم بن نويرة
- ديوان مالك بن نويرة

● **الأعمال اللغوية:**

- صيغة (فَعّلَ) في العربية
- (فَيْعِلٌ) أم (فَعِيْل)
- ملاحظات في المعجمات المحققة المطبوعة
- المعجم الذي نطمح إليه
- جوهرة الجمهرة للصاحب إسماعيل بن عبّاد ٣٢٦ ـ ٣٨٥ هـ
- مسائل لغوية في مذكرات مجمعية
- (إبريق) لفظ عربي فصيح
- السلسبيل لفظ عربي فصيح

المجلد الثالث عشر: دراسات تاريخية

- تاريخ المشهد الكاظمي
- المعمى والأحاجي والألغاز
- تاريخ الحكم البويهي في العراق
- الأرقام العربية : فوائدها، نشأتها، تطورها
- تاريخ الصحافة الكاظمية
- لمحات من تاريخ الكاظمية
- لمحات من تاريخ الطبري

المجلدان الرابع عشر والخامس عشر: تاريخ الشعر الكاظمي ١/٣

المجلدان السادس عشر والسابع عشر: معجم النبات ١/٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، [آل عمران: ٢]

❖ ❖ ❖

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، [التوبة: ٣٣]

❖ ❖ ❖

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، [النساء: ١٣ ـ ١٤]

❖ ❖ ❖

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾، [المائدة: ٥٦]

❖ ❖ ❖

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، [الحشر: ٧]

❖ ❖ ❖

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾، [الأحزاب: ٣٦]

❖ ❖ ❖

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[آل عمران: ٥٣]

«صدق الله العظيم».

مُقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وسيد رسله محمد، وعلى آله الأصفياء الأمناء الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فهذه صفحات متواضعة تحمل في طيّاتها خلاصةَ محاضراتٍ وُفِّقْتُ إلى إلقائها خلال ليالٍ رمضانية من عام ١٣٨٩هـ، في إطار ما سَمَّيتُه يومذاك: «في رحاب الرسول (ص)»، بعد محاضراتٍ سابقة في رمضان متقدم عليه تناولتْ عدةَ موضوعاتٍ قرآنية رئيسة تحت عنوان «في رحاب القرآن».

والحقُّ أن هذه المحاضرات التي أُقدِّم لها اليوم - على تعدُّدها وفسحة لياليها للبيان والتبيين - كانت أضيقَ من أن تتَّسع لاستيعاب البحث في تاريخ السيرة؛ بكل أبعادها الواسعة؛ ومجالاتها الحاشدة، وجوانبها الضخمة الممتدة الأطراف، بدءاً بالمولد الكريم والنشأة المباركة؛ ثم البعثة الشريفة وما تلاها من شؤون وشجون؛ ومروراً بما شهده العهدان الحافلان في مكة والمدينة؛ حتى آخر يومٍ من أيام الإشراق المحمدي الوضّاء.

وبالنظر إلى ضخامة الموضوع وعدم كفاية الوقت على سعته لتغطية كلِّ ما يتعلّق به، لم تستطع تلك الساعات - ومن ثَمَّ هذه الصفحات - أن

تستوعب من جميع ذلك سوى «خلاصاتٍ» سريعة أو «رؤوسِ أقلامٍ» مستعجلة، حاولتُ فيها الاشارة إلى الخطوط العامة لتلك السيرة العطرة، بلا ادِّعاءٍ لاستيفاء كل أطراف البحث واستكمال جميع جوانبه. وحسبي منها أن تكون مشاركةً أوَّلية في محاولة كتابةٍ منهجية لأبرز موضوعات تلك الحقبة الزاهرة؛ بما زخرت به من أحداث، وأغدقتْ فيه على الناس ـ على امتداد التاريخ ـ من خيرٍ وعطاءٍ وانتقالٍ من الظلمات إلى النور.

ومع أن هذا الكتاب ـ كما أسلفتُ ـ كان الخلاصة الأمينة أو الزُّبدة الصافية لتلك المحاضرات؛ فإنه لم يخل من إضافةٍ تارة ومن حذفٍ في بعض الأحيان، تبعاً لما تقتضيه قواعد التحرير وطبيعة التأليف، بما تختلف فيه بعض الشيء عن مقتضيات الحديث الشفهي القائم على الاسترسال والتبسيط. وكان من جملة تلك الإضافات: ذلك التمهيد الذي بدأتُ به الكتاب؛ لتحديد ما ارتأيتُ أنه الموقف الموضوعي السليم في التعامل مع مصادر السيرة ورواياتها؛ في ضوء مقاييس النقد والتحليل المختارة.

والله المسؤول أن يتقبَّل هذا العمل بفضله ومَنِّه، وأن يجعل فيه ما ينفع ويفيد، ويوفِّق في المستقبل لأمثاله، إنه المعين لمن استعان به والموفِّق لمن توكَّل عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

محمد حسن آل ياسين

تمهيد

لعل من أغنى المسائل عن الإيضاح والتبيين؛ ما يعلمه جمهور الباحثين والمعنيين بتاريخ السيرة وحقبتها الزمنية المتميِّزة؛ من أن الروايات المتصلة بموضوعات العهد النبوي الزاهر؛ منذ بدء التداول للرواية والحديث في تاريخ الإسلام؛ ثم منذ انطلاقة كتابة التاريخ في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وامتداداً إلى ما بعد ذلك بقرون وحتى اليوم، كانت من الكثرة والوفرة ما فاق العدَّ والإحصاء؛ وتجاوز حدَّ ادِّعاء الإحاطة والاستيعاب. ولذلك أصبح من العسير على الباحث مهما بذل من جهدٍ وتحمل من نصبٍ؛ أن يقف على الجميع وقفة الفاحص المقوِّم؛ وأن ينظر بمنظار التدقيق والانتقاء لكل المرويِّ والمأثور.

لقد ضمَّت تلك النصوص على وجه القطع واليقين ما هو صحيح جداً بل في أعلى درجات الصحة، كما كان فيها ما يمكن وصفه بالقبول بوجهٍ عام وبقربه إلى الصحة والموضوعية في السرد والعرض، ولكنَّ فيها - على وجه القطع واليقين أيضاً - ما هو بعيد كل البعد عن الصدق وحكاية الواقع مما أملته النزغات والأهواء واختلقته العصبيات والأحقاد، وفيها - كذلك - ما هو جامع لهذا وذاك أو كائن بينهما، بما حمل من حق وباطل وسمين وغثّ، كحذفِ فقرةٍ لم يرق للراوي إثباتها أو زيادةٍ أخرى لم تكن في صميم النص؛ وكإضافة اسمٍ من الأسماء إلى الخبر المرويِّ أو إغفال اسم كان موجوداً في واقع الأمر.

ولذلك رأيتُ لزاماً عليَّ قبل الدخول في أعماق البحث وقبل البدء في عرض مفرداته التفصيلية؛ أن أوجز ـ بما قلَّ ودلَّ من الكلام ـ موقفي من تلك الروايات والنصوص التي زوَّدتنا بها المصادر المعنية بالموضوع، ليكون القارىء الكريم على علمٍ تام بالمنهج الذي أخضعتُ له تعاملي مع النصوص فيما اخترتُ منها أو نبذتُ؛ والميزانِ الذي اعتقدتُ أنه المتعيِّن أو الأرجح بين الموازين في الأخذ والرفض؛ والقبول والإهمال؛ والتناول والإعراض.

وكان عصرنا الحاضر قد شهد ـ فيما شهد من عطاء الفكر والثقافة ـ قيامَ عددٍ من الباحثين العرب بتحرير الدراسات والبحوث المعنيَّة بالحديث عن المحاولات الأولى في ظلال الإسلام لكتابة السيرة والتاريخ؛ وباستعراض أسماء الرواة الأوائل لذلك وروّاد التأليف فيه، وكان من الممكن لهذه الدراسات المعاصرة أن تسدَّ فراغاً مهماً في المكتبة التاريخية العربية؛ وتشبع نهماً كبيراً لدى المتعطشين لمعرفة ذلك والمتشوقين إليه، ولكنَّ هؤلاء المؤلفين ـ كما توضح مصادرهم وهوامشهم ـ لم يأتوا بجديد في الأمر، بل كانوا عيالاً على مَنْ تقدَّمهم من الأجانب المستشرقين الذين سبقوهم في بحث هذا الموضوع؛ أمثال «هروفتس» و«سخاو» و«گِبْ» وغيرهم من «كُتّاب» المواد المتصلة بالسيرة ورواتها في «دائرة المعارف الإسلامية»؛ ممن كانوا يعتمدون في آرائهم وأحكامهم على مقاييس نختلف معهم فيها من الجذر في جوانب كثيرة.

ولقد ضمَّت تلك البحوث العربية والمستعرِبة فيما ضمَّت خليطاً واسعاً من أسماء الرواة والقُصّاص الذين أُسندت إليهم روايات السيرة وأُثرت عنهم أخبارها وأحداثها، وخليطاً آخر من أسماء مَن زُعِمَ أنهم من ذوي المؤلفات فيها، مع أن أغلبهم ممَّن لم يثبت له مؤلَّفٌ في هذا الموضوع أو ثبت خلافه قطعاً. وقد أدّىٰ هذا الخلط بين الرواة وبين

المؤلِّفين من جهة؛ وبين الرواة الذين قد يركن الباحث إلى نقلهم واولئك المطعون فيهم من جهة أخرى؛ إلى التباس الأمر وتلبُّد المسار وضياع قواعد الفرز والتمييز، فاختلط الأبيض بالأسود والحابلُ بالنابل(*).

وكان مما لا مناص منه في مثل هذه الأجواء المضبَّبة أن استعرض في صدر هذا التمهيد أسماء أولئك الرجال الأوائل الذين وُضِعَ بعضهم في عداد رواة السيرة وبعضهم في عداد المؤلفين فيها، لنعرف مقدار الصواب في كون أولئك مؤلفين وهؤلاء محدّثين، ومقدار الثقة في مجموع مروياتهم وأخبارهم المبثوثة في المصادر والأصول، ليكون القبول أو الرفض لذلك مستنداً إلى بصيرة وعلم؛ وقائماً على أساس ثابت لا تردُّد فيه.

وكان أول مَنْ نُسِب إليه التأليف في السيرة:

عروة بن الزبير (ت بين ٩١ ـ ١٠١هـ)

وقد وصفه الدكتور عبد العزيز الدوري بأنه «مؤسس دراسة المغازي»، ونصَّ على كونه «أول مَنْ ألَّف كتاباً في المغازي»، وكان دليله على ذلك أنه «قد وصلنا شيء من مغازيه في مقتبسات وردت عند بعض المؤرخين.... وهذه المقتبسات هي أقدم ما وصلنا من تاريخ المغازي»، ويضيف الدوري إلى ذلك: أن عروة «قد كتب بعض رواياته، في حين أن بعض كتاباته التاريخية هي أجوبة مكتوبة عل أسئلةٍ وُجِّهتْ إليه من البلاط الأموي».

(*) قال ابن تيمية: «قد وضع الناس أحاديث كثيرة مكذوبة على رسول الله (ص) في الأصول والأحكام والزهد والفضائل، ووضعوا كثيراً من فضائل الخلفاء» منهاج السنة: ٤/ ٨٤.

ثم يقول الدوري بعد حكمه القطعي في كون عروة أول المؤلفين في هذا الموضوع ـ كما تقدم ـ: «ولكن الروايات التي وصلتنا عن عروة قليلة مبعثرة لا تمكننا من الحصول على فكرة واضحة عن مغازيه؛ أو عن الهيكل الذي انتظمتْ فيه رواياته إنْ وُجِد»[١].

وذهب الدكتور جواد علي إلى مثل ذلك فعدَّ عروة «أقدم مَنْ ألَّفَ في السيرة والمغازي»، ثم قال: إنه «لم يبق من كتاباته شيء سوى ما اقْتُبِس منها في الكتب الأخرى»[٢].

وكان المستشرق هروفتس قد سبق هذين الدكتورين في هذه الأحكام ولم يقدِّم عليها دليلاً إلاّ قوله: «وعلى الرغم من أننا لا نجد في أي مرجع قديم أن عروة ألَّف كتاباً حقيقياً عن المغازي؛ فإننا واثقون أنه جمع وأخرج مجموعة أحاديث عن أهم الحوادث في حياة النبيّ»[٣].

وكلُّ ما دبَّجه هؤلاء الباحثون في كون عروة مؤلِّفاً إنما هو حكم متسرِّع لم يقم عليه دليل ثابت، وإذا كان هذا الرجل قد أكثر من نقل أخبار السيرة وشؤونها المختلفة فإننا لم نقف في كلمات القدامى على ما يصحِّح نسبة مؤلَّفٍ إليه في ذلك، وواضح ان هناك بوناً شاسعاً بين التأليف وبين كثرة الرواية والنقل، لأن تلك الكثرة مهما بلغت لا تدل على وجود كتابٍ لذلك الراوي بالمعنى الإصطلاحي للكتاب.

أمّا الموقف الموضوعي من روايات عروة المنشورة في بعض المصادر المعروفة؛ وتحديد وزنها في معايير التصحيح والتجريح؛ فيتلخص في عدم الثقة بها وعدم الركون إليها، لأن عروة «كانت له

(١) نشأة علم التاريخ عند العرب: ٢٢.
(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي: مج ٣/ج١/ ٣٩.
(٣) المغازي الأولى ومؤلفوها: ٢٢.

صلات بالأمويين»(١) وعلاقات وثيقة بهم، وهو متَّهم بممالأته لهم وانحرافه عن خصومهم. وقد روى ابن أبي الحديد المعتزلي: «ان معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين على رواية أخبار قبيحة في عليّ (ع) تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جُعْلاً يُرْغَب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه، منهم: أبو هريرة وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة؛ ومن التابعين: عروة بن الزبير». ثم أورد أمثلةً على ذلك؛ وكان منها ما جاء مروياً من طريق عبد الرزاق عن معمر: «أن عروة زعم أن عائشة حدَّثَتْه قالت: كنتُ عند النبيِّ (ص) إذ أقبل العباس وعليٌّ، فقال: يا عائشة؛ إنْ سَرَّكِ أن تنظري إلى رجلين من أهل النار فانظري إلى هذين قد طلعا»(٢).

وراوٍ هذا شاهدُ حالِه ومثالُ أقوالِه؛ لخفيفُ الشأن طفيف الوزن عندما تُحَكَّم المقاييس وتُنْصَب الموازين.

ثم كان ثاني مؤلِّفٍ ـ فيما زُعِمَ ـ في هذا الموضوع:

أبَان بن عثمان (ت بين ٩٥ ـــ ١٠٥هـ)

وقد سمّاه الدوري: أبان بن عثمان بن عفان، وقال: إنه «محدِّثٌ له ميل إلى دراسة المغازي، ومع أن أحد تلامذته كتب مغازيه إلا أنها تُوصَف بأنها من الحديث، وإذا استثنينا إشارة إليه في اليعقوبي فإننا لا نجد بين المؤرخين مَنْ نقل أو روى عنه، في حين أنه يُرْوىٰ عنه في كتب الحديث»(٣).

(١) نشأة علم التاريخ عند العرب: ٦٣.
(٢) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٦٣ ـ ٦٤.
(٣) نشأة علم التاريخ عند العرب: ٢١.

وذكره الدكتور جواد علي فقال: إنَّه «أقدمُ مَنِ اشتغل بالسيرة والمغازي، وممن شاركوا في الحياة السياسية»، و«كنّا نطمع أن نرى له الصدارة في تاريخ الطبري، غير أنه خيَّب أملنا كلَّ التخييب، فلم ينقل عنه شيئاً ولو خبراً واحداً، بل ورد اسمه في ١٤ موضعاً، لكنه لم يذكره راوياً متحدِّثاً، وإنما ذكره رجلاً متحدَّثاً عنه»[١].

والحقُّ أن كلام هذين الدكتورين ومَنْ سبقهما من المستشرقين[٢] إنما هو وهمٌ في وهم، وقد سقطوا جميعاً في ذلك لشبه اسم هذا الرجل وأبيه باسم مؤلِّفٍ في السيرة ليس هو ابن عثمان الخليفة، وإنما هو: أبان بن عثمان الأحمر البجلي؛ الذي روى عنه أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ وأبو عبد الله محمد بن سلام[٣]، وكان من الرواة عن الإمامَيْنْ أبي عبدالله جعفر بن محمد الصادق وأبي الحسن موسى بن جعفر (ع)، وقد اشتهر من مصنفاته كتابُه الكبير الذي يجمع «المبدأ والمبعث والمغازي والوفاة والسقيفة والردَّة»، وهو الكتاب الذي ذكره اليعقوبي المؤرخ ورجع إليه[٤]، وكان النجاشي والطوسي يرويان كتاب أبان هذا بعدة طرق[٥].

---

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي: المجلد ٣/ج١/٥٣ ـ ٥٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ـ الترجمة العربية ـ: ١/١٧.

(٣) يراجع فهرس الأعلام لكتاب طبقات فحول الشعراء للوقوف على كثرة رواية ابن سلام عن أبان.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/٣، ونصُّ قوله وهو يذكر مصادره: «وأبان بن عثمان عن جعفر بن محمد».

(٥) رجال النجاشي: ١٠ وفهرست الطوسي: ١٨ ـ ١٩، وقد اقتبسنا منهما ما أوردناه عن أبان البجلي.

وكان الثالث من اولئك المؤلفين فيما رووا:

وهب بن منبه (ت ١١٠هـ)

قال الدوري: «ألّف وهب في المغازي.... ولكن مغازي وهب لا يشار إليها في تواريخ السيرة، ولا أثر لها في أدب المغازي»، و«لقد اعتنى وهب بالإسرائيليات وهي قصص وأساطير عن العهد القديم، وأراد بها توضيح بعض الإشارات القرآنية»[١].

ثم قال في موضع آخر من كتابه:

«إن دراسة وهب بن منبه تخرج بنا عن نطاق بحث علم التاريخ عند العرب، ولكن وضعه من قبل بعض الباحثين [يعني المستشرقين] في هذا النطاق وتأكيد البعض على أهميته في السيرة دفعنا لبحثه هنا، لنبين بوضوح أنه لم يعتبر من أهل المغازي، وأن حقله وأثره في نطاق القصص والإسرائيليات»[٢].

وذكر الدكتور جواد علي وَهَباً هذا وقال: إنَّ له أصلاً عُني فيه برواية تاريخ الرسل وقصص الأنبياء وكتاباً في المغازي وكتاباً آخر قيل له: المبتدأ أو المبدأ؛ وهو في مبدأ خلق العالم.

ثم قال عن كتاب المبدأ هذا: إنه «كان عند عبد المنعم بن إدريس ابن سنان؛ ابن ابنة وهب بن منبه، المتوفى سنة ٢٢٨هـ، وقد نسب ابنُ النديم هذا الكتاب إلى عبد المنعم، وكان عبد المنعم هذا قاصّاً مشهوراً، وقيل عنه: إنه كان يكذب على وهبٍ ويضع الحديث على أبيه، وكان يطلب الكتب من الورّاقين ويدّعيها، ويشتري كتب السيرة فيرويها،

---

(١) نشأة علم التاريخ عند العرب: ٢٥ ـ ٢٦.
(٢) المصدر نفسه: ١٠٣.

ما سمعها عن أبيه، وقد ينسبها إلى جدِّه. . . . وإليه تعزى كل أخبار وهب بن منبه»[١].

ثم أعاد جواد علي ذكر وهبٍ مرة أخرى في بحثه وقال: إنه «قد استطاع حشو كتب المسلمين بتلك المادة السمينة من الإسرائيليات. . . . ولكن علينا أن لا ننسى ان قسطاً ليس بقليل من هذه الروايات التي نُسِبت إلى وهب كانت من وضع أفرادٍ من بني وهب استغلوا شهرته؛ فوضعوا عليه ما لم يكن قاله أو كتبه، وعلى رأس هؤلاء عبد المنعم بن إدريس راوي كتاب (المبتدأ) الذي كان عليه اعتماد الثعلبي في كتابه قصص الأنبياء»[٢].

ومن التأمل فيما ذكره هذان الباحثان عن وهبٍ نجد أنهما يعترفان بعدم الاطمئنان إلى كونه من أهل المغازي؛ وأن سبطه قد كذب ووضع ولفَّق على لسانه ما لم يقله ولم يكتبه. وما أدري لماذا أورداه ـ مع هذا كله ـ في سلسلة المؤلفين؟! خصوصاً وأن القطعة التي عثر عليها المستشرق بيكر من كتابه المزعوم في السيرة ـ وقد نُشِرت في ڤيسبادن سنة ١٩٧٢م ـ قد ورد في صدرها بعد البسملة: «حدثني محمد بن بحر أبو طلحة قال: حدثنا عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن أبي إلياس عن وهب بن منبه» أي أنها من رواية عبد المنعم الذي عُرِف بالكذب على جدّه وهب وبوضع الحديث على أبيه كما تقدَّم.

---

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي: ١/ ١٨٤ ـ ١٨٦.

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي: ١/ ١٩٣.

ثم كان ممَّن نُسِب إليه التأليف في السيرة:

شُرَحْبِيل بن سعد (ت ١٢٣هـ)
عاصم بن عمر بن قتادة (ت بين ١١٩ ـ ١٢٩هـ)

وقد ذكر الدوري هذين الرجلين بين المؤلفين، وقال عن الأول: إنه «يعكس تطور النظرة الاجتماعية؛ حين يقدِّم قوائم بأسماء الصحابة الذين شاركوا في الأحداث الكبرى؛ مثل البدريين والذين اشتركوا في معركة أُحُد وجماعة المهاجرين إلى الحبشة والمهاجرين إلى المدينة». ثم ذكر الثاني ومعه عبد الله بن أبي بكر بن حزم (ت ١٣٠ ـ ١٣٥هـ) وعدَّهما من جملة من قام «بتنمية وتوسيع دراسة المغازي». ثم أردف قائلاً عن هؤلاء الثلاثة: «وليس أمامنا إلاّ مقتطفات من مؤلفاتهم التي حددت إطار المغازي وهيَّأتْ جلَّ الموادِّ التي اعتمد عليها ابن إسحاق والواقديُّ بعده»[١].

وعرض الدكتور جواد علي لهؤلاء الثلاثة أيضاً، فعدَّ الأول والثاني بين مؤلِّفي السيرة والمغازي؛ وقال: إن الزمن قد ذهب بكتبهم «ولم يبق منها غير الاقتباسات التي وردتْ في الكتب التي اعتمدتْ عليها»[٢].

ولكنَّ هروفتس ـ وهو الرائد الأول للدوري وجواد ـ لم ير في هؤلاء إلاّ أنهم «من علماء الحديث»[٣] الذين وجَّهوا عنايتهم الخاصة إلى المغازي.

ونجد في ترجمة الحافظ ابن حجر لشرحبيل قوله عنه: إنه كان

(١) نشأة علم التاريخ عند العرب: ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي: ١/ ١٥٢ ـ ١٥٣.
(٣) المغازي الأولى ومؤلفوها: ٣٧.

«عالماً بالمغازي فاتَّهموه أنه يُدْخِلُ فيهم مَنْ لم يشهد بدراً؛ وفيمن قُتِل يوم أُحُدٍ مَنْ لم يكن منهم، وكان قد احتاجَ، فسقط عند الناس»[١].

كما نجد في ترجمة الحافظ نفسِه لعاصم: أنه «أمره عمر بن عبد العزيز أن يجلس في مسجد دمشق فيحدِّث الناسَ بالمغازي ومناقب الصحابة»[٢]. وفي ترجمته لعبد الله بن أبي بكر: أنه كان محدِّثاً؛ و«كان كثير الأحاديث»[٣]، ولم يذكر وجود مؤلَّف أو كتاب لأي واحد من هؤلاء الثلاثة.

والمستفاد مما تقدَّم: إن هؤلاء كانوا من الرواة، وقد شملت روايتهم شؤون السيرة أيضاً، وأن أولهم شرحبيل ساقط عند الناس لاتهامه بالوضع والتلفيق.

ثم كان ممَّن عُزي له التأليف في ذلك:

الزُّهري (ت ١٢٤هـ)

وقد وصفه الدوري بـ«المؤرخ»، وذكر أنه «لم يقتصر على رواية مغازي عروة بن الزبير، بل قام ببحث واسع عن روايات المدينة وأحاديثها»، وأن «دراسة رواياته التي وصلتنا تجعلنا نميل إلى أنه كان أول مَنْ أعطى (السيرة) ـ وهو التعبير الذي استعمله ـ هيكلاً محدوداً، ورسم خطوطها بوضوح»، «وقد أخذ الزهريُّ جُلَّ موادِّه عن السيرة من الحديث»[٤].

---

(١) تهذيب التهذيب: ١٠/ ٣٦١.

(٢) تهذيب التهذيب: ٥/ ٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ٥/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٤) نشأة علم التاريخ عند العرب: ٢٣.

ثم ذكر الدوريُّ بعد ذلك الزهريَّ مكرَّراً، وأكَّد اعتماده في المغازي على عروة؛ وأن روايات عروة هي المصدر الأول للزهري فيما وصلنا عنه من أخبار المغازي، وقال: «وليس لدينا من مغازي الزهري إلاّ مقتطفات وردت بالدرجة الأولى في ابن إسحاق» وآخرين ثم لخَّص مجموع ذلك بكون «معلومات الزهري التاريخية ـ على العموم ـ مستقاة من الأحاديث»[١].

وكلام الدوري المتقدم ـ كما يرىٰ القارىء ـ غير منسجم وغير متجانس في معانيه، إذ نرى الزهريَّ فيه راوياً لمغازي عروة المزعومة تارةً؛ ومؤرخاً باحثاً تارة أخرى، ولكنه ـ في تارةٍ ثالثةٍ ـ محدِّث يستقي معلوماته من الأحاديث!!.

ويرى الدكتور جواد علي إن الزهريَّ قد عمل «عملاً عظيماً جداً كان له أثر جليل في تطور المغازي والتاريخ، فهو أول مَنْ قابل بين الأحاديث المختلفة المصادر؛ فوفَّق فيما بينها وسعىٰ لإدماجها في حديثٍ واحد»[٢]، ثم قال في خاتمة الحديث عنه: إنه «لم يبق من مؤلفاته شيء»[٣].

ولم يتضح لنا منشأ الإعجاب «بالعمل العظيم» الذي تحدَّث عنه الدكتور جواد، لأن دمج الأحاديث المختلفة في حديثٍ واحدٍ ليس مرضيّاً عند علماء الحديث، لما فيه من ضياع الأسانيد وخفاء أسماء الرواة واختلاط الصحيح بغيره في نصٍ موحَّد لا يستطيع الباحثُ المتثبِّت الاطمئنان إليه.

---

(١) المصدر نفسه: ٧٩ و٨٢ و٩٥.

(٢) مجلة المجمع العلمي العراقي: ١/١٥٣ ـ ١٥٤.

(٣) المصدر نفسه: مج ٣/ج١/ ٤٠.

ومهما يكن من أمرٍ؛ فإن من غير الثابت أن يُنسب إلى الزهري مؤلَّفٌ في المغازي والسيرة، وقد اعترف هورفتس بذلك فقال: «لم يصل إلينا كتاب مستقل له، وإنما يوجد في مجموعة الأحاديث المسمّاة (الزهريات) التي رواها وجمعها كُتّاب متأخرون»[١]. ولهذا فإن المتيقن من كل ما سلف أنه كان من الرواة عن عروة بن الزبير، وقد روى عنه ما يُعنى بأخبار المغازي بالخصوص وما يُعني بغيرها أيضاً، وسبق منّا القول في عدم الاعتماد على عروة وعدم الوثوق به، ويكون الزهريُّ ـ تبعاً لذلك ـ مثله في عدم الركون إلى مرويّاته، وخاصة بعد اشتهاره بصلته الوثيقة بالخلفاء الأمويين وكونه أحد رجال الإعلام (السلطوي)[٢]؛ والعيب عليه في ذلك كما روى هورفتس[٣].

ونسوق هنا للتمثيل على ذلك ما رواه أبو الفرج الأصبهاني بسنده عن الزهري قال: «قال لي خالد بن عبد الله القَسْري: اكتب لي السيرة، فقلتُ له: فإنه يمرُّ بي الشيءُ من سِيَرِ عليٍّ بن أبي طالب فأذكره؟ فقال: لا؛ إلاّ أن تراه في قعر الجحيم!!»[٤]، وما رواه ابن أبي الحديد عن الزهري: «أن عروة بن الزبير حدَّثه قال: حدَّثتني عائشةُ قالت: كنتُ عند رسول الله (ص) إذ أقبل العباس وعليٌّ، فقال: يا عائشة؛ إنَّ هذين يموتانِ على غير ملَّتي ـ أو قال: ديني!!»[٥].

---

(١) المغازي الأولى ومؤلفوها: ٦٧.
(٢) وفيات الأعيان: ٣/ ٣١٩.
(٣) المغازي الأولى ومؤلفوها: ٦٢.
(٤) الأغاني: ٢٢/ ١٥.
(٥) شرح نهج البلاغة: ٤/ ٦٤.

ثم كان ممن عُدَّ من مؤلِّفي السيرة الأوائل:

موسى بن عقبة (ت ١٤١هـ)

والحقُّ الذي يجب إعلانه والإقرار بصحته أن هذا الرجل كان الأول والأقدم بين مؤلفي المغازي على الإطلاق، وقد وجدنا النصَّ على كتابه في كلمات عدد من الأعلام المتقدمين[١]، وعلى كونه «أول من صنَّف في ذلك»[٢]، ووصف الذهبي هذا الكتاب بأنه مجلَّد ليس بالكبير، وذكر أنه قد سمعه روايةً؛ وأنه لخَّص ما جاء فيه من الترجمة النبوية والمغازي المدنيَّة في تاريخه الكبير[٣]. وقد رأينا في تاريخه المذكور رواية «غزوة بدر؛ من مغازي موسى بن عقبة» بلفظه على طوله[٤].

ثم جاء بعده المؤلِّف الأوسع رواية وبحثاً:

محمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ)

وقد ذكره الدوري فقال: «حين نأتي إلى ابن إسحاق نحسُّ بخطوط جديدة في التطور... ونحسُّ بأننا انتقلنا إلى علماء هم مؤرِّخون أولاً؛ ثم محدِّثون.... وقد وصلتنا من ابن إسحاق أقدم سيرة تكاد تكون محفوظة بكلِّيَّتها».

ثم قال أيضاً: «ذهب ابن إسحاق أبعد من حدود مدرسة المدينة، سواء أكان ذلك في نظرته التاريخية أم في أسلوبه، فقد جمع بين أساليب المحدِّثين والقصّاص في كتاباته، واستفاد من مختلف نواحي الاهتمام

---

(١) فهرسة ابن خير: ٢٣٠ وتهذيب التهذيب: ١٠/ ٣٦١.
(٢) سير أعلام النبلاء: ٦/ ١١٤.
(٣) المصدر نفسه: ٦/ ١١٦.
(٤) التاريخ الكبير: ج ١/ق١/ ١٣٤ ـ ١٤٢.

بالمغازي وتواريخ الأنبياء.... ولذا فإن مصادر معلوماته تكوّن خليطاً يجلب الانتباه.... أما رواياته عن فترة الرسالة فترجع في جوهرها إلى أساتذته في المدينة مع إضافات حصل عليها.... ويظهر أن عامة المؤرخين ينظرون إلى سيرة ابن إسحاق.... نظرة حسنة»[١].

وقال الدكتور صالح أحمد العلي: إن «أقدم كتاب واسع وصلنا في حياة الرسول (ص) هو سيرة الرسول التي كتبها ابن إسحاق»[٢].

وقال الدكتور سهيل زكار: إن «ابن إسحاق شيخ كتّاب السيرة، وصار مَنْ كتبوا بعده عيالاً عليه»[٣].

ثم تحدَّث زكار عن هذا الرجل بالتفصيل وقال: إن ابن إسحاق كتب السيرة لأوَّل مرَّة بالمدينة، وتمثَّل رواية يونس بن بكير (ت ١٩٩هـ) الشكل الأول ـ أي المدنيّ ـ غالباً. ثم ارتحل ابن إسحاق من المدينة إلى الكوفة، وأتىٰ أبا جعفر المنصور بالحرة قبل تمصير بغداد؛ فسمع منه أهلُ الكوفة مغازيه هناك، وتمثل رواية زياد البكائي (ت ١٨٣هـ) الشكل الثاني منها ـ أي الكوفي ـ ثم انتقل ابن إسحاق إلى بغداد بعد بنائها فأملىٰ السيرة على مَنْ سمعها منه هناك، وتمثَّل رواية محمد بن سلمة الحرّاني (ت ١٩١هـ) الشكل البغداديّ منها ـ وهو الثالث ـ وهكذا تكوَّنت ثلاث نسخ من السيرة: الأولى من العهد المدني، والثانية من العهد الكوفي، والثالثة من العهد البغدادي، «وقد بقيتْ أجزاءٌ من النسختين الأولى والثانية تسمحان لنا بالذهاب إلى أن المنصور أراد من ابن إسحاق التركيز بشكل أوضح على دَوْر العباس ابن عبد المطلب

(١) نشأة علم التاريخ عند العرب: ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) الدولة في عهد الرسول: ١/ ٨.

(٣) السير والمغازي؛ المقدمة: ٩.

وأخباره مع النبيّ وخدماته الجُلّىٰ للإسلام، وربما رافق ذلك طَمْسَ بعضِ ما يتصل بنواحي ضعف العباس وأعماله المعادية للرسول قبل إسلامه»[١].

وسواءً أثبت ما ذهب إليه الدكتور سهيل زكار من نُسَخ السيرة كونها ثلاثاً كما قال أو لم يثبت، فإن من المسلَّم به أن ابن إسحاق قد بدأ عمله في المدينة وأملىٰ رواياته هناك، وتمثّل القطعة التي نشرها الدكتور زكار من السيرة بعضاً من ذلك العمل المدني. ثم أعاد ابنُ إسحاق إملاءَ كتابه ـ وربما أعاد الكتابة أيضاً ـ في الكوفة، وتمثّل سيرة ابن هشام بعض هذه الأمالي الكوفية. ثم كانت بغداد هي المحطة الثالثة والأخيرة لابن إسحاق فيما أملىٰ وكتب، وتمثل روايات الطبري عن محمد بن سلمة عن ابن إسحاق أمثلة من ذلك الإملاء. ولا بد أنه كان يضيف إليها وينقح فيها في كل مرة ما يرى إضافتَه وتنقيحَه، وقد يكون بعضُ المَزِيد والمنقَّح قد تمَّ بطلبٍ من العباسيين؛ أو برغبةٍ من المؤلف في التقرب إليهم.

والنصُّ المعروف المتداول اليوم من سيرة ابن إسحاق الكاملة هو المنتخب الذي قام باختصاره وانتقائه من الأصل أبو محمد عبد الملك ابن هشام بن أيوب الحميري المتوفى سنة ٢١٣ أو ٢١٨هـ، واعتمد فيه الروايةَ أو الإملاءَ الكوفي الذي رواه زياد بن عبد الله البكائي المتقدم الذكر عن ابن إسحاق نفسه.

ويقول ابنُ هشام في مقدمة اختصاره للسيرة محدِّداً معالم عمله فيما أبقى وحَذَفَ: إنه تَرَكَ:

---

(١) السير والمغازي/ المقدمة: ١٣.

١ ـ ذِكْرَ غير أجداد النبيّ (ص) من وَلَدِ إسماعيل.

٢ ـ بعضَ ما ذكره ابنُ إسحاق «ممّا ليس لرسول الله (ص) فيه ذِكْرٌ، ولا نَزَلَ فيه من القرآن شيءٌ».

٣ ـ أشعاراً ذكرها ابنُ إسحاق.

٤ ـ «أشياءَ بعضُها يشنع الحديثُ به».

٥ ـ بعضاً «يسوء بعضَ الناس ذِكْرُه»[١].

ويقول الدكتور سهيل زكار معلّقاً علىٰ ما أسقطه ابن هشام من نصوص ابن إسحاق: «ان لهذا النوع من الحذف ـ ولا شك ـ أسباباً سياسية؛ وأخرى تتصل بالصورة التاريخية لعصر ابن هشام عن النبيّ وصحابته»[٢].

والحقُّ مع الدكتور سهيل فيما قال؛ بل هو عين الصواب، إذ قد تقمَّص ابنُ هشام في اختصاره للسيرة المذكورة شخصيةَ «الرقيب» السياسي الذي يحذف كلَّ ما يراه منافياً أو خارجاً على «الخط» الثابت الذي يراد إبرازُه والحفاظُ عليه، ويروي ما سواه مما هو داخلٌ ضمن اطار ذلك «المنهج» وحدوده؛ أو غير مناقضٍ له على كل حال، ولذلك وجدناه قد حذف ـ مثلاً ـ أكثر شعر أبي طالب بن عبد المطلب؛ وخصوصاً ذلك الشعر الذي يدل بصراحةٍ على إسلامه وإقراره بالرسالة والرسول، كالمقطوعة التي يقول فيها:

مَنَعْنا الرسولَ رسولَ المليكِ ببيضٍ تلالا كلَمْعِ البُروق[٣]

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٤.

(٢) السير والمغازي لابن إسحاق/ المقدمة: ١٦.

(٣) السير والمغازي: ١٤٩.

والمقطوعة التي يقول فيها مخاطباً النبيَّ (ص):

وعرضتَ ديناً قد عرفتُ بأنه   من خير أديان البرية دينا[١]

والمقطوعة التي يقول فيها:

وإنْ كانَ أحمدُ قد جاءهم   بحقٍ ولم يأتهم بالكَذِبْ[٢]

والمقطوعة التي يقول فيها:

وأمسىٰ ابنُ عبد الله فينا مصدَّقاً   على سَخَطٍ من قومنا غير معتبِ[٣]

إلى كثيرٍ من أمثال ذلك مما يطول ذكره، حتى بلغت به الحال أن يحذف من شعر أبي طالب ما يمسُّ نسبَ بني أمية، وقد صرَّح شيخ البطحاء فيه بأنهم ليسوا أبناء حقيقيين لعبد شمس كما يزعمون، وإنما كانوا من نسل عبدٍ تبنّاه عبدُ شمس على عادة العرب في الجاهلية فنُسِبَ إليه، فقد روى ابنُ إسحاق في بعض شعر أبي طالب الذي يدافع به عن نبيِّ الإسلام ويهجو أعداءه المجاهرين له بالحرب قولَه:

وليداً أبوه كانَ عبداً لجدِّنا   إلى علجةٍ زرقاءَ جاش بها البحرُ[٤]

فحذف ابنُ هشام هذا البيت وبيتاً آخر من المقطوعة نفسِها وقال: «تركنا منها بيتين أقذع فيهما»[٥]، ولم يتضح لنا السبب المقبول لتركه

(١) السير والمغازي: ١٥٥.
(٢) المصدر نفسه: ١٦٣.
(٣) المصدر نفسه أيضاً: ١٦٤.
(٤) السير والمغازي: ١٥٣، وقد رواه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: ١٥/ ٢٣٣ بنصّ آخر هو:

قديماً أبوهم كان عبداً لجدِّنا   بني أمَةٍ شهلاء جاش بها البحرُ

(٥) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٨٧.

البيتين وإنكاره لما سماه إقذاعاً؛ مع أنه في هجاء أعداء الإسلام المشركين وفي الدفاع عن النبيّ (ص) ورسالته الحقَّة!!.

ولستُ هنا معنياً بالمقارنة الدقيقة الشاملة بين نصِّ ابن إسحاق الذي حفظت لنا الأيام قطعةً منه ـ هي التي نشرها الدكتور سهيل زكار ـ وبين عمل ابن هشام القائم على الحذف والاختصار. ولكن البيِّن على كل حالٍ أن ذلك الاختصار لم يكن بدوافع علمية نزيهة وبضوابط موضوعية سليمة، بل إن البرهان العملي المستند إلى المقارنة المعمَّقة يثبت عكس ما ذهب إليه الدكتور صالح أحمد العلي من أن ابن هشام «كان دقيقاً في النقل، ولكنه هذَّب فيها فحذف بعضَ الأخبار وأبدىٰ شكوكه في أصالة بعض القصائد التي رواها ابن إسحاق»[1]، إذ إن الرجل لم يكتف بالتهذيب وحذفِ ما زَعَم أنه مشكوك، وإنما صرَّح بتعمُّد حذفِ كثيرٍ مما ورد في الأصل مما هو ثابت وصحيح لديه، وعلَّل ذلك كما أسلفنا نقله بأنه مما «يشنع الحديث به» أو «يسوء بعضَ الناس ذكرُه» أو أن الشاعر قد «أقذع» في هجاء المشركين في شعره، وذلك كله شيءٌ آخر غير التهذيب والتشكيك المُدَّعىٰ.

وعلى كل حال؛ فلا ريب أن محمد بن إسحاق كان المؤلف الأول في السيرة في تاريخ التأليف العربي على هذا النحو من السعة والتفصيل والشمول؛ وإن كان قد سبقه أو عاصره في ذلك موسى بن عقبة المتقدم الذكر؛ ولكن كتاب موسى لم يكن كبيراً وشاملاً ككتاب ابن إسحاق.

ثم انطلق التأليف في هذا الموضوع بعد ابن عقبة وابن إسحاق،

---

(١) الدولة في عهد الرسول: ١/ ٩.

وتداوله الرواة والمؤرخون جيلاً إثر جيل وعصراً بعد عصر، وكانت الحصيلة لذلك كله ما أربى عدده على الاحصاء من الكتب والمصنفات.

ولقد كان من الأمور الطبيعية كما يقول الدكتور جواد علي أن ينشأ علم السيرة في المدينة، «لأنها الموطن الأصلي للدعوة الإسلامية، ومنها انتشر الإسلام، فاكتست السيرة ثوباً مدنيّاً وطُبعت بالطابع الذي تميَّز به أهل الحجاز وهو ميلهم إلى الحديث. . . . غير أن هذا الاحتكار ـ وإن دام طوال عهد الخلفاء الراشدين وأيام الأمويين بصورة عامة ـ لم يتمكن من المحافظة على مركزه في العهد العباسي، فتضعضع في أيام الخليفة المنصور بهجرة محمد بن إسحاق أو قبل ذلك بقليل، وظهر منافسون لعلماء السيرة المدنيين ظهروا في بغداد والكوفة والبصرة، بل في مصر كذلك، وهم وإن كانوا قد تأثروا بسيرة ابن إسحاق المستمدة من روحية أهل المدينة؛ فإن الأمور سرعان ما تبدلت عندهم»[1].



ونعود ـ بعد هذا الاستعراض الواسع لأسماء رواة السيرة الأوائل والمؤلفين منهم فيها بوجهٍ خاص ـ إلى الجانب الآخر في هذا التمهيد؛ وهوالذي يُعنىٰ بتقويم ما ورد من أخبار العهد النبوي وتاريخه وأنباء أحداثه ووقائعه، ويتجلى ذلك أمام الباحث في أعدادٍ هائلة من الروايات وكمّ عظيم جداً من الأحاديث، منها ما ضمَّه كتاب خاص في هذا الموضوع، ومنها ما تناثر في خلال المصنَّفات التراثية المعنيَّة بالتاريخ بمعناه العام أو المقصورة على علمٍ أو فنٍ خاص؛ ككتب التفسير والفقه والحديث.

---

(١) مجلة المجمع العلمي العراقي: ١/١٥٣.

ونستطيع - بإيجازٍ - تقسيمَ تلك الروايات المتصلة بالسيرة والمغازي وما إليها إلى قسمين:

١ - القسم المقبول:

ونعني به ما ثبت منه بالشياع أو التواتر أو السند الصحيح؛ أو لم يقم دليل على بطلانه؛ أو كان متفقاً في مجمل دلالته ومعناه مع الخط العام لسير الأحداث والأسس الثابتة للعقيدة وأصولها المقرَّرة.

٢ - القسم المرفوض:

ونعني به:

أ - ما كانَ غير مرضيِّ السند: إمّا لإرساله وعدم ورود اسم الراوي المشاهِد بنفسه للحدث المرويِّ فيه؛ أو لما ورد من طعونٍ في رواته كلاً أو بعضاً، وهو في الحالين غير صالح للاعتماد والاستناد.

ومن ذلك مثلاً: ما ورد مروياً عن عبد الله بن عباس من أخبار السنين الأولى للبعثة الشريفة ولم يكن الرجل مولوداً يوم ذاك[1]؛ ولم يُسنِد روايتَه إلى حاضرٍ أو مشاهدٍ للأمر المحدَّث به، كرواياته في أول فَرْض الصلاة[2]؛ وعن اجتماع قريش في مكة[3]؛ وعن كلام المشركين مع أبي طالب[4]؛ وعن تشاور المشركين في دار الندوة[5]؛ وعن أول قدوم النبيّ (ص) المدينة[6]، وأمثال ذلك.

---

(١) ولد عبد الله بن عباس قبل الهجرة بثلاث سنين كما في الاستيعاب: ٢/ ٣٤٣ وأسد الغابة: ٣/ ١٩٣ والاصابة: ٢/ ٣٢٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٦١.

(٣) سيرة ابن هشام: ١/ ٣١٥.

(٤) المصدر نفسه: ٢/ ٥٨.

(٥) المصدر نفسه: ٢/ ١٢٤.

(٦) المصدر نفسه: ١/ ٣٣٠.

وكذلك ما ورد مروياً عن أُمِّ المؤمنين عائشة عن بدء البعثة النبوية[١]؛ وفي بدء فرض الصلاة[٢]؛ وفيما يتعلق بأخبار النبيّ (ص) في مكة قبل نقض الصحيفة[٣]، ولم تُسنِد ذلك إلى أبيها أو إلى غيره من الحاضرين، بل حتى روايتها في الإسراء حين حدَّثت أن النبي (ص) لم يُفقَد جسدُه في تلك الليلة[٤]؛ فإنها لم تكن تسكن معه في بيتٍ واحد لتعلم أن الإسراء كان بالجسد أو بالروح.

ومثله ما ورد مروياً عن معاوية بن أبي سفيان من أن الإسراء كان رؤياً صادقة[٥]، مع علم الجميع بأن معاوية يومذاك كان كافراً محارباً لله ورسوله، ولا علاقة له بالرسالة ونبيها المرسَل ليكون على علمٍ بحقيقة الإسراء.

ومن هذا القبيل ما أخرجه البلاذري عن سعيد بن المسيب قال: «نظر رسول الله (ص) إلى عثمان فقال: هذا التقيُّ المؤمن الشهيد شبيه إبراهيم»[٦]، مع أن سعيداً هذا قد ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر[٧]. وكذلك ما أخرجه البلاذري عن الحسن البصري قال: «قال رسول الله (ص): مَنْ يجهِّز هذا الجيش - يعني جيش العسرة - بشفاعةٍ متقبَّلة؟ فقال عثمان: يا رسول الله بشفاعةٍ متقبَّلة؟ قال: نعم على الله ورسوله، قال: أنا أُجهِّزُهم بسبعين ألفاً»[٨]، وقد ولد الحسن البصري

---

(١) المصدر نفسه: ١/ ٢٤٩.
(٢) المصدر نفسه: ١/ ٢٦٠.
(٣) المصدر نفسه: ٢/ ١٢.
(٤) المصدر نفسه: ٢/ ٤٠.
(٥) المصدر نفسه: ٢/ ٤٠ و٤١.
(٦) أنساب الأشراف: ٥/ ٣.
(٧) تذكرة الحفاظ: ١/ ٥٤.
(٨) أنساب الأشراف: ٥/ ١٠.

قبيل وفاة عمر بن الخطاب[1]، فكيف سمع هذان الرجلان من رسول الله (ص)!!؟.

ب ـ ما كانت دلالته متضاربة مع الخطوط الرئيسة للإسلام، وعلى الضدِّ من مُسَلَّمات الدين؛ وإن قيل ما قيل في مدح رواته وتصحيح سنده.

ومن أبرز أمثلة ذلك قصة الزيادة في سورة النجم، وقد ورد فيها ذكرُ الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لتُرْتجىٰ[2]. وهي قصة ملفقة من الألف إلى الياء، ودلائل تلفيقها أوضح من أن تخفى، لما حملتْ من فكرة تقديس الأصنام التي تقف على النقيض تماماً من لُبِّ الإسلام وجوهر الدين القائم على التوحيد الخالص ومحاربة الوثنية بكل ألوانها وأشكالها المختلفة، لذلك قال السهيلي فيه بعد ايراده: «أهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة»[3].

ومن هذا القبيل أيضاً تلك النصوص التي لا تخلو من مسّ بمقام النبوة وتوهينٍ لشأن النبيّ (ص)، وهو خاتم النبيين وسيد المرسلين، والمنزَّه عن كل ما ينافي السلوك الأمثل والإلتزام الأكمل بضوابط الخلق العظيم والأدب الكريم، فقد جاء فيما رُوي عن السيدة عائشة أنها قالت: «كان رسول الله (ص) مضطجعاً في بيتي كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدَّث، ثم استأذن عمر فأذن له وهوكذلك فتحدَّث، ثم استأذن عثمان فجلس رسول

---

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ٧١.

(٢) السير والمغازي: ١٧٧ ـ ١٧٨ وطبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ١٣٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٣٨ ودلائل النبوّة: ٢/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧.

(٣) الروض الأنف: ٢/ ١٢٦.

الله (ص) وسوّى ثيابه. . . فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتشَّ له ولم تُباله، ثم دخل عمر فلم تهتشَّ له ولم تُباله، ثم دخل عثمان فجلستَ وسوَّيتَ ثيابك؟ فقال: ألا استحيي من رجلٍ تستحيي منه الملائكة»[١]، وهذا الحديث ـ في رأيي ـ لا أساس له من الصحة، لأنه يتضمن من سوء الأدب في النقل والوصف ما يأباه كل مسلم حصيف، كما أنه ينافي ما رواه البخاري وابن حنبل عن النبيّ (ص) نفسِه من أن «الفخذ عورة»[٢].

وجاء أيضاً في المرويّ عن السيدة عائشة أنها حدَّثت فقالت: «كان رسول الله (ص) جالساً فسمعنا لغطاً وصوتَ صبيانٍ، فقام رسول الله (ص) فإذا حبشية تزفن (أي ترقص) والصبيان حولها، فقال: يا عائشة تعالي فانظري، فجئتُ فوضعتُ لحييَّ على منكب رسول الله (ص) فجعلتُ أنظر إليها. . إذ طلع عمر فارفضَّ الناسُ عنها، فقال رسول الله (ص): إني لأنظر شياطين الإنس والجنّ قد فرُّوا من عمر، قالت: فرجعتُ»[٣]، ومثله ما أخرجه أبو نعيم بسنده عن الأسود بن سريع قال: «أتيتُ النبيَّ (ص) فقلتُ: قد حمدتُ ربي بمحامد ومِدَحٍ وإياك، فقال: إن ربك عزَّ وجلّ يحبُّ الحمدَ، فجعلتُ أُنشِده، فاستأذن رجل. . . فقال لي رسول الله (ص): اسكت. . . ثم خرج فأنشدتهُ، ثم جاء فسكَّتني النبيّ (ص) فتكلم ثم خرج. . . . فقلتُ: يا رسول الله مَنْ هذا الذي أسكتَّني له؟ فقال: هذا عمر؛ رجلٌ لا يحبُّ الباطل»[٤].

إن كلَّ ما تقدم وما كان على شاكلته مرفوض أشد الرفض، لما فيه

---

(١) صحيح مسلم: ٧/١١٦ ـ ١١٧ ومسند أحمد: ٦/٦٢.
(٢) صحيح البخاري: ١/٩٨ ومسند أحمد: ١/٢٧٥ و٥/٢٩٠.
(٣) سنن الترمذي: ٥/٦٢١ ـ ٦٢٢.
(٤) حلية الأولياء: ١/٤٦.

من إساءة الأدب لمقام النبوة، ومن الإشعار بنسبة حُبِّ الباطل وألفة الشياطين إلى أقدس مَنْ خلق الله من بني آدم.

ج ـ ما كان فيه طمسٌ متعمَّد للفظٍ أو ألفاظ من الحديث، أراد بعضُ الرواة إخفاءها بدافع سوء النية، لما فيها من مديحٍ لإنسانٍ ربما كان الراوي يبغضه أو يتزلف بذلك إلى من يبغضه.

ومن أبرز أمثلة ذلك ما رواه الطبريُّ في حديث يوم الدار حين أمر الله تعالى نبيَّه بإنذار عشيرته الأقربين، فدعاهم وجمعهم وخطب فيهم ثم قال: «فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي وكذا وكذا»!!، فلما أحجم القوم عن الجواب ولم يقم إلا عليٌّ (ع) قائلاً: أنا يا نبيَّ الله... قال النبيّ (ص): «إن هذا أخي وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا»[١]، والنصُّ الصحيح أن النبيّ (ص) قال: «إن هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم»[٢]، فوضع الراوي كلمة «كذا» بدل «وصيي» و«كذا» أخرى بدل «خليفتي فيكم».

وكذلك ما رواه محمد بن سلمة عن ابن إسحاق في خبر غزوة العُشَيرة في السنة الأولى من الهجرة، وجاء في آخر النص: «وفي تلك الغزوة قال لعلي بن أبي طالب (ع) ما قال»[٣]، ولم يذكر هذا الراوي عن ابن إسحاق ماذا قال، ولعل الذي حذف التتمة هو محمد بن سلمة، لأن البكائي فيما روى عن ابن إسحاق قد أوردها وهي: قال: إن أشقى الناس الذي يضرب علياً «على هذه ـ ووضع يدَه على قَرْنه ـ حتى يبلَّ منها هذه ـ وأخذ بلحيته»[٤].

---

(١) تفسير الطبري: ١٩/ ١٢٢ والبداية والنهاية: ٣/ ٤٠.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٣) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٠٦.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٤٩.

د ـ ما كان واضح الزيف صريح الكذب بالمنظور التاريخي المحض، وبعيداً عن أية مناقشات أو شكوك أخرى:

ومن أبين شواهد ذلك ما أخرجه مسلم بسنده قال: «إن المسلمين كانوا لا ينظرون إلى أبي سفيان ولا يُقاعِدونه، فقال للنبيّ (ص): يا نبيَّ الله؛ ثلاثٌ أعطنيهنَّ، قال: نعم، قال: عندي أحسن العرب وأجمله أمُّ حبيبة بنت أبي سفيان أُزَوِّجُكها، قال: نعم، قال: ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك، قال: نعم، قال: وتؤمِّرني حتى أُقاتل الكفارَ كما كنت أقاتل المسلمين، قال: نعم ـ إلى آخر الخبر ـ»[1]، وكذبُ هذا الخبر لا يحتاج إلى شرح وفصيل، لأن أبا سفيان قد تلفظ بالشهادتين لينجو بنفسه من القتل في السنة الثامنة من الهجرة عند فتح مكة، وكان النبيّ قد تزوَّج أُمَّ حبيبة وهي بأرض الحبشة[2] حينما ارتدَّ زوجها الأول، أي قبل فتح مكة بأكثر من عشر سنوات.

ومثل هذا النص في الزيف والبطلان ما رُوِيَ عن المسور بن مخرمة في أسطورة خطبة عليّ (ع) امرأةً في عصر النبوّة وفي أيام حياة زوجه الزهراء (ع)[3]، وما رُوي عنه أيضاً في فعل النبيّ (ص) لما خرج إلى الحديبية من تقليده الهديَ وإشعاره وإحرامه بالعمرة[4]، وما روي عنه في غير ذلك وهو غير قليل، وكل ذلك لا أصل له ولا أساس، لأن المسور قد وُلِدَ بعد الهجرة بسنتين وكان لمّا قُبض النبيّ (ص) ابن ثمان

---

(١) صحيح مسلم: ٧/ ١٧١.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٩٥، وفي السيرة نفسها: ٤/ ٣٨ نصٌّ ورد فيه ذكر دخول أبي سفيان قبل إسلامه على ابنته أم حبيبة؛ وأنها طوت فراش رسول الله (ص) عنه لأنه مشرك نجس.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ٢٨ ومسند أحمد: ٤/ ٣٢٦ وسنن ابن ماجه: ١/ ٦٤٣ـ ٦٤٤.

(٤) صحيح البخاري: ٢/ ١٩٧ والتاريخ الكبير للذهبي: ١/ق ١/ ٢٨١ ـ ٢٨٢.

سنين[١]؛ وإن ادَّعى في إحدى مزاعمه أنه سمع ذلك من النبيّ (ص) وهو «محتلم»[٢]، والصحيح أنه كان يومذاك دون الثامنة من العمر.

❀ ❀ ❀

هذا هو غيض من فيض مما ورد في أخبار السيرة ورواياتها التي تتكدس في المصادر المعنية بلا غربلة ولا تمحيص، ولا أريد الإطالة في سرد الشواهد والأمثلة على ما تقدَّم ذكره؛ لأنها قد تخدش بعض العواطف الحساسة أو تجرح بعض المشاعر المرهفة، وليس هذا التمهيد بالمكان الذي يستساغ فيه الخدش والتجريح، وإنما المراد الأول والأخير من كل ذلك بيان الواقع المرِّ الذي لا نرى مناصاً من الاعتراف بوجوده بل بكثرة وروده.

ولقد كان غرضي الرئيس من كل ما أسلفتُ الحديث عنه أن يكون القارىء الكريم على علم تام بموقفي من مصادر البحث وأصوله؛ وبطريقتي المختارة في التعامل معها في الأخذ والرفض، وسوف يجد أني لم أخرج في كل ذلك عمّا اعتمد عليه عموم الباحثين وجمهور المؤلفين من روايات ونصوص، ولكن بعد استبعاد كلِّ ما كان غير مقبول في موازين الفحص والتحليل والجرح والتعديل، سواءً أكان ذلك إرسالاً في سند النصِّ؛ أو عدمَ ثقةٍ براوٍ أو أكثر من رواته؛ أو كان مخالفاً لأسس الاعتقاد ومنافياً لقدسية الرسول ومقامه الأسمى عند المسلمين المتأدبين بأدب القرآن تجاه نبيّهم العظيم.

والله تعالى هو المسدِّد للصواب والهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) الاستيعاب: ٣/ ٣٩٧ والاصابة: ٣/ ٣٩٩.

(٢) صحيح مسلم: ٧/ ١٤١.

الولادة والنشأة

أجمع الرواة قاطبة على ولادة النبيّ ـ (ص) ـ عام الفيل[1]، وأتفق معظمهم على أنَّها كانت في شهر ربيع الأول من ذلك العام[2]، ثم اختلفوا في تعيين يوم الولادة من ذلك الشهر على أقوال:

فذهب بعضهم إلى ولادته في اليوم الثاني من ذلك الربيع[3].

وقيل: في الثامن منه[4].

وقيل: لعشر ليالٍ خلون منه[5].

---

(١) السير والمغازي: ٤٨ وسيرة ابن هشام: ١/ ١٦٧ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٤ وطبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ٦٢ و٦٣ وأنساب الأشراف: ١/ ٩٢ وتاريخ الطبري: ٢/ ١٥٥ والكافي: ١/ ٤٣٩.

(٢) جميع المصادر الآتي ذكرها في تحديد اليوم، وشذ الزبير بن بكّار فذهب إلى ولادته في شهر رمضان (الاستيعاب: ١/ ١٣).

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٤ وطبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ٦٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٩٢ والاستيعاب: ١/ ١٣ والبداية والنهاية: ٢/ ٢٦٠.

(٤) البداية والنهاية: ٢/ ٢٦٠، وقال ابن كثير: «حكاه الحميدي عن ابن حزم، ورواه مالك وعقيل ويونس بن يزيد وغيرهم عن ازهري... ونقل ابن عبد البَرّ عن أصحاب التاريخ أنهم صحّحوه، وقطع به الحافظ الكبير محمد بن موسى الخوارزمي، ورجّحه الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتابه التنوير».

(٥) طبقات ابن سعد: ١/ ق ١/ ٦٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٩٢ والبداية والنهاية: ٢/ ٢٦٠.

وقيل: في الثاني عشر منه[١].

وقيل: في السابع عشر[٢].

وقيل: لثمانٍ بقين منه[٣].

وكانت ولادته في شِعب أبي طالب؛ في الدار التي آلتْ بعد ذلك لمحمد بن يوسف؛ في الزاوية القصوى عن يسارك وأنت تدخل الدار، وقد أخرجت الخيزران ذلك البيت فصيرَّته مسجداً يصلّي الناسُ فيه[٤].

واستقبل بيتُ عبد المطلب هذا الوليدَ السعيدَ وحيدَ عبد الله بالفرح الغامر والسرور البالغ، كما استقبل هذا الطفلُ الكريمُ دنياه الجديدة بوجهه الوضّاء المبارك؛ وبسمته المشرقة الطافحة بأُمنيات الخير والرفاء لأهله خاصة، وقومه عامة، ولكلِّ أهل الأرض وبني البشر قاطبة.

إنه محمد:

سليل أشرف عائلة في العرب؛ ووريث أمجد أسرةٍ ملكت من العزِّ والجاه والقوة والشأن ما لم يكن يدنو له الآخرون.

فهو ابن هاشم بن عبد مَنَاف؛ عبقري قريش وزعيم مكة؛ الذي سنَّ أول معاهدة في تاريخ البشرية بين دول عصره، لتنظيم التجارة وتيسير عمليات التسويق وحماية الطرق التي تسلكها القوافل الرائحة الغادية، فكان الإيلاف ببركة ذلك، وكانت الرحلات الآمنة المطمئنة بين

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ١٦٧ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٩٢ وتاريخ الطبري: ٢/ ١٥٦ والكافي: ١/ ٤٣٩ وإكمال الدين: ١١٣.

(٢) التهذيب: ٦/ ٢ والمناقب: ١/ ١١٨ والبداية والنهاية: ٢/ ٢٦٠.

(٣) البداية والنهاية: ٢/ ٢٦٠.

(٤) الكافي: ١/ ٤٣٩ والاستيعاب: ١/ ١٣.

الحجاز وبين اليمن والحبشة وبلاد الشام والفرس والروم، ثم كان ذلك الخير الوفير الذي شهدته البلاد الحجازية في ظل تلك المعاهدة الحكيمة وقيادة هذا الزعيم العظيم[١].

وهو ابن عبد المطلب خليفة هاشم ووارث مجده، والمسؤول عن شؤون الكعبة والحجيج، والشيخ المسلَّم الرئاسة في مكة وما والاها، وحافر زمزم مانحة الماء الذي جعل الله منه كلَّ شيء حيّ، والشاهد المعاصر لهزيمة أبرهة وجيشه الهادر؛ بالطير الأبابيل التي رمتهم بحجارة من سجّيل فجعلتهم كعصف مأكول[٢].

وهو ابن عبد الله الذي فداه ربُّه بمائة من الإبل إنقاذاً له من القتل وفاءً لنذر أبيه[٣]، ويسَّر له الزواج بعد نجاته من الموت بالسيدة آمنة بنت وهب؛ وهي يومئذ من فضليات النساء نسباً وشرفاً ومكانة ومحتداً[٤]، غير أن الأجَل لم يمهل عبد الله كي يرى ولدَه البكر المؤمَّل، فتوفي وابنه حَملٌ في بطن أُمّه[٥].

ولما حان وقت ولادة آمنة وخرج ابنها إلى الدنيا «أرسلت إلى جدِّه عبد المطلب أنه قد وُلِدَ لك غلام فأتِه فانظرْ إليه، فأتاه فنظر إليه،

---

(١) يراجع في ترجمة هاشم: سيرة ابن هشام: ١/١٤٣ ـ ١٤٤ وطبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ٤٣ وتاريخ الطبري: ٢/٢٥٢ والكامل لابن الأثير: ٢/١٠ وشرح نهج البلاغة: ١٥/٢٠٢.

(٢) يراجع في ترجمة عبد المطلب: سيرة ابن هشام: ١/٥١ و١١٦ و١٥٠ و١٥٥ وطبقات ابن سعد: ١/ق ١/٥١ وتاريخ الطبري: ٢/٢٥١.

(٣) السير والمغازي: ٣٣ ـ ٤١ وأنساب الأشراف: ١/٧٨ ـ ٧٩.

(٤) أنساب الأشراف: ١/٧٩.

(٥) سيرة ابن هشام: ١/١٦٧ وتاريخ الطبري: ٢/١٦٥ وأنساب الأشراف: ١/٩٢، وقيل: إن عبد الله مات ومحمد في المهد (تاريخ الطبري: ٢/١٦٥ والروض الأُنُف: ١/١٨٤)، ولكن القول الأول هو الأرجح.

وحدَّثَته بما رأت حين حَملِها به وما قيل لها فيه... فأخذه عبدُ المطلب فدخل به الكعبة، فقام يدعو الله ويشكر له ما أعطاه. ثم خرج به إلى أُمِّه فدفعه إليها، وألتمس لرسول الله (ص) الرُّضعاء»[١].

وقدمت به مرضعتهُ حليمةُ بنت أبي ذؤيب السعديَّةُ مكةَ بعد فطامه؛ فدخلت به على جدِّه، «فأخذه عبدُ المطلب فجعله على عنقه وهو يطوف بالكعبة؛ يعوِّذه ويدعو له. ثم أرسل به إلى أمِّه آمنة»[٢]، فكان مع أمِّه وجدِّه «في كلاءة الله وحفظه، يُنْبِته نباتاً حسناً لما يريد به من كرامته» حتى بلغ السادسة من العمر، ففُجِعَ في تلك السنة بوفاة أُمِّه[٣]، فكان مع جدِّه عبد المطلب. «وكان يُوضَع لعبد المطلب فراش في ظلِّ الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحدٌ من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله (ص) يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخِّروه عنه، فيقول عبد المطلب: دعوا ابني؛ فوالله إنَّ له لَشَأناً، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده»[٤].

ثم توفي عبد المطلب ومحمد في الثامنة من العمر، فتولى رعايته عمُّه أبو طالب بوصيةٍ من عبد المطلب نفسه، «فكان إليه ومعه»[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/١٦٨ ـ ١٦٩.
(٢) سيرة ابن هشام: ١/١٧٦.
(٣) السير والمغازي: ٦٥ وسيرة ابن هشام: ١/١٧٧ وأنساب الأشراف: ١/٩٤ وتاريخ الطبري: ٢/١٦٥.
(٤) سيرة ابن هشام: ١/١٧٨ وأنساب الأشراف: ١/٨١.
(٥) سيرة ابن هشام: ١/١٧٨ و١٨٩ و١٩٠ وطبقات ابن سعد: ١/ق ١/٧٤ ـ ٧٥ وأنساب الأشراف: ١/٨٤ ـ ٨٥ وتاريخ الطبري: ٢/١٦٦ و٢٧٧ والكافي: ١/٤٣٩.

«فشبَّ رسول الله (ص) يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهلية ومعائبها لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءةً؛ وأحسنهم خَلْقاً؛ وأكرمهم مخالطة؛ وأحسنهم جواراً؛ وأعظمهم خُلُقاً؛ وأصدقهم حديثاً؛ وأعظمهم أمانةً؛ وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنِّس الرجال»[1].

ونشأ هذا الصبي نشأة فريدة بين حنان الجدِّ وعواطف الأعمام؛ وحبهم العميق ورعايتهم الفائقة، وتنقل بين مكة والمدينة فتعايش مع خشونة الصحراء وجفافها، وخَبَرَ صِعابَها وأهوالها، فأصبح بفضل ذلك قويَّ الشكيمة شجاع القلب صلب العود. ثم خرج ـ وهو غلام في التاسعة أو الثانية عشرة ـ مع عمِّه أبي طالب إلى بلاد الشام، وكان عمه قد ذهب إليها تاجراً[2]، فزاده ذلك معرفةً بشؤون الحياة.

ثم شهد مع أعمامه ـ وهو في العشرين أو أقل من ذلك أو أكثر على اختلاف الروايات ـ بعضَ أيام حرب الفجار بين قريش وأحلافهم من كنانة وبين قيس عيلان[3]، فأضاف بهذا الشهود إلى خبرته خبرةً وحنكةً وإلى درايته درايةً واتقاناً.

كما حضر حلفَ الفضول مع آله وقبيلته ـ وهو ابن عشرين سنة ـ،

---

(١) السير والمغازي: ٧٨.

(٢) السير والمغازي: ٧٣ ـ ٧٦ وسيرة ابن هشام: ١/ ١٩١ ـ ١٩٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٩٦ ـ ٩٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٧٧ ـ ٢٧٩ والروض الأُنُف: ١/ ٢٠٦، ويراجع ديوان أبي طالب (صنعة أبي هفان): ١٤٣ ـ ١٥٠ وديوانه (صنعة علي بن حمزة): ٥٢ ـ ٦٠ ـ وكلاهما بتحقيقنا ـ، وما ذكره أبو طالب في أشعاره في هذه الرحلة مما رأى وشاهد من محمد من علامات النبوّة وشواهدها الناطقة.

(٣) السير والمغازي: ٤٨ وسيرة ابن هشام: ١/ ١٩٥ ـ ١٩٨ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١١ ـ ١٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٩٩ ـ ١٠٣ وطبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ٨١.

وكان قد دعا إليه عمُّه الزبير بن عبد المطلب، فتعاقدت فيه قريش وتعاهدت بالله على أن تكون مع المظلوم حتى يُؤدّى إليه حقُّه[١]، فكان لمحمدٍ الفتى في هذا الحضور المزيدُ من الصقل والتعلم والاطلاع.

ولمّا كان رسولُ الله (ص) في عامه الخامس والثلاثين؛ قامت قريش بهدم الكعبة لتجديد بنائها، وجمعت القبائل الحجارة وبدأوا العمل، «حتى إذا بلغ البنيانُ موضعَ الركن اختصموا فيه، كلٌّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى»، ثم اشتدَّ الخصام في ذلك إلى حدِّ الاستعداد للقتال فيما بينهم، «فمكثت قريش أربع ليالٍ أو خمس ليال على ذلك»، فاقترح عليهم أحدُ رجالهم ـ وكان أسَنَّهم ـ أن يجعلوا بينهم حكماً أوّلَ مَنْ يدخل من باب المسجد، فرضوا بذلك، «فكان أول مَنْ دخل عليهم رسول الله (ص)، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين؛ قد رضينا به؛ هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبرَ قال: هلمَّ إليَّ ثوباً، فأُتيَ به، فأخذ الركنَ فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كلُّ قبيلةٍ بناحيةٍ من الثوب ثم ارفعوه جميعاً. ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعَه وضعه بيده، ثم بُنيَ عليه»[٢].

وكان رسول الله قبل ذلك ـ وله من العمر خمس وعشرون سنة في الرواية المشهورة ـ قد تزوَّج بخديجة بنت خويلد كما يأتي بيانه، فحفظ الله تعالى ذريته ونسبه ببركة هذه المرأة الصالحة وما ولدتْ وأنجبتْ.

❀ ❀ ❀

---

(١) طبقات ابن سعد: ١/ق١/ ٨٢ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٢ ـ ١٣.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ ق١/ ٩٤ ـ واللفظ منه ـ ويراجع في ذلك السير والمغازي: ١٠٨ ـ ١٠٩ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٤ وأنساب الأشراف: ١/ ٩٩ـ ١٠٠ وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٩٠.

وهكذا دلف محمد إلى عامه الأربعين؛ وقد تكاملت فيه جميع صفات الرجولة الحقَّة؛ نبلاً ومجداً؛ وعراقة وشرفاً؛ وذكاء وفهماً؛ ومعرفة وعبقرية، ثم ضمَّ إليها كلَّ ما منحته الحياة من خبرات واسعة وتجارب عظيمة الآثار: فقد رعى القطعان، ومارس التجارة، وشهد الحروب، وحضر مجالس الأحلاف، وجرَّب الأسفار، وعاش حياة الصحراء القاحلة الماحلة. وكلٌّ ذلك مما يدعم تلألؤ الرجولة ولمعانها في الإنسان.

وربما يصحُّ أن يضاف إلى قائمة ميزات هذا الرجل: أنه فقير؛ لم تلامس قلبَه قسوةُ الغنى والترف؛ ولم تُطغِه مشاعرُ الثراء واليسار. وأنه يتيم الأبوين لم تُلِنْ قناتَه التربيةُ العاطفية السائبة؛ ولم يقعد به التدليل المفسِد، فكان ـ كما أُريد له ومنه ـ قويَّ الإرادة حصيف الرأي متواضع الخُلُق عظيم الصبر شديد الأيد، على الرغم مما كان يمنحه جدُّه ثم عمُّه من بعده وسائرُ أهله من ألوان الود والدلال والحنان والتفضيل.

وبمجموع هذه الصفات الفضلى والخصال الرائعة كان محمد مؤهَّلاً ـ بأعلى درجات التأهيل ـ لحمل الرسالة الكبرى والقيام بواجب الأمانة العظمى، وكانت جميع ملكاته وقابلياته وتصرفاته في مستوى ذلك المركز الكبير الخطير الذي أعدَّه الله له؛ ولم يكن ينقصه إلاَّ نزول الوحي والأمر بالتبليغ.

الزواج والأزواج

أشرنا فيما تقدَّم إلى أن هذا الفتى الهاشميَّ المرموق لما بلغ عامه الخامس والعشرين؛ تزوَّج ـ للمَّرة الأولى ـ بالسيدة الكريمة النبيلة خديجة بنت خويلد، وهي يومئذٍ أوسط نساء قريش نسباً؛ وأعظمهنَّ شرفاً؛ وأكثرهنَّ مالاً وثراء[1].

وكانت علاقة العمل المشترك ورابطة المضاربات التجارية وأسفارها؛ قد شدَّتْ آصرةَ الإعجاب بين هذا الشاب وتلك السيدة؛ بما عرفتْ عنه وعرف عنها من مزايا وأخلاق وخصال، ثم تُوِّج ذلك الإعجاب ـ على الرغم من فارق السن ـ بالزوجية المقدَّسة القائمة على الحب الصادق والوداد العميق.

«وكانت خديجة ابنة خويلد امرأةً تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه.... فلما بلغها عن رسول الله (ص) ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه؛ بعثتْ إليه فعرضتْ عليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام، وتعطيه أفضل مما كانت تعطي غيره.. فقبله منها رسول الله (ص)، وخرج في مالها.... ثم باع رسول الله (ص) سلعته التي خرج بها؛ واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة»[2].

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ١٩٨ و٢٠١ وأنساب الأشراف: ١/ ٩٨ وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٠.
(٢) السيرة والمغازي: ٨١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٨٠.

وأثارت مواهبُ محمدٍ وقابلياته اهتمامَ خديجة وإكبارَها، وزادها معرفةً بهذا الشاب ما أخبرها به غلامُها ميسرة ـ وكان مرافقاً لمحمد في هذه الرحلة ـ من أمانته ونزاهته ويمن طالعه وما يقول أهل الكتاب فيه. ولمستْ بيدها آثار ذلك من كثرة الأرباح ووفرة الأموال ونماء المكسب[١]، فـ«عرضتْ عليه نفسها» للزواج، فذكر النبيُّ ـ (ص) ـ ذلك لأعمامه فرجَّحوا له الأمر، «فتزوَّجها»[٢]؛ على الرغم من كونها ـ كما هو المشهور ـ في الأربعين من العمر؛ ومن زواجها قبل ذلك مرتين.

وتفرَّدت السيدة خديجة بين جميع أزواج النبيّ بمعاشرتها إياه زوجاً غير مكلَّفٍ بالرسالة؛ وبعيداً عن أضواء النبوّة وهالتها القدسية. وحسبها فخراً أنها كانت ـ بإجماع الكلمة ـ أول من بادر إلى الإيمان بهذا الدين المبين؛ وأنها بذلت كلَّ ما تملك من ثروة ومال في سبيل الله والدعوة إلى توحيده.

وتميَّزت هذه المؤمنة الأولى ـ بين سائر أمهات المؤمنين ـ أن الله تعالى قد خصها بشرف حفظ نسب النبوّة؛ من طريقها وطريق ابنتها حبيبة محمد ووحيدته فاطمة الزهراء ـ كما يأتي بيانه في فصل الأولاد.

وكان قد تجنّى بعض أعداء الإسلام فزعم أن دافع محمد للزواج بخديجة ـ وهي تكبره خمسة عشر عاماً ـ طمعُه بثرائها وهو الفقير المعدم. ويوضح بطلانَ هذا الزعم ما نلمسه من حب النبيّ لها وتقديره إياها طيلة سني حياتها؛ وما بقي يحمل لها ـ وهي في قبرها ـ من حب عظيم واحترام كبير يثير في كثيرٍ من الأحيان غَيرةَ بعض أزواجه الأخريات.

---

(١) أنساب الأشراف: ١/ ٩٧ ـ ٩٨.

(٢) السير والمغازي: ٨٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٩٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٨١.

وقد روى الرواة عن السيدة عائشة قولها:

«ما غرتُ على امرأة لرسول الله (ص) ما غرتُ على خديجة مما كنتُ أسمع من ذكره لها، وما تزوَّجني إلاّ بعد موتها بثلاث سنين، ولقد أمره ربُّه أن يبشرها ببيتٍ في الجنة من قصب؛ لا نصب فيه ولا صخب»[١].

وتقول السيدة عائشة في رواية أخرى:

«دخلتْ امرأة سوداء على رسول الله (ص) فأقبل عليها واستبشر بها، فقلتُ: يا رسولَ الله؛ أقبلتَ على هذه السوداء هذا الإقبال؟، فقال: إنها كانت تدخل على خديجة كثيراً، وإن حُسنَ العهد من الإيمان»[٢].

وتُحدثنا السيدة عائشة أيضاً عن وفاء النبيّ (ص) لذكرى خديجة فتقول:

كان رسول الله (ص) يذبح الشاة «فيتتبَّع بذلك صدائقَ خديجة ليهديها لهنَّ»[٣].

وتقول أيضاً:

«كان رسول الله (ص) لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن عليها الثناء. فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة فقلتُ: هل كانت إلاّ عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها؟!، فغضب حتى اهتزَّ مقدَّمُ شعرِه من الغضب، ثم قال: لا والله؛ ما أبدلني الله خيراً منها، آمنتْ بي

(١) السير والمغازي: ٢٤٤، وقريب منه في صحيح البخاري: ٥/٤٨ وسنن الترمذي: ٥/٧٠٢.

(٢) أنساب الأشراف: ١/٩٨.

(٣) سنن الترمذي: ٥/٧٠٢ ونهاية الأرب: ١٨/١٧٢.

إذ كفر الناس، وصدَّقتني إذ كذَّبني الناس، وواسَتْني في مالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء. قالت عائشة: فقلتُ في نفسي: لا أذكرها بسيئةٍ أبداً»[١].

وجاء في الحديث الشريف عن رسول الله (ص) قوله:

«حسبك من نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمد»[٢].

وتوفيت أم المؤمنين الكبرى قبل مهاجر النبيّ (ص) بثلاث سنين[٣]؛ في السنة العاشرة من البعثة الشريفة.

❀ ❀ ❀

وكانت للنبيّ (ص) بعد وفاة السيدة خديجة أزواج أُخريات أثار تعدُّدُهن حفيظة أعداء الإسلام، فعدُّوا ذلك من أهمِّ المطاعن في هذا الدين ونبيِّه الأمين.

وإن كلَّ مَنْ درس تارخ النبوّة يعلم أن هذا التعدد بعيدٌ كل البعد عمّا ظنوه وزعموه، كما سيتضح ذلك عندما نستعرض أسماء تلكم الأزواج وظروف التزوج بهنَّ.

---

(١) نهاية الأرب: ١٨/ ١٧٢.

وكان بعضٌ قد شوَّه هذا الحديث وأسقط آخِرَه، فقد روى البخاري بسنده عن عائشة قالت: «استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله (ص)، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك، فقال: اللهم هالة، قالت: فغِرْتُ فقلتُ: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها» وقد حُذِف جواب النبيّ (ص) الذي رويناه في أعلاه، يراجع صحيح البخاري: ٥/ ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) السير والمغازي: ٢٤٤ وسنن الترمذي: ٥/ ٧٠٣.

(٣) السير والمغازي: ٢٥٤.

وغنيّ عن القول إن حبَّ الرجل العظيم للمرأة وشعوره بالمتعة معها ليس مما يُعاب به، بل هو حكم الفطرة ومنطق الحياة البشرية، والنبيّ بشر بمشاعره وغرائزه ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]، انما العيب كل العيب أن يطغى عليه هذا الحبُّ حتى يشغله عن تكاليفه وواجباته، ويحمله على التفريط ببعض التزاماته ومسؤولياته، وذلك ما لا يستطيع عدو من أعدائه الشرقيين أو المستشرقين، أن يقيم عليه برهاناً أبداً. فلم تشغل المرأة محمداً عن أداء شيء مما أمره الله به وألزمه بتنفيذه، بل لن نجد في سلوك محمد إذا أمعنّا النظر فيه، إلاّ أنه قد أعطى للنبوّة حقَّها وللمرأة حقَّها ولفطرته البشرية حقَّها أيضاً، وتلك إحدى سمات العظمة الفذَّة في هذا الرجل العظيم.

ولو كان للهوى والشهوة سلطان على قلب محمد لَمَا عُرِفَ في مكة بالحياء والعفَّة منذ نعومة أظفاره؛ ولاتَّخذ من الزوجات منذ مطلع شبابه مَنْ شاء من فتيات قومه العُرُب الأبكار اللائي اشتهرن بالجمال والفتنة، ولعَزَفَ عن الاقتران بتلك المجموعة من النساء الثيبات؛ وفيهن الشيخات أو مَنْ هُنَّ على أبواب الشيخوخة.

لقد أراد النبيّ بزواجه ـ في بعض الحالات ـ مُصاهرةَ مَنْ تقوى بهم شوكتُه أو يأمن بذلك أذاهم وشرَّهم، وقصد في حالاتٍ أخرى مَنْحَ عطفه وحنانه لبعض الأرامل والمنكوبات بسبب الإسلام وحروبه؛ أو رعاية بعض الأسيرات من ذوات العزّ والشرف في قومهن. وقد تجمعت بفعل هذه الدواعي الإنسانية والدوافع النبيلة تلك القائمة من الأزواج اللآئي عدَّهن أعداء الإسلام ـ لكثرتهنَّ ـ دليل الانسياق مع الميول الغريزية والاستسلام لنوازع النفس ورغباتها الجامحة.

وإذا كان هناك ما يبعث على الأسف أو الألم في هذا الجانب فهو ما قرأناه في بعض كتب الحديث والتاريخ من نصوصٍ مسندةٍ معنعنة هي على الضدِّ مما أسلفنا ذكره، وقد ساقها المؤلفون بلا تمحيص أو تدقيق، وربما كانت هي المشجِّع لأولئك الأعداء على التجرؤ بإطلاق المزاعم في هذا الصدد وترداد الأكاذيب.

ونكتفي في التعليق على ذلك بمقتطفات مما كتبه الباحث المصري صالح الورداني في هذا الموضوع وقد أشبعه شرحاً وتحليلاً ـ فقال في جملة ما قال ـ:

«كنتُ أتصور أن المسترقين يتجنون على رسول الله (ص) حين يتهمونه بحبِّ النساء والشغف بهن وأنه رجل جنس، وإن هذا الاتهام إنما يعكس الحقد الصليبي الذي يكنُّه أمثال هؤلاء للإسلام في شخص الرسول، حتى وقفتُ على مجموعة من الروايات في كتب السنن تدعم هذا الاتهام وتعذر أمثال هؤلاء»، و«إنني أجزم أن أيَّ مسلم مهما كان مستواه الفكري والخلقي لا يمكن أن يقبل أن يقال عن رسوله مثلُ هذا الكلام؛ وأن تكون حياته الجنسية مفضوحة بهذا الشكل».

ثم روى هذا الباحثُ عن البخاري ما أورده من طواف النبيّ (ص) على نسائه في الليلة الواحدة ـ وله يومئذٍ تسع نسوة[1] ـ. وما أورده البخاريُّ أيضاً عن الصحابة من تحدُّثهم بأن النبيَّ أُعْطِي قوةَ ثلاثين رجلاً في الجماع[2]. وما أورده أيضاً بشأن صفية بنت حييّ بن أخطب

(١) صحيح البخاري: ١/ ٧٦ و٧/ ٤ و٤٤ وصحيح مسلم: ١/ ١٧١ وسنن الترمذي: ١/ ٢٥٩ وسنن ابن ماجه: ١/ ١٩٤ ومسند أحمد: ٣/ ٩٩ و١٦٠ و١٦٦ و١٨٥ و١٨٩ و٢٢٥ و٢٣٩، و٢٥٢.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٧٣، وهي «قوة أربعين رجلاً» في طبقات ابن سعد: ١/ق ٢/ ٩٦.

وإعجاب النبيّ (ص) بها، وأخْذِها من دحية وقد صارت من حقّه الشرعي بإزاء مالٍ أرضاه به، ثم بنائه عليها وهو في الطريق بين خيبر والمدينة[١]. وما رواه البخاري ومسلم عن اضطجاعه (ص) مع أم سلمة وهي حائض واغتسالهما معاً من الجنابة في إناء واحد[٢]. وما رَوَياه عن عائشة من أن رسول الله (ص) كان يأمر زوجته الحائض بأن تَأْتَزِرَ ثم يباشرها[٣]. وما ورد في روايات أخرى من أمور لم تخرج عن اطار هذه المعاني والمضامين؛ ومنها رواية مسلم عن دخول النبيّ (ص) على أُمِّ حرام بنت ملحان ـ وهي متزوجة ذات بعلٍ ـ «فأطعمته ثم جلستْ تَفْلي رأسَه فنام»[٤].

وبعد أن أورد الباحثُ الورداني الكثير من الشواهد منقولةً من كتب الحديث والسنن؛ عقَّبَ على ذلك فقال في خلال تعقيبه:

«إن المتأمِّل في هذه الروايات يتأكد له إن رسول الله كان شديد الشغف بالنساء؛ حتى إنه كان يطوف على نسائه التسع في ليلة واحدة، وان هذا السلوك الشهواني من قِبَلِه قد جعل الناس في المدينة يتحدثون عن قدرته الجنسية...

«وما معنى أن الرسول تسيطر عليه شهوته إلى الحدِّ الذي يجعله يأخذ صفية من دحية، ويدخل بها في الطريق دون أن ينتظر دخول المدينة وهو قادم من حرب؟».

---

(١) صحيح البخاري: ٥/١٦٨ و٧/٨ و٢٨ ومسند أحمد: ٣/٢٦٤.

(٢) صحيح البخاري: ١/٨٤ ومسند أحمد: ٦/٣١٨.

(٣) صحيح البخاري: ١/٧٩ وصحيح مسلم: ١/١٦٦ و١٦٧ وسنن أبي داود: ١/٦١ و٥٠٠ وسنن ابن ماجه: ١/٢٠٨ ومسند أحمد: ٦/٣٣٥ و٣٣٦.

(٤) صحيح البخاري: ٤/١٩ و٩/٤٤ وصحيح مسلم: ٦/٤٩ وسنن أبي داود: ٢/٦ وسنن الترمذي: ٤/١٧٨.

«وما معنى فقدان الرسول للصبر على شهوة الجنس بحيث يضاجع زوجاته وهنَّ حائضات»؟.

«ورواية مسلم أدهى وأمرُّ، كيف للرسول أن يدخل على امرأةٍ متزوجة وينام في حجرها وتَفْلي له رأسَه؟».

ثم ذكر الكاتب نفورَ عقله من هذه الأخبار، وقطعَه بـ «اختلاق مثل هذه الروايات وبطلانها»، ورأى «إن الذين اختلقوها إنما كانوا يهدفون من روائها إلى تشويه شخصية الرسول، لكي يمكن على ضوء هذا السلوك المنسوب للرسول تبرير سلوك الحكام وحكاياتهم مع النساء».

ثم قال:

«ولقد بحثتُ بين شروح الفقهاء لكتب السنن عن فقيهٍ واحد ينظر لهذه الروايات بعين الناقد مدافعاً عن شخص الرسول فلم أجد إلاّ تبريراً وتأكيداً لمثل هذه السلوكيات»، وإن «هذه الرؤية التي هي محل إجماع الفقهاء والمحدثين إنما فتحت الأبواب لاضطهاد العقل وتكبيله بنصوص منسوبة للرسول (ص) لا يجوز الاعتراض عليها أو تجاوزها».

ثم دعا في ختام هذا الفصل من بحثه إلى ضرورة إخضاع دلالة الحديث للنقد كما أُخْضِع السند، لأنَّ «حصر نقد الحديث في دائرة السند فقط إنما هي مؤامرة على العقل وعلى الإسلام»، ورأى أن نقد السند أيضاً بطرائقه المتداولة لم يخلُ من تلاعبٍ مخطَّط، فقد «وضِعت له قواعد خاصة تفوح منها رائحة السياسة»[1].

❀ ❀ ❀

(١) الخدعة: ٧٣ ـ ٧٨.

ولكي تتضح للقارىء المنصف حقيقة ما قلناه في أسباب تعدُّد الأزواج؛ نورد ـ فيما يأتي بايجازٍ ـ أسماءهنَّ وظروف الزواج بهنَّ كما تسالم على ذكره رواة السيرة والتاريخ:

الأولى: خديجة بنت خويلد ـ وقد تقدَّم ذكرها ـ ولم يتزوج النبيّ غيرها إلا بعد وفاتها.

الثانية: سودة بنت زمعة: وهي أرملة في أواخر الشباب، توفي عنها زوجها المسلم أيام كان النبيّ (ص) في مكة قبل الهجرة[١]، فتزوجها النبيّ ليرفع عنها آلام الوحدة والترمل.

الثالثة: عائشة بنت أبي بكر: وهي البكر الوحيدة بين أزواج النبيّ (ص)[٢].

الرابعة: حفصة بنت عمر بن الخطاب: أرملة، توفي زوجها متأثراً بجراحه التي أُصيب بها في معركة بدر. و«لما تأيمت حفصةُ لقي عمرُ عثمانَ فعرضها عليه، فقال عثمان: ما لي في النساء حاجة. فلقي أبا بكر فعرضها عليه فسكت، فغضب على أبي بكر. فإذا رسول الله قد خطبها فتزوجها»[٣] ليرفع عنها وحشة الترمل.

الخامسة: زينب بنت خزيمة: تزوجت قبل النبيّ مرتين[٤]، واستشهد زوجها الثاني يوم بدر، فأشفق عليها النبيُّ (ص) فتزوجها إكراماً

---

(١) السير والمغازي: ٢٥٤.

(٢) السير والمغازي: ٢٥٥ وسيرة ابن هشام: ٤/٢٩٣.

(٣) طبقات ابن سعد: ٨/٥٦ ـ ٥٧، وروى ابن ماجه في السنن: ١/٦٥٠ والذهبي في سير أعلام النبلاء: ٢/٢٢٨ و١٥/٤٢٥ «إن رسول الله (ص) طلق حفصة بنت عمر تطليقة ثم ارتجعها».

(٤) سيرة ابن هشام: ٤/٢٩٧.

لها ولزوجها الشهيد، ولم تمكث في دار النبوة سوى ثمانية أشهر ثم أدركها الموت.

السادسة: أُمُّ سلمة: جُرِحَ زوجها في معركة أُحُد، وخفت وطأة الجرح حتى كاد يبرأ، ثم خرج في سريَّة من سرايا الرسول فانتقض عليه جرحه واشتدت به الحال حتى توفي، وخلَّف أرملته أمَّ سلمة وأولاداً له منها[١]، فتزوجها النبيّ (ص) إشفاقاً عليها وعلى أطفالها، وقد امتنعت أمُّ سلمة عن قبول الزواج بالنبيّ ـ (ص) ـ معتذرةً بكبر السنِّ ووجود الأطفال، فلم يأبه النبيّ بعذرها لأن الذي حمله على ذلك هو هذا الذي اعتذرت به.

السابعة: زينب بنت جحش: ابنة عمة النبيّ (ص)، وقد تزوجها لأول مرة زيد بن حارثة برغبةٍ وتشجيع من النبيّ، وكأنه أراد بذلك إلغاء الفوارق النَّسَبية في المجتمع الإسلامي. ولم يستطع زيدٌ الاستمرار في العيش معها؛ لتعاليها عليه وإشعارها إياه دائماً بوضاعة أصله وشرف أهلها، فانتهى به الأمر إلى اطلاقها. فأمر الله تعالى نبيَّه بتزوُّجها ليكون ذلك إلغاءً عملياً للمفهوم الخاطىء الشائع في عدم تزوُّج الرجل بمطلَّقة مَنْ افترضه ابناً له بالتبنّي، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وهذه الآية صريحة في أن هذا الزواج كان بأمر الله تعالى[٢]؛ إظهاراً لحكم شرعي كان يجب إظهارُه بعد نزول النهي الإلهي عن التبنّي الجاهلي وعن ترتيب الآثار على ذلك التبنّي المزيَّف.

أمّا ما زعمه جهلةُ التاريخ وأعداءُ الإسلام من أن محمداً قصد

(١) السير والمغازي: ٢٦٠ ـ ٢٦١.

(٢) السير والمغازي: ٢٦٢ وسيرة ابن هشام: ٤/ ٢٩٤.

ذات يوم دارَ زيدٍ فرأى زوجته فأعْجَبَتْه، فحرَّض زيداً على طلاقها كي يتزوَّجها؛ فهو واضح الكذب والبطلان، لأن زينبَ كانت ابنة عمة النبيّ وكان قد رآها وعرفها قبل أن يزوِّجها زيداً، ولو ان له فيها هوى ورغبة لضمَّها إلى أزواجه ولم يحملها على قبول الزواج بزيد.

الثامنة: جويرية بنت الحارث ـ بنت سيد بني المصطلق، وكانت قد أُسرت في إحدى المعارك الإسلامية وصارت في سهم أحد المسلمين، فاستنجدت بالنبيّ على منحها مبلغاً تشتري به نفسها من آسرها المالك لها، فعرض عليها النبيّ أن يدفع عنها مبلغ التحرير وأن يتزوجها بعد ذلك[1]، فسرَّت سروراً كبيراً، وهكذا كان.

التاسعة: صفية بنت حييّ ـ وكانت قد تزوجت مرتين من أبناء قومها اليهود، ثم أُسرت في غزوة خيبر، فتزوجها النبيّ ليضرب بذلك المثل الرائع في إكرام الأسرى ورعايتهم[2].

العاشرة: أُمُّ حبيبة بنت أبي سفيان: تزوجت لأول مرة قبل البعثة النبويّة، وأسلمتْ مع زوجها فطارَدَتْهما قريش فيمن طاردتْ من المسلمين، فهاجرا إلى الحبشة في قافلة المسلمين المهاجرين. وهناك أرتدَّ زوجُها عن دينه فلم تطاوعه زوجتُه في ارتداده، وبقيتْ محافظةً على إيمانها على الرغم من غربتها وانقطاع صلتها بزوجها المرتد، ولم تكن تستطيع العودة إلى مكة لعلمها بما كان عليه أبوها وأخوتها وكل أفراد أسرتها من عداءٍ وحربٍ على الإسلام والمسلمين.

وعندما علم النبيّ (ص) بهذه التفاصيل أوعز بمفاوضتها في أمر

(١) السير والمغازي: ٢٦٣ وسيرة ابن هشام: ٤/٢٩٥.

(٢) السير والمغازي: ٢٦٤ وسرة ابن هشام: ٤/٢٩٦.

الزواج به، فوافقتْ ورحَّبت[١]، ثم عادت مع جعفر بن أبي طالب إلى المدينة لتصبح إحدى أزواج النبيّ وأمهات المؤمنين، إكراماً لها على صبرها وتحمُّلها الآلام في سبيل الثبات على الإسلام.

الحادية عشرة: ميمونة بنت الحارث ـ أرملة، كانت في التاسعة والأربعين من العمر حينما وهبت نفسها للنبيّ طالبةً منه أن يضمَّها إلى أزواجه كما جاء بصريح القرآن في قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، ولبّى رسول الله (ص) طلبها فأدخلها في عداد أمهات المؤمنين[٢].

❀ ❀ ❀

وهكذا نجد بعد استعراض هذه القائمة وقراءتها بإمعان أنه لم يكن لدوافع اللذة والشهوة؛ وهوى النفس والجنس؛ أيّ دخلٍ في هذا التعدُّد والكُثرة. وهل يعدُّ الرجل الذي يقترن بهذا العدد من الأرامل والعجائز ـ مع قدرته على انتقاء غيرهن من ذوات الجمال والشباب ـ رجلاً مستجيباً لغرائزه ومستسلماً للذائذه؟!!.

بل هل يمكن أن يكون هذا الرجل إلاّ ذلك الإنسان الرسالي المرتفع على كل أحاسيس الرغبات الجسمية إلى أعلى مراتب الشعور بالمسؤولية السامية؛ المصحوبة بالرأفة الدافقة والشفقة النادرة والحنان الفذ الكبير.

---

(١) السير والمغازي: ٢٥٩.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/٢٩٦.

الأبناء والبنات

اشتهر بين المؤرخين أن للنبيّ (ص) من السيدة خديجة ثلاثة أبناء وأربع بنات.

أما الأبناء فهم:

القاسم.

الطاهر.

الطيّب[1].

وقد مات هؤلاء الأبناء بأجمعهم قبل الإسلام[2] إذْ أدركهم الموت وهم أطفال صغار «يرضعون»[3]، وكنيةُ النبيّ المعروفة «أبو القاسم»[4] إنما هي تكنيةٌ بأكبر هؤلاء، وقيل: «ولدت خديجةُ لرسول الله (ص) غلامَينْ.. القاسم وعبد الله»[5]، ولكن المشهور هو الذي تقدَّم ذكره.

ولم نجد في الروايات التاريخية المعنيَّة بهؤلاء الأبناء ما يبعث على الشك في صحتها أو التردد في قبولها.

---

(١) السير والمغازي: ٨٢ و٢٤٥ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٠٢ والكافي: ١/ ٤٣٩.

(٢) السير والمغازي: ٨٢ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٠٢.

(٣) السر والمغازي: ٢٤٥.

(٤) السيرة والمغازي: ٨٢ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٠٢ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٩٦.

(٥) السير والمغازي: ٢٤٥، وأورد السهيلي في إحدى رواياته: أن الطاهر هو عبد الله؛ وأن اسمه الذي سُمِّي به أوّلاً: عبد الله (الروض الأُنُف: ١/ ٢١٤)، وروى ابن شهر اشوب أن القاسم وعبد الله هما الطاهر والطّيب (المناقب: ١/ ١١٠).

ثم كان له (ص) بعد ذلك ابنٌ آخر هو إبراهيم، وأُمُّه مارية القبطية التي أهداها إليه المقوقسُ ملك مصر، ومات إبراهيم ـ وهو ابن ثمانية عشر شهراً ـ في سنة عشر من الهجرة[١].

وأمّا البنات فقد ذهب الجمهور إلى أنَّهنَّ:

زينب.

رقية.

أُمُّ كلثوم.

فاطمة[٢].

وأنهن وُلِدن بأجمعهن ـ في أكثر الروايات وأشهرها ـ قبل البعثة ونزول الوحي على النبيّ (ص)[٣].

ومن مسلَّمات التاريخ: أن السيدة خديجة كانت قد تزوجت مرتين قبل زواجها برسول الله (ص)، فقد تزوجها «وهي بِكرٌ: عتيقُ بن عائذ بن عبد الله بن مخزوم... ثم هلك عنها فتزوجها بعده أبو هالة النباشُ بن زرارة أحد بني عمرو بن تميم حليف بني عبد الدار.. ثم هلك عنها»[٤]. وكانت قد ولدت لكلّ من زوجَيْها المذكورَيْن بعضَ الأولاد، على اختلافٍ بين الرواة في العدد وفي الذكورة والأنوثة.

ولكننا عندما نمعن النظر في صحة انتساب هؤلاء البنات الأربعة للنبيّ (ص) نجد أن التحقيق التاريخي المعمَّق لا يعين على التصديق بهذه

(١) الروض الأُنُف: ١/ ٢١٦.

(٢) السير والمغازي: ٨٢ و٢٤٥ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٠٢ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٨١ والكافي: ١/ ٤٣٩.

(٣) السير والمغازي: ٨٢ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٠٢.

(٤) السير والمغازي: ٢٤٥ والروض الأنف: ١/ ٢١٥ ـ ٢١٦.

النسبة وإن اشتهرت، بل لا نجد بعد التحليل والتمحيص مَنْ نقطع ببنوّتها له (ص) غير فاطمة.

ونورد فيما يأتي شواهد هذا التردد فيما وقفنا عليه من قرائن الشك وأمارات النفي:

أ ـ زينب:

روى بعضُ المؤرخين: إن زينباً وُلِدَتْ وللنبيّ (ص) ثلاثون سنة من العمر[١]، وأنها أكبر الأخوات[٢]. وقد تزوَّجها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزّي ابن عبد شمس ـ وكان ابنَ خالتها ـ قبل أن يبْعَث أبوها بالرسالة؛ فولدت له عليّاً ـ مات صغيراً ـ وأُمامة[٣].

وقد أسلمت زينب حين أسلمت أُمُّها في أول البعثة[٤]، وفرق الإسلام بينها وبين زوجها لبقائه على شركه، إلا أن رسول الله (ص) لم يقدر يومذاك على تنفيذ هذا التفريق، فبقيت ـ على إسلامها ـ في دار الزوجية[٥].

والمستفاد من هذه الروايات في مجموعها: إن زينباً كانت حين بعثة أبيها في العاشرة من العمر، وأنها كانت قد تزوجت وولدت ولدين في أثناء هذه المدة. فهل يُصَدَّق أن يُعزَى لبنتٍ زواجٌ وولدان وهي بَعْدُ في العاشرة؟ وهل من المقبول أن يُفتَرض زواجُها وهي في السادسة أو

---

(١) الاستيعاب: ٤/ ٢٩٢ وأسد الغابة: ٥/ ٤٦٧ والتبيين: ٦٨ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢١١.

(٢) أنساب الأشراف: ١/ ٣٩٧ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٤٦.

(٣) السير والمغازي: ٢٤٦ ودلائل النبوّة: ٧/ ٢٨٢.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٦.

(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٧ وأنساب الأشراف: ١/ ٣٩٧ وطبقات ابن سعد: ٨/ ٢٤ والمحبَّر: ٥٣ وتاريخ الطبري: ٢/ ٤٦٧ ـ ٤٦٨ وأسد الغابة: ٥/ ٤٦٧ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢١١.

السابعة من العمر؟ وأنها ولدت أولَ ولدٍ لها وهي في الثامنة؟.

ذلك ما يدفعنا إلى الشك في كون زينب من صلب رسول الله (ص)؛ وإن كنّا لا نشك في كونها ربيبته، ومما يزيد من هذا الشك ويضيف إليه قوة: ما رواه ابن إسحاق وغيره من أن لخديجة بنتاً من زوجها أبي هالة اسمها زينب[1]، وروى ابن شهر اشوب السروي ان زينب ورقية كانتا ابنتي هالة أخت خديجة[2].

ب ـ رقية:

ج ـ أُمُّ كلثوم:

ذكر بعضُ المؤرخين أن رقية وُلِدتْ وللنبيّ (ص) من العمر ثلاث وثلاثون سنة؛ وأن اختها أمَّ كلثوم أصغر منها[3].

وروى المؤرخون أيضاً: أنهما تزوَّجتا عُتْبَة وعُتَيْبة ابني أبي لهب ابن عبد المطلب قبل البعثة؛ وأنهما أسلمتا عندما أسلمتْ أُمُّهما في أول البعثة[4]. ولمّا جاهر النبيّ (ص) بدعوته طلّق ابنا أبي لهب هاتين السيدتين الكريمتين، وكان ذلك بطلبٍ من أمّ جميل أو أبي لهب ـ على اختلاف الروايات ـ، فتزوَّج عثمانُ بن عفّان رقيَّةَ وهاجر بها إلى الحبشة مع المهاجرين الأوَل[5].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٩٣ ونهاية الأرب: ١٨/ ١٧١.

(٢) المناقب: ١/ ١٠٩.

(٣) الاستيعاب: ٤/ ٢٩٢ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢١٢.

(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٦ وطبقات ابن سعد: ٨/ ٢٤ و٢٥.

(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٠٧ والمحبَّر: ٥٣ وأنساب الأشراف: ١/ ٤٠١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٣٠ و٣٣١ و٣٤٠ والأغاني: ١٦/ ١٧٥ وسير أعلام النبلاء: ٢/ ٢٥١ و٢٥٢ ونهاية الأرب: ١٨/ ٢١٢ والاصابة: ٤/ ٢٩٧.
=

وعندما نتساءل في ضوء ما تقدَّم عن إمكان زواج رقية بابن أبي لهب قبل تجاوزها السابعة من العمر ـ وقد طُلِّقت وهي في هذه السن أو بعدها بقليل ـ؛ وعن إمكان زواج أم كلثوم وطلاقها وهي لم تتجاوز السادسة في أكثر الفروض، فإن الجواب الراجح أن ذلك بعيد جداً بل غير ممكن؛ إلاّ إذا كانتا ابنتَيْ خديجة من أحد زوجَيْها الأوَّلَيْن أو أن كلَّ واحدةٍ من زوج، فيكون عمرها عند الزواج أكبر مما قيل بعشر سنوات أو يزيد. أما إذا أخذنا برواية البيهقي بأن رقية قد تزوجها عثمان في الجاهلية(١) فإن الأمر يبدو أكثر جلاء ووضوحاً.

د ـ فاطمة:

وبنوَّتها للنبيّ (ص) من أشهر الحقائق وأبين الأمور، وقد أثِر عن النبيّ فيها من أحاديث التكريم وعبارات الإجلال ما لم يُؤثَر عنه في زينب ورقية وأُمِّ كلثوم، وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد راوياً: «كان اختصاص رسول الله (ص) لفاطمة أكثر من اختصاصه للبنت الأخرى وللثانية التي تزوَّجها عثمان بعد وفاة الأولى»(٢).

وحسبنا من كلِّ ذلك المأثورِ عن رسول الله (ص) في ابنته الوحيدة الزهراء أن نقرأ قولَه:

= وقد وهم الحافظ الذهبي في السير في تخطئته ابن سعد في نصّه على زواج عتبة برقية قبل النبوّة؛ وقال: «وصوابه: قبل الهجرة»، وذلك سهو بيِّن منه، والصواب ما قاله ابن سعد، لأن طلاق عتبة لزوجته كان في أوائل البعثة والدعوة، بدليل زواج عثمان برقية وهجرتها معه إلى الحبشة في السنين الأولى من البعثة الشريفة، ويُراجَع في ذلك السير والمغازي: ٢٢٣ وسيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٦.

(١) دلائل النبوّة: ٧/ ٢٨٢.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٩/ ٢٥.

«خيرُ نساء العالمين أربع: مريم بت عمران وآسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد»(١).

وقوله ـ كما ورد في المتواتر عنه ـ: إنها «سيدة نساء العالمين» و«سيدة نساء المؤمنين» و«سيدة نساء هذه الأمة» و«سيدة نساء أهل الجنة»(٢).

وإنَّها ـ أيضاً ـ بصريح الحديث: بضعةٌ من رسول الله (ص) يُؤذيه ما آذاها ويُغضِبه ما أغضبها(٣).

وهذا هو الشرف الأكبر الذي ليس فوقه زيادة لمستزيد، ولم يُؤثَر عنه (ص) بعضه أو جزء منه في حق زينب أو رقية أو أم كلثوم.

❁ ❁ ❁

ومما يجدر ذكره في هذا المقام بشيء من التفصيل: أني كنتُ قد أشرتُ في بحثي عن «النبوة» إلى شكّي في أبوّة محمد (ص) لزينب ورقية وأمّ كلثوم؛ وإلى ظنّي بأنهن بنات خديجة من زوجَيْها الأوَّلَيْن(٤)، ثم نبَّهتُ على ذلك أيضاً فيما بعد فيما علَّقتُه على حرف الهمزة من معجم (العباب الزاخر) للصغاني عند قول مؤلِّفه: «ابنة النبيّ (ص) الأولى التي زَوَّجها منه [أي من عثمان] رقيَّة والثانية أمُّ كلثوم» فقلتُ: «يبدو من

(١) مسند أحمد: ١/ ٢٩٣ والاستيعاب: ٤/ ٣٦٥ والاصابة: ٤/ ٣٦٦.
(٢) صحيح البخاري: ٥/ ٢٥ وصحيح مسلم: ٧/ ١٤٣ ومسند أحمد: ٦/ ٢٨٢ وطبقات ابن سعد: ٨/ ١٧ والاستيعاب: ٤/ ٣٦٤ و٣٦٥ والاصابة: ٤/ ٣٦٧.
(٣) يراجع في ذلك: صحيح البخاري: ٥/ ٢٦ وسنن الترمذي: ٥/ ٦٩٩ ومسند أحمد: ٤/ ٣٢٣ وحلية الأولياء: ٢/ ٤٠ ومجمع الزوائد: ٩/ ٢٠٣.
(٤) النبوّة: هامش صفحات ١٦٤ ـ ١٤٧ [من هذه الموسوعة].

البحث التاريخي المعمَّق أنهما بنتا خديجة من زوجَيْها السابقَينْ قبل النبيّ (ص)»[١].

وعندما قرأ أحمد عبد الغفور عطار الحجازي تعليقتي هذه على كلام مؤلِّف العباب كتب مقالاً في جريدة (المدينة المنورة) الحجازية بعنوان (رافضيٌّ كذوب ينفي أبوة الرسول عن ابنتيه رقية وأم كلثوم) أو رد فيه ما ذكرتُه في التعليق على قول الصغاني ثم قال معقِّباً على ذلك:

«وهذه فرية من هذا الرافضي، فابوَّة الرسول (ص) لهما ثابتة لا شكَّ فيها، ولو صح زعمُ الرافضي لما قدَّر الصحابة هذه الأبوَّة بعد أن نزل قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، ومعروف أن أسبابَ نزول هذه الآية كما قال ابن عمر رضي الله عنه: ما كنّا ندعو زيد بن حارثة إلاّ زيداً بن محمد حتى نزلتْ ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾.

«وكان رسول الله (ص) قبل نزول هذه الآية قد أشهد على نفسه قائلاً: «اشهدوا أن زيداً ابني أرِثُه ويرثني»، وصار الناس يدعون زيداً بن محمد حتى نزلت تلك الآية؛ فُنِسب إلى أبيه الحقيقي فصار اسمه زيد بن حارثة، وصار كلُّ دعيّ يُنْسَب إلى أبيه بعد نزول تلك الآية الشريفة.

«ولو لم تكن رقية وأم كلثوم ابنتي رسول الله حقاً لَمَا نسبهما إلى نفسه؛ ولَما نسبهما إليه صحابته الكرام، لأن في تلك النسبة مخالفةً لأمر الله عزَّ وجلّ، وما كان رسول الله ليخالف أمر ربِّه، وكذلك صحابته ـ رضي الله عنهم ـ مما يثبت أبوَّته لهما.

(١) العباب الزاخر/ حرف الهمزة: ٨٢.

«أمّا زعم محمد حسن آل ياسين فباطل محض، وإن نفي أبوة رسول الله (ص) عن ابنتيه الكريمتين: رقية وأم كلثوم؛ كذب صراح!! وكفر بواح!! وردّة صارخة»[١]!!.

هكذا قال هذا الكُوَيْتِب وهو يكفِّر مسلماً يقول ربي الله ويتشهد الشهادتين، بل ينسب إليه الارتداد الصارخ الذي يجب بثبوته قتلُه!!.

وقد فات هذا الجاهلِ بمعاني القرآن وأسبابِ النزول وأحكام الفقه الإسلاميّ أن النهي الإلهي عن التبني ـ كما عَنَتْه الآية الشريفة التي أوردها ـ إنما ينصبّ على اولئك العبيد الذين تبنّاهم الناس في العصر الجاهلي وجعلوهم أبناء لهم؛ مثل زيد بن محمد الذي ذكره عطار بالاسم؛ ومثل كثيرين آخرين لم يسمِّهم؛ كأمية المنسوب بالتبني لعبد شمس والوليد المنسوب لعقبة بن أبي مُعَيط وغيرهما ممن ذكرهم المؤرخون. فجاء الأمر الإلهي في تلك الآية صريحاً بالغاء التبني ووجوبِ عَزْوِ كل واحدٍ من هؤلاء لأبيه إن عُلِمَ، وإنْ لم يُعْلَم آباؤهم كانوا إخواناً في الدين، إن كانوا مسلمين.

وهذا كله ممّا لا خلاف فيه، ولكنه لا يرتبط بمسألة البنات التي هي مورد البحث والمناقشة، لأنها تمثِّل عنواناً آخر من عناوين الفقه والشريعة، وقد أطلق القرآن الكريم على ذلك اسم (الرَّبائب) أي بنات النساء اللائي كنَّ أُمَّهاتٍ من أزواجٍ سابقين ثم تزوَّج بهنَّ بعد وفاة اولئك رجالٌ آخرون، فضمُّوا بناتهنَّ إليهم ولم يفرِّقوا بينهن وبين أمَّهاتهن، وهو موضوع يختلف كل الاختلاف عن قضية التبني التي أقحمها عطار في كلامه المتخبِّط.

---

(١) جريدة المدينة المنورة/ العدد (٥٤٤٢)/ الصفحة الثالثة/ الجمعة ٢٠ جمادى الآخرة ١٤٠١هـ/ ٢٤ ـ ٤ ـ ١٩٨١م.

ولو قرأ هذا الجاهلُ نصَّ الآية الثالثة والعشرين من سورة النساء لرأي أن الله تعالى قد جعل الرَّبائبَ اللائي يكنَّ في كلاءة الرجال المتزوجين بامهاتهنَّ في عداد البنات الصُّلبيين في تحريم التزوُّج بهنَّ، ورتَّب على ذلك أحكاماً خاصة يعرفها الواقفون على معاني القرآن الكريم والعارفون بتفاصيل مسائل الفقه الإسلامي.

❀ ❀ ❀

ولو لم يكن هذا العطار جاهلاً لعرف أن انتساب الربيب والربيبة إلى المربيّ ـ وهو زوج الأمّ ـ كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام وبعده؛ وقد تكرَّر ذكره في تراث السلف:

١ ـ فقد نصَّ الطبري[1] على انتساب بني علّي لعمهم عليٍّ بن مسعود، واستشهد على ذلك ببيتٍ لكعب بن زهير جاء فيه:

صدموا عليّاً يوم بدرٍ صدمةً   دانتْ عليٌّ بعدها لنزارِ

وقال السكّريُّ في شرح هذا البيت:

«عليٌّ أخو عبد مَنَاة بن كنانة بن خزيمة من أمّه»، «وهو علي بن مسعود بن مازن ابن ذئب بن حارثة... من غسّان... فحَضَنَ عليُّ بن مسعود بني أخيه عَبْدِ مَنَاة فغلب عليهم»[2].

وقال الزَّبيديُّ شارحُ القاموس موضحاً ذلك: «بنو علّي قبيلةٌ من كنانة، وهم بنو عبد مَنَاة، وإنما قيل لهم بنو عليّ عزوةً إلى علي بن مسعود الأزدي ـ وهو أخو عبد مناة لأُمّه ـ، فخلف على أُمّ وَلَدِ عبد مناة وهم بكرٌ وعامر ومرَّة، وأمهم هند بنت بكر بن وائل النزارية، فربّاهم في

(١) تاريخ الطبري: ٢/٢٦٦.
(٢) شرح ديوان كعب بن زهير: ٣٤.

حجره، فنُسِبوا إليه. والعرب تنسب ولدَ المرأة إلى زوجها الذي يخلف عليها بعد أبيهم»[1].

٢ ـ وورد في المصادر اسم عبّاد بن أخضر المازني، ولم يكن عبّادٌ ابناً لأخضر، بل هم عَبّاد بن علقمة المازني، وكان أخضرُ زوجَ أمّه، وغَلب عليه[2].

٣ ـ وروى ابن أبي الحديد في ترجمة هند بن أبي هالة ـ ابن خديجة من زوجها أبي هالة النباش بن زرارة ـ قال: «ثم أولد هندُ بن أبي هالة عندَ بن هند، فهند الثاني أكرمُ الناس جَدّاً وجَدَّةً، يَعْني رسولَ الله (ص) وخديجة»[3]، ولم يكن رسول الله (ص) جدَّه الحقيقي بل زوج جدَّته.

---

(١) تاج العروس/ تركيب (علا)، ويراجع أيضاً في انتساب بني علي لزوج أمهم: جمهرة النسب للكلبي: ١٣٤ والاشتقاق لابن دريد: ٥٤.

(٢) الكامل للمبرد: ٣/ ٢٥٣ وشرح نهج البلاغة: ٥/ ٨٩.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٥/ ١٣٢.

البعثة

تسالمت الروايات التاريخية على أن محمداً كان يتحنَّث قبل بعثته في غار حراء، وهو غارٌ يقع في جبلٍ قريب من مكة، وكان «يخرج إلى حراء في كل عامٍ شهراً من السنة ينسك فيه»، حتى إذا أتمَّ مدة نسكه عاد إلى مكة؛ ولكنه لا يدخل داره بعد عودته حتى يطوف بالكعبة.

«حتى إذا كان الشهر الآخر الذي أراد الله عزَّ وجلّ ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه فيها»، «وكانت الليلة التي أكرمه الله عزَّ وجلّ فيها برسالته... جاءه جبريل بأمر الله تعالى... فقال: اقرأ».

فقال له النبيّ (ص): «وما أقرأُ»؟.

قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، ثم انتهى فانصرف[١].

وجاء في الرواية عن النبيّ (ص) أنه قال:

«سمعتُ منادياً ينادي من السماء يقول: يا محمد؛ أنت رسول الله، وأنا جبريل»[٢].

---

(١) السير والمغازي: ١٢١ وسيرة ابن هشام: ١/٢٥١ ـ ٢٥٣، ومضمونه في طبقات ابن سعد: ١/ق ١/١٣٠ وتاريخ الطبري: ٢/٢٩٨.

(٢) السير والمغازي: ١٢١ وسيرة ابن هشام: ١/٢٥٣.

وانصرف راجعاً إلى أهله فرأته خديجة قلقاً مهموماً، فقالت له: يا أبا القاسم؛ أين كنتَ؟، فحدَّثها بما سمع ورأى. وأحسَّت باضطرابه وتخوُّفه من هذه المسؤولية العظمى وعبئها الكبير الخطير، فقالت له: «أبشِرْ يا ابن عم واثبتْ له، فوالذي تحلف به إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأُمَّة».

«ثم قامت فجمعت ثيابها عليها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ـ وهو ابن عمِّها، وكان قد قرأ الكتب وسمع التوراة والإنجيل ـ، فأخبرته الخبر وقصَّت عليه ما قصَّ عليها رسول الله (ص)... فقال ورقةُ: قُدُّوس قدوس؛ والذي نفسُ ورقة بيده، لئن كنتِ صَدَقْتِني يا خديجة؛ إنه لَنَبيُّ هذه الأمة، وإنه ليأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى»[١].

وتقول الروايات: إن ذلك كان لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان[٢] ـ ورسول الله (ص) يومئذٍ ابنُ أربعين سنة[٣] ـ؛ أو لسبع وعشرين من رجب[٤]؛ أو لثمان من ربيع الأول[٥]. كما وردت روايات أخرى تذكر تاريخاً غير ما تقدَّم[٦]؛ ومنها ما لم يُعَيَّن فيها شهرٌ أو عُينٌ ولم يُنَصّ على يوم[٧].

---

(١) السير والمغازي: ١٢٢ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٢.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ ق ١/ ١٢٩ وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٩٤.

(٣) السير والمغازي: ١٣٠ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٤٩ وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٩٠ و٢٩١ والكافي ١/ ٤٣٩.

(٤) التهذيب: ٦/ ٢ والمناقب: ١/ ١١٩.

(٥) الاستيعاب: ١/ ١٣.

(٦) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ١٥ وتاريخ الطبري: ٢/ ٢٩٣ و٢٩٤ والمناقب: ١/ ١١٩ ونهاية الأرب: ١٦/ ١٦٩.

(٧) السير والمغازي: ١٢١ و١٣٠ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٥٦.

أما النصُّ الإلهي على نزول القرآن الكريم في شهر رمضان فقد قال السهيلي في بيان المراد منه:

«هذا يحمل تأويلَيْن:

«أحدهما: أن يكون أراد بدءَ النزول وأوّلَه، لأن القرآن نزل في أكثر من عشرين سنة في رمضان وغيره.

«والثاني: ما قاله ابنُ عباس: إنه نزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا.. ثم نزلت منه الآية بعد الآية؛ والسورة بعد السورة، في أجوبة السائلين والنوازل الحادثة... وهذا التأويل أشبه بالظاهر؛ وأصحُّ في النقل»[١].

وأيّاً ما كان اليومُ الذي نزل فيه الوحيُ والشهرُ الذي حدث فيه ذلك؛ فقد أصبح محمدٌ منذ جاءه جبريل وبلَّغه قول الله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ رسولَ الله ونبيَّ هذه الأمة.

وقد شطَّ بعضُ الرواة كل الشطط في وصف حال النبيّ (ص) حين فوجىء بنزول جبريل عليه لأول مرةٍ؛ يأمره بالقراءة ويبشره بالرسالة، فزعموا أن المَلَكَ كان يغطُّ ـ أو: يغتُّ ـ محمداً حتى يبلغ منه جهده وهو يقول له: ﴿ٱقْرَأْ﴾، والنبيّ يقول له: «ما أنا بقارىء»، وأنه (ص) عاد من حراء «ترجف بوادرُه» أو «يرجف فؤاده» من الفزع؛ حتى دخل على خديجة فقال: «زَمِّلوني زمِّلوني» «لقد خشيتُ على نفسي»، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع، ولكنه لم يهدأ حقاً ولم يُصدِّق ما رأى وما سمع حتى هدَّأه ورقة ابن نوفل، ثم عاد إلى فزعه واضطرابه وحزن حزناً شديداً لـمّا انقطع الوحي عنه بعد نزوله الأول[٢]، وكأنه كان غير واثقٍ من أمره!!.

(١) الروض الأُنُف: ١/ ٢٧٥.
(٢) صحيح البخاري: ٦/ ٢١٤ ـ ٢١٥.

وزاد الطبري هذه القصص والأساطير إغراقاً في الخيال والشطط؛ فروى عمَّن ادَّعى السماع من رسول الله (ص) أنه لما خوطب بالرسالة همَّ أن يطرح نفسه من حالق[1]؛ أي ينتحر برَمْي نفسه من أعلى الجبل؛ تخلُّصاً من هذا الأمر الخطير، وأنه قال لخديجة: «ما أراني إلاّ قد عُرِضَ لي»[2] أي أصابني مسٌّ من الجِنّ أو الجنون!!.

وكلُّ هذه المزاعم والمختلقات ـ في نظر المسلم النبيه ـ منافية لمقام النبوّة، ومنافية لما عُرِف به محمد من قوة البصيرة ومن عمق الايمان بالله وتوحيده ونبذ ما عليه قومُه من الشرك وعبادة الأوثان، بل تُنافي ما اعترف به لهذا الرجل جميعُ أعدائه وأصدقائه من ذهن ثاقب؛ وفكر بعيد الغور؛ ونفس مطمئنة اليقين؛ وقلب ثابت الوعي، لا تعبث به الأخيلة والأوهام، ولا تعصف به المخاوف والظنون، ولا يحتاج إلى تطمينات كتابيٍ اسمه ورقة بن نوفل أو مهدِّئاته.

وليس معنى هذا كله أنه (ص) لم يقلق ولم يشعر بعِظَم وطأة ما كان مما أُمِرَ به وما سيكون، لعلمه بخطورة هذه المهمَّة الصعبة وثقل عبئها وضخامة مسؤولياتها، وهو معنى آخر لا يمتُّ بأي صلة من الصِّلات إلى الشك والجبن والفزع والرعب المؤدي إلى العزم على الانتحار أو خوف الجنون كما زعمت تلك الروايات الملفَّقة.

كما أن هذا كله لا يعني كذب قصة ورقة بن نوفل من أساسها، إذ من الممكن أن يبادر هذا الكتابيُّ إلى الإيمان بالنبيّ (ص) إثر سماعه من قريبته خديجة تفصيلَ ما حدث؛ وربطِه بين ذلك وبين ما قرأ في الكتب السماوية السابقة من التبشير بنبوّة هذا النبيّ، ولكن المرفوض من القصة

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٩٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٢٩٩.

أن يكون ورقة هو السبب في تصديق النبيّ بما أُنزل عليه واقتناعه بنبوّته وبعثته.

إن هذه الخزعبلات التي رواها الطبري وغيره معزوَّةً إلى النبيّ (ص) حينما بلَّغه جبريل بالرسالة؛ وهذه الحالات الشاذَّة التي صُوِّرَ فيها هذا الرجل العظيم وهو يتلّقى أمر السماء بقراءة ما أُوحي إليه، هي التي حملت أعداء الإسلام على تسمية هذا الوحي الإلهي بالغيبوبة؛ وعدِّه ظاهرةً من ظواهر نوبات الصرع التي كانت تعتري هذا الرجل فيزعم في كل نوبةٍ منها أنه كان يتلقّى وحيَ الله تعالى وقرآنَهَ.

ولقد أجاد المستشرق بودلي في الجواب عن ذلك إذ قال:

«ما كان الصرع ليجعل من أحدٍ نبياً أو مشرِّعاً، وما رفع الصرع أحداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً، وكان يعتبر مَنْ كانت تنتابه مثلُ هذه الحالات في الأزمنة الغابرة مجنوناً أو به مسٌّ من الجن. مع أنه لو كان هناك مَنْ يُوصفَ بالعقل ورجاحته فهو محمد»[1].

۞ ۞ ۞

و«كانت خديجة أول مَنْ آمن بالله ورسوله؛ وصدَّق ما جاء به، فخفَّف الله بذلك عن رسول الله (ص). لا يسمع شيئاً يكرهه من ردٍ عليه وتكذيبٍ له فيحزنه ذلك إلاّ فَرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفِّف عنه.. وتهوِّن عليه أمر الناس»[2].

«ثم إن جبريل أتى رسول الله (ص) حين افترضت عليه الصلاة.. فتوضَّأ جبريل (ع) ومحمد ينظر إليه... ثم قام فصلّى ركعتين.... ثم

(١) الرسول ـ الترجمة العربية ـ: ٧٢.

(٢) السير والمغازي: ١٣٢ وسيرة ابن هشام: ١/٢٥٧ وتاريخ الطبري: ٢/٣٠٧.

رجع النبيّ (ص) قد أقرَّ الله عينَه وطابت نفسُه... فأخذ بيد خديجة... فتوضأ كما توضأ جبريل، ثم ركع ركعتين وأربع سجدات هو وخديجة».

«ثم كان هو وخديجة يصليان سرّاً»(١).

«ثم إن عليَّ بن أبي طالب (ع) جاء بعد ذلك بيومين فوجدهما يصلّيان، فقال عليٌّ: ما هذا يا محمد؟، فقال النبيّ (ص): دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده وإلى عبادته... فمكث عليٌّ تلك الليلة. ثم إن الله أوقع في قلب عليّ الإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله (ص) حتى جاء فقال: ما عرضتَ عليَّ يا محمد؟، فقال له رسول الله (ص): تشهد أنْ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وتكفُر باللاّت والعزّى، وتبرأ من الأنداد، ففعل عليٌّ وأسلم.. وكتم عليٌّ إسلامَه ولم يظهر به»(٢).

وروى ابنُ إسحاق بسنده عن إسماعيل بن إياس بن عفيف عن أبيه عن جدُه: أنه جاء مكة تاجراً، فأتى العباس بن عبد المطلب يبتاع منه ويبيعه، قال: «فبينا نحن إذ خرج رجلٌ من خباءٍ فقام تجاه الكعبة يصلي، ثم خرجت امرأة فقامت تصلّي معه، وخرج غلام فقام يصلّي معه، فقلتُ: يا عباس؛ ما هذا الدين؟... فقال العباس: هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله... وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنتْ به، وهذا الغلام ابن عمّه عليُّ بن أبي طالب آمن به»(٣).

ثم «إن رسول الله (ص) كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه عليٌّ بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن

---

(١) السير والمغازي: ١٣٦.
(٢) السير وامغازي: ١٣٧، وملخَّص منه في سيرة ابن هشام: ١/ ٢٦٣.
(٣) السير والمغازي: ١٣٧ ـ ١٣٨ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣١١.

جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك.. ثم إن أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان، فقال لرسول الله (ص): يا ابنَ أخي، ما هذا الدين الذي أراك تدين به؟، قال: أي عم؛ هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم.. بعثني الله به رسولاً إلى العباد، وأنت ـ أي عم ـ أحقُّ مَنْ بذلتُ له النصيحة ودعوتُه إلى الهدى»... فقال أبو طالب: «أي ابن أخي؛ إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه، ولكن ـ والله ـ لا يُخْلَص إليك بشيءٍ تكرهه ما بقيتُ».

قال ابن إسحاق: «وذكروا أنه قال لعليّ: أي بنيَّ؛ ما هذا الدين الذي أنت عليه؟، فقال: يا أبت؛ آمنتُ بالله وبرسول الله وصدَّقتُه بما جاء به، وصلَّيت معه لله؛ واتَّبعتُه»، فقال له: «أما إنَّه لم يَدْعُكَ إلاّ إلى خيرٍ؛ فالزمه»[١].

وتتابع بعد ذلك آحاد قليلون من الناس في الدخول في دين الله، ثم دخل الناس فيه «أرسالاً؛ من النساء والرجال، حتى فشا ذكرُ الإسلام وتُحُدِّث به... فأعظمتْ ذلك قريش وغضبت له، وظهر فيهم لرسول الله (ص) البغي والحسد، وشخص له منهم رجال فبادروه العداوة وطلبوا له الخصومة»[٢].

❊ ❊ ❊

ولمّا حان الوقت وآن الأوان أمر الله تعالى رسوله (ص) «أن يصدع بما جاء به، وأن ينادي الناس بأمره، وأن يدعو إلى الله تعالى»، وأنزل

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/٢٦٣ ـ ٢٦٤ وتاريخ الطبري: ٢/٣١٣ ـ ٣١٤.
(٢) السير والمغازي: ١٤٤ وسيرة ابن هشام: ١/٢٨٠.

عليه قوله عزَّ وجل: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤ ـ ٢١٥]، ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾[1] [الحجر: ٨٩].

ولم يجد النبيّ (ص) بدّاً ـ وقد أمره الله تعالى ـ من إطاعة هذا الأمر على كل حال، فجمع عشيرته الأقربين، «وهم يومئذٍ أربعون رجلاً؛ يزيدون رجلاً أو ينقصونه، فيهم أعمامه: أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب»، وخاطبهم النبيّ (ص) قائلاً: «يا بني عبد المطلب؛ إني ـ والله ـ ما أعلم شاباً في العرب جاء قومَه بأفضل ممّا جئتكم به، إني قد جئتُكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله تعالى أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؟».

«فأحجم القوم عنها جميعاً، ولم يقم إلاّ عَليٌّ فقال: أنا يا نبيَّ الله أكون وزيرك عليه».

فنادى النبيّ (ص) في القوم قائلاً:

«إنَّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم؛ فاسمعوا له وأطيعوا».

«فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع»[2].

❁ ❁ ❁

---

(١) السير والمغازي: ١٤٥ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣١٨.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٢٠ ـ ٣٢١ وكامل ابن الأثير: ٢/ ٤١ ـ ٤٢ وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٢١٠ ـ ٢١١ وتاريخ أبي الفدا: ١/ ١١٦ ـ ١١٧.

وقد ذكر الطبري هذه الرواية في تفسيره: ١٩/ ١٢٢ ولكن بنصّ «فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي وكذا وكذا» إلى أن يقول على لسان=

«ومضى رسولُ الله (ص) على ماهو عليه يُظهِر دينَ الله ويدعو إليه».

ولـمّا «رأتْ قريش رسول الله (ص) لا يُعتِبُهم من شيء أنكروه عليه؛ من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا عمَّه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يُسلمْه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب... فقالوا: يا أبا طالب؛ إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّل آباءنا، فإمّا أن تكفَّه عنّا وإمّا أن تخلّي بيننا وبينه،، فقال أبو طالب قولاً رفيقاً؛ وردَّ ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه».

«ثم إن قريشاً تآمروا بينهم على مَنْ في القبائل منهم من أصحاب رسول الله (ص) الذين أسلموا، فوثبت كل قبيلة على مَنْ فيها من المسلمين يعذّبونهم ويفتنونهم عن دينهم... ومنع الله منهم رسولَه بعمِّه أبي طالب»[1].

«ثم إن قريشاً مشوا إلى أبي طالب تارة أخرى فكلَّموه وقالوا: ما نحن يا أبا طالب ـ وإن كنتَ فينا ذا منزلةٍ بسنِّك وشرفك وموضعك ـ بتاركي ابنَ أخيك على هذا حتى نُهلِكه أو يكفَّ عنّا ما قد أظهر بيننا من شتم آلهتنا وسبِّ آبائنا وعيب ديننا، فإن شئتَ فاجمع لحربنا وإن شئتَ فدع، فقد أعذرنا إليك وطلبنا التخلُّص من حزبك وعداوتك».

فبعث أبو طالب إلى رسول الله (ص) فأخبره بما جاء به القوم، وقال له: «فأبْقِ عليَّ وعلى نفسك ولا تحمِّلْني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت.. فظنَّ رسول الله (ص) أنه قد بدا لعمِّه فيه بداء وأنه خاذِلُه ومُسلِّمُه... فقال رسول الله (ص): يا عمّ؛ لو وُضِعَت الشمسُ في يميني

= النبيّ (ص): «إن هذا أخي وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا»، وقد أثارت هذه «الكذا وكذا» إعجاب الحافظ ابن كثير فروى النصّ بهذا اللفظ في البداية والنهاية: ٣/ ٤٠ وفضَّله على نصّ الطبري في تاريخه.

(١) السير والمغازي: ١٤٧ ـ ١٤٨ وسيرة ابن هشام: ١/ ٢٨٢ ـ ٢٨٧.

والقمرُ في يساري ما تركتُ الأمرَ حتى يُظْهِرَه الله أو أهلك في طلبه. ثم استعبر رسول الله (ص) فبكى»، فقال له أبو طالب حين سمع ورأى ذلك: «امض على أمرِك؛ وافعل ما أحببتَ، فوالله لا نُسْلِمُك»[١].

«ثم إن قريشاً اشتدَّ أمرُهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله (ص) ومن أسلم معه منهم، فأَغْرَوْا برسول الله (ص) سفهاءهم فكذَّبوه وآذوه ورموه بالشِّعر والسِّحْر والكهانة والجنون، ورسولُ الله (ص) مُظهرٌ لأمر الله لا يستخفي به، مُبادٍ لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم»[٢].

«ثم إنهم عَدَوْا على مَنْ أسلم واتَّبع رسول الله (ص) من أصحابه، فوثبت كلُّ قبيلة على مَنْ فيها من المسلمين؛ فجعلوا يحبسونهم ويعذّبونهم بالضرب والجوع والعطش؛ وبرمضاء مكة إذا اشتد الحرُّ»[٣].

وتحمَّل النبيّ (ص) على أثر ذلك كله من صنوف الأذى وألوان العدوان ما لا يتَّسع هذا المختصر لسرد وقائعه وتفاصيله.

و«لمّا رأى رسولُ الله (ص) أصحابَه وما يصيبهم من البلاء والشِّدة.. وأنه لا يقدر على أن يمنعهم من قومهم، وأنه ليس في قومهم من يمنعهم كما منعه عمُّه أبو طالب، أمرهم بالهجرة إلى أرض الحبشة، وقال لهم: إن بها مَلِكاً لا يُظْلم الناسُ ببلاده في أرض صدقٍ، فتحرزوا عنده حتى يأتيكم الله عزَّ وجل بفرج منه ويجعل لي ولكم مخرجاً».

«فهاجر رجالٌ من أصحابه إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفروا إلى الله عزَّ وجل بدينهم، واستخفى آخرون بإسلامهم»[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام: ١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.
(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٠٨ ـ ٣٠٩.
(٣) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٣٩.
(٤) السير والمغازي: ١٧٤ وسيرة ابن هشام: ١/ ٣٤٤.

وبقي النبيّ (ص) في مكة يدعو لدينه ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وعانى من مطاردة قريش وأذاهم وعنتهم ما لا يعلم تفاصيله إلا الله تعالى وحده.

«ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب ماتا في عامٍ واحد؛ فتتابعت على رسول الله (ص) المصائب بهلاك خديجة وأبي طالب»، فقد «كانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام» يشكو إليها آلامه ويبثها أحزانه، وكان عمُّه له «عضداً وحرزاً في أمره ومَنَعَةً وناصراً على قومه»، وكانت وفاتهما قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين[١].

وبوفاة أبي طالب «نالت قريش من رسول الله (ص) من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب. حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً»، فـ«دخل رسول الله (ص) بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه الترابَ وهي تبكي، ورسول الله (ص) يقول لها: لا تبكي يا بُنَيَّة؛ فإن الله مانعٌ أباكِ»[٢].

ولم يجد النبيّ (ص) بعد وفاة أبي طالب بدّاً من مغادرة مكة؛ نجاةً بحياته من أيدي المشركين؛ وأملاً بالدعوة إلى الله في مكان آخر من البلاد الحجازية، فخرج إلى الطائف «يلتمس النصرة من ثقيف والمَنَعَة بهم من قومه».

«فلما انتهى رسول الله (ص) إلى الطائف عمد إلى نفرٍ من ثقيف هم يومئذٍ سادة ثقيف وأشرافهم... فجلس إليهم... فدعاهم إلى الله، وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام؛ والقيام معه على مَنْ خالفه من قومه». فأبى القوم ذلك، «فقام رسول الله (ص) من عندهم

(١) السير والمغازي: ٢٤٣ وسيرة ابن هشام: ٢/ ٥٧.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٧ ـ ٥٨.

وقد يئس من خير ثقيف»، فـ «أغْرَوْا له سفهاءهم وعبيدَهم يسبُّونه ويصيحون به»[١]، وكان «يمشي (ص) بين سماطَيْنِ منهم؛ فكلما نقل قَدَماً رجموا عراقيبه بالحجارة حتى اختضب نعلاه بالدماء»[٢]، و«اجتمع عليه الناسُ وألْجَأُوه إلى حائطٍ [أي بستان]... فعمد إلى ظلِّ حَبَلَةٍ من عنب فجلس فيه»، «ورجع عنه مِنْ سفهاء ثقيف مَنْ كان يتبعه»، فأنشأ يدعو ربَّه:

«اللَّهم إليك أشكو ضعفَ قوَّتي؛ وقلَّة حيلتي؛ وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت ربُّ المستضعَفين، وأنت ربيّ، إلى مَنْ تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يَتَجَهَّمُني؟ أم إلى عدوّ ملَّكتَه أمري؟، إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات؛ وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة؛ من أن تُنْزِل بي غضبَك؛ أو يحلَّ عليَّ سخطُك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلاّ بك»[٣].

❁ ❁ ❁

«ثم إن رسول الله (ص) انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يئس من خير ثقيف»؛ فوجد قومَه هناك «أشدَّ ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه؛ إلاّ قليلاً مستضعَفين ممن آمن به»، فرأى أن عليه أن يعرض نفسَه على قبائل العرب في المواسم «يدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبيٌّ مرسل، ويسألهم أن يصدِّقوه ويمنعوه حتى يبيِّن لهم ما بعثه الله به»[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٠ ـ ٦١.
(٢) الروض الأُنُف: ٢/ ١٧٧.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦١ ـ ٦٢.
(٤) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٣ ـ ٦٤.

«فكان رسول الله (ص) على ذلك من أمره، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسَه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة، وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدّى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده»[١].

«فلمّا أراد الله عزَّ وجل إظهارَ دينه واعزاز نبيّه (ص) وانجاز موعده له، خرج رسولُ الله (ص) في الموسم الذي لقيه فيه نفرٌ من الأنصار، فعرض نفسَه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً... قال: أفلا تجلسون أكلّمكم؟، قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزَّ وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن... فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام.. ثم انصرفوا عن رسول الله (ص) راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدَّقوا»[٢].

«فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسولَ الله (ص)، ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم تبق دارٌ من دور الأنصار إلاّ وفيها ذكرٌ من رسول الله (ص)».

«حتى إذا كان العامُ المقبلُ وافى الموسمَ من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة ـ وهي العقبة الأولى ـ فبايعوا رسول الله (ص)»، وكان نصُّ البيعة ـ كما روى أحدهم ـ: «على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف».

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٦٧.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٠ ـ ٧١.

«فلما انصرف عنه القوم بعث رسولُ الله (ص) معهم مصعبَ بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَيّ، وأمره أن يُقرِئهم القرآن؛ ويعلِّمهم الإسلام، ويُفقِّههم في الدين»[١].

«ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة، وخرج مَنْ خرج من الأنصار من المسلمين إلى الموسم.. حتى قدموا مكة؛ فواعدوا رسول الله (ص) العقبة من أوسط أيام التشريق، حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته والنصر لنبيّه؛ وإعزاز الإسلام وأهله؛ وإذلال الشرك وأهله».

ويقول أحدُ حضّار هذا الاجتماع مبيِّناً ما حدث فيه:

«حتى إذا مضى ثلثُ الليل، خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله (ص) نتسلَّل تسلُّل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان».

«فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله (ص) حتى جاءنا... فتكلَّم رسول الله (ص) فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، ثم قال لهم: «أخْرِجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم»، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس».

وبعد أن تّمت البيعة قال لهم رسول الله (ص): «إرفَضُّوا إلى رحالكم»[٢].

«وكان رسول الله (ص) قبل بيعة العقبة لم يُؤذَنْ له في الحرب ولم

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٧٢ و٧٥ و٧٦.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ٨٣ ـ ٩٠.

تحلل له الدماء، انما يُؤمَر بالدعاء إلى الله والصبرِ على الأذى والصفحِ عن الجاهل. وكانت قريش قد اضطهدتْ مَن اتَّبعَه... فهم من بين مفتونٍ في دينه، ومن بين معذَّبٍ في أيديهم، وبين هاربٍ في البلاد فراراً منهم».

«فلما عَتَتْ قريش على الله عزَّ وجلّ، وردُّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيَّه (ص) وعذَّبوا ونفوا مَنْ عَبَدَه ووحَّده وصدَّق نبيَّه واعتصم بدينه، أذن الله عزَّ وجلّ لرسول الله (ص) في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أنزلتْ في إذنه له في الحرب واحلالِه له الدماءَ والقتال.. قول الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحج: ٣٩ ـ ٤٠] إلى آخر الآيات».

«فلمّا أذن الله تعالى له (ص) في الحرب، وبايعه هذا الحيُّ من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتَّبعه... أمر رسولُ الله (ص) أصحابه... بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار».

«وأقام رسول الله (ص) بمكة ينتظر أن يأذن له ربُّه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة»[1].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١١٠ ـ ١١١.

الإعجاز والمعجزات

لمّا كانت النبوّة ـ وهي السفارة الإلهية الكبرى في الأرض ـ من الشؤون العظيمة التي يكثر المدَّعون لها، فيشتبه الصدق بالكذب وتلتبس الحقيقة بالزيف، كان لا بدَّ من وجود أمارة تدل على صدق المدَّعي فيما ادَّعى وزعم، وكان لا بدَّ أن تأتي هذه الأمارة فوق مستوى الأفعال العادية التي قد يستطيع المدعي الكاذب أن يأتي بمثلها. وبذلك ينحصر معنى «المعجز» بالاتيان بما يخرق القوانين الطبيعية المعتادة.

و«الإعجاز» ـ في اللغة ـ: إحداث العجز، يقال: أعجزتُ فلاناً أي جعلته عاجزاً، وفي الاصطلاح: أن يأتي المدعي لمنصب إلٰهي بما يخرق قانون الطبيعة ويعجز عنه الناس؛ شاهداً على صدق دعواه.

وينبغي أن لا نغفل: أنه ليس من الإعجاز المصطلح عليه: ما يُظْهره الساحر أو العالم ببعض العلوم النظرية الدقيقة؛ وإن جاء بشيء يعجز عنه غيره. ذلك لأن العلوم النظرية ذات قواعد معلومة عند أهلها، ولا بد لتلك القواعد أن توصل إلى نتائجها وإن احتاجت إلى دقة ومهارة في التطبيق.

وإذن. لا بدَّ في النبوّة من المعجز.

ولا بدَّ أن يكون هذا المعجز مطابقاً للمدَّعىٰ.

وبذلك يكون صاحب هذا المعجز هو النبيّ من قبل الله تعالى حقّاً وصدقاً، ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد: ٣٨ وغافر: ٧٨].

وإنما صحَّ القول بكون الإعجاز دليلاً على صدق المدَّعي وصحة الادِّعاء، لأن المعجز بحكم كونه خارقاً لقوانين الطبيعة ونواميسها المعتادة؛ لا يمكن أن يقع من أحدٍ إلاّ بإقدارٍ من الله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف: ١١١]. وبذلك يكون المعجز الذي يظهر على يد مدَّعي النبوّة دليلاً على صدقه، بما يكشفه من رضا الله عزَّ وجل بنبوّته؛ إذ أقدره على الاتيان به، وقد أشار جلَّ وعلا إلى هذا المعنى بقوله في كتابه المجيد: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦] وبقوله أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧ ـ ٣٨].

وكان لرسولنا الأعظم ـ(ص) ـ نوعان من المعجز:

الأول ـ القرآن المجيد، وهو المعجزة الخالدة على مرِّ القرون.

الثاني ـ المعجزات التي شاهدها المسلمون الأوَّلون ـ وهم عدد غير قليل ـ، ثم تواتر عنهم نقلها؛ فأُلِّفتْ فيها الكتب؛ واحتشدت برواياتها أسفار الحديث، وما تزال تُرْوىٰ حتى اليوم وبعد اليوم بهذا النحو من تواتر النقل وتسالمِه؛ على تعاقب الأجيال وكرِّ السنين.

وقد حاول بعض الجهلة والمعاندين أن يشكِّكوا في تلك المعجزات غير القرآن، بل ادعَّى بعضهم أن في آيات القرآن ما يدل على نفي كل معجزة للنبيّ (ص) غيره، وأن القرآن هو المعجزة الوحيدة التي جاء بها رسول الله (ص) تصديقاً لدعواه، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]، إذ

زعموا أن هذه الآية ظاهرة في أن النبي (ص) لم يأت بآيةٍ غير القرآن؛ وأن السبب في عدم الارسال بها تكذيب الأولين من الأمم بالآيات التي أُرسلتْ إليهم.

وقد أفاض أستاذنا المغفور له الإمام الخوئي في دحض هذه الشبهة وكشف زيفها فقال ما خلاصته[١]:

إن المراد بالآيات التي نفتها الآية الكريمة والتي كذَّب بها الأولون من الأمم هي الآيات المقترحة من قبل الأمم على أنبيائها. فالآية الكريمة تدلنا على أن النبيّ (ص) لم يُجِب المشركين إلى ما اقترحوه عليه من الآيات، ولا تنفي عنه صدور المعجزة مطلقاً، ولو صلح تكذيبُ المكذِّبين أن يكون مانعاً عن الإرسال بالآيات لكان مانعاً عن الإرسال بالقرآن أيضاً، إذ لا وجه لتخصيص المنع بالآيات الأخرى، خصوصاً وأن القرآن أعظم المعجزات التي جاء بها الأنبياء، وهذا يدلنا على أن الآيات الممنوعة قسم خاص وليست مطلق الآيات.

على أن تكذيب الأمم السابقة لو صلح أن يكون مانعاً عن تأثير الحكمة الإلهية في الإرسال بالآيات؛ لصلح أن يكون مانعاً عن إرسال الرسول، وهذا باطل بالضَرورة وخلاف المفروض أيضاً، فتعيَّن أن يكون المقتضى للإرسال بالآيات هو اقتراح المقترحين. وواضح أن المقترحين إنما يقترحون أموراً زائدة على الآيات التي تتم بها الحجة، وإن هذا المقدار الزائد منها لا يجب على الله أن يُرسل به ابتداء، ولا يجب عليه أن يجيب إليه إذا اقترحه المقترحون، وإن كان لا يستحيل عليه ذلك إذا اقتضت المصلحة.

---

(١) البيان في تفسير القرآن: ١/ ٧٦ ـ ٧٩.

إن هذه الآيات المقترحة كاشفة في حقيقتها عن لجاج المقترِح وعناده، إذ لو كان طالباً للحق لصدَّق بالآية الأولى، لأنها كافية في إثبات المطلوب، ولأن معنى اقتراحه هذا أنه قد التزم على نفسه بتصديق النبيّ إذا أجابه إلى هذا الاقتراح، فإذا كذَّب بالآية المقترحة بعد صدورها كان مستهزئاً بالنبيّ وبالحق الذي دعا إليه.

وخلاصة القول: أنه لا دلالة لشيء من آيات القرآن على نفي المعجزات الأخرى غير القرآن، على الرغم من كونه المعجزة الكبرى للنبيّ (ص) وإنْ تعدَّد ظهور المعجز على يديه.

❀ ❀ ❀

وليس التمييز الصائب بين المعجز الحقيقي وغيره أمراً سهلاً ميسوراً لكل أحدٍ كما يبدو لأول وهلة، بل لن يقدر عليه غير علماء الصنعة التي يكون ذلك المعجز على شاكلتها؛ لأنهم أعرف بها وأدرىٰ بخصوصياتها، وهم الذين يستطيعون التفريق بين ما يعجز البشر عن الاتيان بمثله وبين ما يمكنهم، ولذلك كان العلماء أسرع تصديقاً بالمعجز، و﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، لأن غير العالم لا يقوىٰ على التمييز بين الصدق والكذب، فيبقىٰ باب الشك مفتوحاً أمامه ما دام جاهلاً بمبادىء ذلك العلم؛ وما دام يحتمل أن المدَّعي قد اعتمد على وسائل علمية ربما تكون معلومة عند الخاصة من رجال تلك الصنعة، فيتباطأ عن الإسراع في التصديق، ولهذا السبب اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون معجزةُ كل نبي مشابهةً للعلم الشائع في زمانه؛ والذي يكثر الممارسون له والعارفون به من أهل عصره، ليكون ذلك سبباً في سرعة التصديق وإحكام الحجة. ومن هنا نجد أن السحرة في عصر موسى كانوا أسرع من غيرهم إلى الإقرار ببرهان نبيهم، لأنهم رأوا أن ما جاء به رسولهم خارج عن الحدود العلمية المقرَّرة للسحر.

ولمّا كان العرب في عصر نزول القرآن قد بلغوا الغاية في الكلام البليغ ومعرفة فنون الفصاحة وضروب الأدب؛ كان لا بد بمقتضى الحكمة الإلهية أن تتمشى معجزة نبيّ الإسلام مع هذه الظاهرة البارزة، فجاء رسول الله (ص) بمعجزة القرآن وبلاغة اللسان، ليعلم كل عربيّ أن هذا الكلام إلهيٌّ محض؛ خارجٌ ببلاغته المتناهية عن طاقة فصحاء البشر وامكاناتهم الفكرية والأدبية.

وعلى الرغم من وجود معجزات أخرى للنبيّ (ص) غير القرآن كما أسلفنا ذكره؛ فإن القرآن أعظم هذه المعجزات شأناً وأقومها بالحجة، لأن العربي الجاهل بعلوم الطبيعة وسنن الكون قد يشك في تلك المعجزات وينسبها إلى أسباب علمية لا يعرفها؛ وفي طليعتها السحر الذي كان من أقرب الأسباب إلى ذهنه الساذج، ولكنه بما كان يتحلىٰ به من معرفةٍ بفنون البلاغة وأسرار الكلام الفصيح لا يشك في إعجاز القرآن وعدم قدرة البشر على الاتيان بمثله. على أن تلك المعجزات الأخرى المرئية للعين مؤقَّتةُ البقاء، إذ سرعان ما تصبح خبراً يتناقله الرواة؛ وحديثاً تتداوله الأفواه، فينفتح فيها باب الشك والارتياب؛ وتغدو عرضة للتصديق والتكذيب. أما القرآن فهو باقٍ بقاء السماوات والأرض، وإعجازه ماثل أمام كل جيل وواضح لكل ذي عينين.

وقد علم كلُّ مَنْ بلغته الدعوة الإسلامية أن محمداً (ص) قد دعا جميع الناس والأمم إلى الإسلام، وأقام الحجة عليهم بالقرآن، وتحدّاهم بإعجازه أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيراً، ثم تنزَّل فطلب منهم أن يأتوا بعشر سورٍ مثله مفتريات، ثم تحدّاهم بالإتيان بسورة واحدة. ولو كان العرب بكل مَنْ فيهم من بلغاء وأدباء قادرين على ذلك لأجابوه على هذا التحدّي وأسقطوا حجته بإتيانهم بمثله، ولكنهم عندما سمعوا القرآن أقروا بالأمر الواقع وأذعنوا لإعجازه، وعلموا أنهم لا

يستطيعون المعارضة، فصدَّق قوم منهم وأعلنوا إسلامهم، وركب آخرون رؤوسهم فأصروا على العناد والتحدّي والامتناع.

ويروي المؤرخون: إن الوليد بن المغيرة المخزومي مرَّ يوماً في المسجد الحرام فسمع النبيَّ ـ(ص) ـ يتلو القرآن، فأصغى له من بعيد ثم ذهب إلى مشركي قومه فكان مما قال لهم: لقد سمعت من محمدٍ كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنِّ، وأنَّ له الحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمعذق، وأنَّه يعلو ولا يُعْلى[1].

ويروي هشام بن الحكم: أنه اجتمع في بيت الله الحرام سنةً من السنين أربعةٌ من كبار الأدباء والمفكرين في عصرهم: ابن أبي العوجاء وأبو شاكر الديصاني وعبد الملك البصري وابن المقفَّع ـ وكانوا من الدَّهريَّة المنحرفين عن الإسلام ـ فخاضوا في حديث الحج ونبي الإسلام، ثم استقرَّ الرأي لديهم على ضرورة قيامهم بمعارضة القرآن الذي هو معجزة هذا الدين، ليسقط إعجازُه بمعارضتهم إياه ومباراتهم له، وتعهَّد كلُّ واحدٍ منهم أن ينقض رُبْعاً من القرآن، وجعلوا الموعدَ لإنجاز هذه المهمة موسمَ الحج القابل. وعندما اجتمعوا في الميقات المعيَّن، في بيت الله الحرام، تذاكروا فيما فعلوا، فأخبرهم ابن أبي العوجاء بأنه قضى العام كلَّه متأملاً في مجاراة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠] فلم يقدر على مثله، كما أخبرهم عبد الملك بأنه قضى عامه مفكراً في مباراة قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ

(١) يراجع في تفاصيل حديث الوليد مع قومه القرشيين سيرة ابن هشام: ١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] فلم يستطع ذلك، كذلك كان أمرُ أبي شاكر مع قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فقد عجز عن الاتيان بشبيهٍ لها، ولم يكن ابن المقفَّع بأحسن حظّاً من أصحابه؛ فقد قضى عامه عاجزاً عن معارضة آيةٍ واحدة هي قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، يقول هشام: وبينما هم في ذلك إذ مرَّ بهم جعفر بن محمد الصادق (ع) فنظر إليهم وقال: ﴿لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨][١].

❀ ❀ ❀

واستمرَّ أعداء الإسلام والمنحرفون عنه ـ على اختلاف عقائدهم وأفكارهم وفلسفاتهم ومناهجهم ـ في حربهم لهذا المعجز «القرآن الكريم»؛ وفي التشكيك في إعجازه وصلاح أحكامه وصدق أخباره، وبذل هؤلاء الأعداء والمنحرفون على مرِّ القرون حتى اليوم وإلى ما بعد اليوم من الطاقات والجهود ومن حملات الدسِّ والتشكيك ـ أملاً في تحقيق هدفهم اللئيم ـ ما لا يدركه حساب ولا يبلغه إحصاء[٢].

(١) الاحتجاج: ٢٠٥.

(٢) ولعل من جملة أساليب التشكيك ما قرأناه في الصفحة السادسة من جريدة الجمهورية العراقية في ١٩٧٦/٢/٣م خلال مقالٍ يتحدث فيه كاتبه عن الطوفان، وقد جاء فيه ما نصه:

«الطوفان حادثة واقعية طبيعية لم يعد ثمة مجال للشك فيها. أما الشخصية شخصية الطوفان فهي واحدة بالتأكيد رغم اختلاف الأسماء: زيوسدرا في النص السومري ـ وهو أقدم نصّ ـ؛ وأثر خاسبس في النص البابلي.... وفي التوراة والقرآن نوح.... إن النصَّ الأصلي هو النص السومري كما ذكرنا؛ وقد اعتمده كل=

وكان من أهمّ ما أثاروا من شُبَهٍ في هذا الصدد: تكرارهم القول بوجود تناقضٍ بين آيات القرآن ينفي إعجازه؛ ويدل دلالة قاطعة ـ بزعمهم ـ على أنه من صنع البشر وليس من وحي السماء. وضربوا لذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ [آل عمران: ٤١] إذ تناقض ذلك مع قوله تعالى في مكان آخر من القرآن: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٖ سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٠]، فإن الآية الأولى حدَّدت المدة بثلاثة أيام، في حين نصَّت الآية الثانية على تحديدها بثلاث ليال.

ويكفينا في تفنيد هذه الشبهة أن نشير إلى أن لفظ اليوم في اللغة العربية ـ وهي اللغة التي أُنزل بها القرآن ـ قد يطلق ويراد به بياض النهار فقط؛ كقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧]، وقد يطلق ويراد منه مجموع النهار والليل كقوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ﴾ [هود: ٦٥]. كما أن لفظ الليل قد يطلق ويراد به مدة مغيب الشمس كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١] وقوله تعالى: ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾ [الحاقة: ٧]، وقد يطلق ويراد منه سواد الليل وبياض النهار كلاهما كقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ﴾ [البقرة: ٥١].

= الذين جاؤوا من بعد». وما أدري هل يقصد الكاتب إن محمداً قد اعتمد النصّ السومري عندما ألّف القرآن؟؟؟!!!.

وجاء في الصفحة الأخيرة من جريدة الجمهورية أيضاً في عدد يوم ١٩٧٦/٧/٢٩م ما نصه:

«أكد البروفسور اندريه كابار مدير معهد العلوم الطبيعية في بلجيكا أن الطوفان قد حدث فعلاً»!!!.

ومعنى ذلك أن الإخبار القرآني لم يكن مقنعاً للكاتب في حدوث الطوفان حتى أيّده وأكّده البروفسور المذكور!!!.

وإذا كان استعمال لفظي الليل واليوم في هذين المعنيين جائزاً وصحيحاً في اللغة لم يكن في الآيتين الكريمتين أي تناقض أو اختلاف، فقد استُعْمِل لفظا الأيام والليالي بمعنى مجموع بياض النهار وسواد الليل، وليس فيهما ما يثير الشبهة لولا سوء الفهم أو سوء الغرض. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

❁ ❁ ❁

وعلى الرغم من كون القرآن معجزة بأسلوبه البليغ المتناهي في البلاغة، وبيانِه الفصيح الذي لا يستطيع البشر الاتيان بمثله، وانسجامِه الرائع المنزَّه عن كل تضادّ أو تناقض أو اختلاف. فإن هناك جوانب أخرى لإعجازه لا تقل عن هذا الجانب أبداً، ولعل من أبرزها وأكثرها لفتاً للنظر ودلالة على المطلوب ما أودع الله تعالى فيه من أنواع المعارف وأسرار العلوم وخفايا الحقائق الكونية، مما لا سبيل إلى احتمال كونه صادراً من بشرٍ عاش تلك الحقبة من الزمن، ولم يكن أمامه من سبيلٍ لإدراك مثل هذه الأمور.

ومع إقرارنا بأن القرآن الكريم كتابُ دينٍ وعقيدة وتشريع، وليس كتاب فلكٍ أو كيمياء أو فيزياء. فإننا نشاهد عَرَضاً في غير واحدةٍ من آياته أخباراً دقيقة عن كثير من سنن الكون ومسائل الطبيعة؛ مما لا يمكن العلم به في تلك العصور إلاّ من طريق الوحي الإلهي.

وقد أخذ القرآن بأسلوب حكيم جدّاً في إخباره عن هذه الأسرار، فصرَّح ببعضها حيث يحسن التصريح، وأشار إلى بعضها حيث تكون الإشارة أوْلىٰ، لأن بعض تلك الحقائق ما يستعصي فهمه على عقول

الناس يومئذ، فكان من الحكمة أن يشير إليها إشارة تتضح لأهل العصور المقبلة حينما يتقدَّم العلم وتتجلّىٰ الحقائق(١).

❁ ❁ ❁

إن ما شاهده الناس المعاصرون للحقبة النبوية الأولى بعد البعثة الشريفة في مكة المكرمة من معجزات نبينا الأعظم المأثورة ـ غير القرآن الكريم ـ كان أوسع وأكثر مما يتسع له نطاق هذه الأوراق المضغوطة المحدَّدة، وقد أوردتْها المصادرُ الكبرى والكتب المختصة بشؤون السيرة؛ أو تلك التي جمعت الحديث أو عُنيت بالتاريخ؛ بكل إسهاب وتفصيل، وبامكان الراغب بالوقوف على ذلك أن يرجع إلى تلك المصادر لاستيعاب أخبارها وقراءة نصوصها الكاملة.

ومع ذلك كلّه فقد رجح عندي أن أستعرض في هذه العجالة معجزتين منها بالخصوص، ورد ذكرهما في القرآن الكريم بياناً لما تحقق فيهما من إعجاز هائل يفوق مدركات العقول الساذجة التي لا يصل مداها إلى ما هو أبعد من المحسوس المعتاد؛ ويتجاوز عطاء الأذهان البدائية التي لا تستطيع وعيَ حقائق الأمور وأسرارها فتخلط بين المستحيل والممكن بلا فرزٍ ولا تمييز، فنقول ـ وبالله التوفيق ـ:

١ ـ الإسراء

أُسْرِيَ برسول الله (ص) ذات ليلةٍ من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى المسجد الأقصى في مدينة القدس؛ ثم أُعِيد إلى موطنه في تلك الليلة نفسها قبل أن ينبلج الصبح، «وكان في مسراه وما ذُكر منه بلاءٌ

---

(١) وقد استعرضنا بعض شواهد ذلك في كتابنا «النبوة» ص: ١٣٦ ـ ١٤٣ [من هذه الموسوعة] فلا نكرر ولا نعيد.

وتمحيص وأمرٌ من أمرِ الله عزَّ وجلَّ في قدرته وسلطانه، فيه عِبْرَة لأُولي الألباب، وهدى ورحمة وثبات لمن آمن وصدَّق وكان من أمر الله على يقين. فأسرى به كيف شاء وكما شاء؛ ليُرِيَه من آياته ما أراد»[1].

وأنزل الله تعالى في هذه المسيرة المعجزة قولَه عزَّ وجل: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وكان ذلك قبل مهاجرِه بستة عشر شهراً[2].

وجاء في الرواية: أنه ـ(ص) ـ «أُتِي بالبُرَاق... فحُمِل عليها، ثم خرج به صاحبُه [أي جبريل] يرى الآيات فيما بين السماء والأرض حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل وموسى وعيسى في نفرٍ من الأنبياء قد جُمِعوا له، فصلّى بهم».

«ثم انصرف رسول الله (ص) إلى مكة، فلمّا أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر»، فأنكر أكثرُ الناس ذلك وقالوا: «إن العِيرَ لَتُطْرَد شهراً من مكة إلى الشام مُدْبِرةً وشهراً مُقْبِلة، أفيذهب ذلك محمدٌ في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة»[3]!.

ثم ضجَّ هؤلاء المنكرون قائلين: «وما آيةُ ذلك يا محمد؟ فإنّا لم نسمع بمثل هذا قطّ»، «فوصف لهم شيئاً مما يعرفونه»، ثم قال:

آيةُ ذلك أني مررتُ بعِير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حسُّ الدابة [أي البراق] فَندَّ لهم بعيرٌ، فدللتُهم عليه وأنا موجَّه إلى الشام. ثم أقبلتُ حتى إذا كنتُ بضَجَنان مررتُ بعِير بني فلان فوجدتُ القوم نياماً

(١) السير والمغازي: ٢٩٥ وسيرة ابن هشام: ٢/ ٣٧.
(٢) السير والمغازي: ٢٩٧.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ٣٨ ـ ٣٩.

ولهم إناء فيه ماء قد غطّوا عليه بشيء؛ فكشفتُ غطاءه وشربتُ ما فيه ثم غطيتُ عليه كما كان. وآيةُ ذلك: أن عِيرهم الآن تصوب من البيضاء ثنيَّةَ التنعيم يقدمها جملٌ أورقُ عليه غِرَارتان إحداهما سوداء والأخرى برقاء».

«فابتدر القومُ الثنيَّةَ»، فلقوا الجملَ الذي ذكره، وسمعوا من الركب قصةَ الإناء والماء الذي كان فيه؛ وقضيةَ البعير الذي ندَّ لهم»[١]، «فكان ذلك معجزة له باهرة؛ ودلالة واضحة؛ لولا العناد»[٢].

«ثم اختلف أهل العلم في صفة إسراء الله تبارك وتعالى بنبيّه (ص) من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى: فقال بعضُهم: أسرى الله بجسده، فسار به ليلاً على البُرَاق.... ثم رجع إلى المسجد الحرام من ليلته، فصلّى به صلاة الصبح».

«وقال آخرون: بل أُسْرِيَ بروحِه، ولم يُسْرَ بجسده»، معتمدين في ذلك على خبرِ عائشة: أنه أُسْرِيَ بروحه؛ وزَعْمِ معاوية: إن الإسراء كانت رؤيا صادقة[٣].

ويعلّق الطبري على ذل فيقول:

«والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله أسرىٰ بعبده محمد ـ(ص) ـ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر الله عبادَه، وكما تظاهرت به الأخبارُ عن رسول الله (ص).... ولا معنى لقول مَنْ قال: أُسْرِيَ بروحه دون جسده. لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوّته.... ولا كان الذين أنكروا حقيقةَ ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه، إذ لم

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٣ ـ ٤٤، وقريب منه في التبيان: ٦/ ٤٤٦.

(٢) التبيان: ٦/ ٤٤٦.

(٣) تفسير الطبري: ١٥/ ٥ و١٦.

يكن منكراً عندهم، ولا عند أحدٍ من ذوي الفطرة الصحيحة من بني آدم، أن يرى الرائي منهم في المنام ما على مسيرة سنة؛ فكيف ما هو على مسيرة شهر أو أقلّ».

«وبعد: فإن الله إنما أخبر في كتابه أنه أسرى بعبده، ولم يخبرنا أنه أسرىٰ بروح عبده.... ولا دلالة تدل على أن مراد الله من قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ أسرى بروح عبده، بل الأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله (ص) أن الله أسرى به على دابة يقال لها البراق، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق، إذ كانت الدوابُّ لا تحمل إلاّ الأجسام»[1].

ولا ريب أن ما قاله الطبري رأياً ودليلاً هو الصواب بعينه.

وقال الفخر الرازي في إثبات الجواز العقلي للإسراء بالجسد:

إنَّ «الحركة الواقعة في السرعة إلى هذا الحدّ ممكنةٌ في نفسها، والله تعالى قادر على جميع الممكنات»، و«إن الفلك الأعظم يتحرك من أول الليل إلى آخره ما يقرب من نصف الدَّوْر»، و«جاء في القرآن: إن الرياح كانت تسير بسليمان (ع) قرّب إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة»، و«إن القرآن يدل على أن الذي عنده علمٌ من الكتاب أحضر عرشَ بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر.... وإذا كان ذلك ممكناً في حق بعض الناس علمنا أنه في نفسه ممكنُ الوجود».

ثم قال:

لقد ثبت أن القول بالإسراء بالبدن «أمرٌ ممكن الوجود في نفسه، أقصىٰ ما في الباب أنه يبقىٰ التعجبُ، إلاّ أن هذا التعجب غير

---

(١) تفسير الطبري: ١٥/١٦ ـ ١٧.

مخصوص بهذا المقام، بل هو حاصل في جميع المعجزات، فانقلابُ العصا ثعباناً... ثم تعود في الحال عصاً صغيرة كما كانت أمرٌ عجيب.... وكذا القول في جميع المعجزات.... [و] مجرد التعجب لا يوجب الإنكار والإبطال».

ثم لخَّص زبدة الكلام في المسألة قائلاً:

«قال أهل التحقيق: الذي يدلُّ على أنه تعالى أسرىٰ بروح محمد (ص) وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى: القرآن والخبر. أما القرآن فهو هذه الآية [يعني آية الإسراء]. وتقريرُ الدليل أن العبدَ اسمٌ لمجموع الجسد والروح، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً لمجموع الجسد والروح»، «وأما الخبر فهو الحديث المروي... وهو مشهور»[1].

⊛ ⊛ ⊛

ثم أجمع المفسّرون والمحدِّثون والمؤرخون: أنه عُرِجَ بالنبيّ (ص) في تلك الليلة إلى السماء[2]، «وأوحى إليه هنالك ما شاء أن يُوحي، ثم رجع إلى المسجد الحرام من ليلته»[3]. وإن ذلك كان «في يقظته دون منامه» عند أغلب اولئك القائلين.

«والذي يشهد به القرآنُ الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والباقي يُعْلَم بالخبر»[4].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٠/ ١٥٠.

(٢) تفسير الطبري: ١٥/ ٣ ـ ٥ وسيرة ابن هشام: ٢/ ٤٤ ـ ٤٥ والكشاف: ٢/ ٤٣٧ والروض الأُنُف: ٢/ ١٥٤ وتفسير الرازي: ٢٠/ ١٥٠.

(٣) تفسير الطبري: ١٥/ ٥.

(٤) التبيان: ٦/ ٤٤٦.

وقد استنبط المفسِّرون أصلَ قصةِ المعراج من آيات سورة النجم؛ واقتبسوا بعضَ تفصيلها من الأحاديث والأخبار التاريخية، ولكننا لم نر في تلك الآيات دلالةً صريحة على المعراج المذكور، وإنما المستفاد منها مجموعة أفكار عامة تخص النبيَّ (ص) ومقامَه الشامخ، ويمكن ربطها بأجمعها بالإسراء وما رأى فيه النبيّ (ص) من آيات ربه الكبرى، كما يمكن تلخيص دلالاتها الرئيسة على النحو الآتي:

تنزيه الله تعالى رسولَه (ص) عن الضلال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ [النجم: ٢].

وعَمَلَه عن الغواية: ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢].

ونطقَه عن الهوى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣].

وفؤادَه عن الكذب: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١].

وبَصَرَه عن الزيغ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ [النجم: ١٧].

ونَظَرَه عن الطغيان: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

وقد شذَّ بعض الرواة فحمَّلوا هذه الآيات أكثر مما تتحمَّل ألفاظها، بل نسبوا إليها بعضَ ما لا يصح في الدين ولا ينسجم مع أُسس الايمان بالله عزَّ وجل، كذهابهم إلى التجسيم فيما رووه عن ابن عباس وأبي هريرة وأحمد بن حنبل وأبي الحسن الأشعري من أنَّ محمداً (ص) «في معراجه رأى ربَّه»[1]، ونَصَّ الأشعريُّ على أنه (ص) «رآه بعينَيْ رأسِه»[2]، ونصَّ ابن إسحاق على أن جبريل حمل محمداً (ص) حتى «أنتهى به إلى السماء السابعة، ثم انتهى به إلى

(١) الروض الأُنف: ٢/١٥٦.
(٢) الروض الأنف: ٢/١٥٦.

ربّه»[١]، وروى الطبري عن عكرمة: أن محمداً قد «رأى ربَّه» وقال عكرمة: «قد رآه، قد رآه، قد رآه، ثم قد رآه حتى ينقطع النفس»[٢]، كما رويَ عن ابن عباس: إن رسول الله (ص) قال: «رأيت ربي في أحسن صورة.... فوضع يَدَه بين كتفيَّ فوجدتُ بَرْدَها بين ثَدْيَيّ»[٣].

وعلَّق الرازي على ادِّعاء الرؤية هذا: بأنه «ضعيف سخيف... وهو مذهب القائلين بالجهة والمكان»[٤].

ويبدو أن الذي أوقع هؤلاء في هذا الادعاء الفاسد والزعم الباطل ما فهموه بسذاجة من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨]، فذهبوا إلى تفسير ذلك بأن جبرئيل عرج برسول الله (ص) «إلى السماء السابعة، ثم علا به بما لا يعلمه إلا الله حتى جاء سدرةَ المنتهىٰ، ودنا الجبار ربُّ العزَّة فتدلّىٰ!! حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله إليه ما شاء»[٥].

ولكن القائلين بالتنزيه ـ وهم أتباع المنهج العقلي من مفكري المسلمين ـ أنكروا ذلك أشدَّ الإنكار وقالوا: إن الذي دنا هو جبرئيل من رسول الله (ص)؛ فتدلّىٰ جبرائيل فتعلَّق عليه في الهواء[٦].

ثم زادوا في إيضاح هذا المعنى فقالوا في تفسير الآية التالية لتلك الآية وهي قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩] معناه: «كان بينه [أي النبيّ] وبين جبرائيل مقدار قاب قوسين أو أدنى»[٧].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٤٩.
(٢) تفسير الطبري: ٢٧/ ٤٨.
(٣) تفسير الطبري: ٢٧/ ٤٩.
(٤) تفسير الرازي: ٢٨/ ٢٨٦.
(٥) تفسير الطبري: ٢٧ ـ ٤٤ و٤٥.
(٦) تفسير الطبري: ٢٧/ ٤٤ والتبيان: ٩/ ٤٢٣ والكشاف: ٤/ ٢٨.
(٧) التبيان: ٩/ ٤٢٣.

وقالوا في تأكيد ما ذهبوا إليه: إن قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١] يعني ما رأى محمدٌ من مقدورات الله تعالى وملكوته[١]، وقال المبرد: «معناه: صدق الفؤادُ فيما رأى»[٢].

وقد أوضح الله تعالى هذا المعنى بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، وعنى بكبراها «حين رُقِيَ به إلى السماء فأُرِيَ عجائب الملكوت»[٣]، وذلك هو الذي نصَّت عليه آية الإسراء ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الاسراء: ١].

وروى الرازي وجهاً آخر في تفسير آية الدنوّ والقرب فقال: «ارتفع النبيُّ (ص) حتى بلغ الأفق الأعلى من البشرية، وتدلّىٰ جبريل ـ(ع) ـ حتى بلغ الأفق الأدنىٰ من الملكية، فتقاربا ولم يبق بينهما إلاّ حقيقتهما»[٤].

وعلى كل حال؛ فالمسألة غير واضحة المعالم، وذهب بعضهم إلى أن العروج إنما كان بالروح دون الجسد؛ وهو المرويُّ عن الحسن في قوله: «عُرِج بروح محمد (ص) إلى السماء وجسدُه في الأرض»[٥].

ولكنَّ أكثر المفسرين يقولون: إنه صعد بجسمه حتى رأى ملكوت السماوات؛ وأن ذلك كان في اليقظة لا في المنام[٦].

ولّما كان العروج في اللغة العربية هو الارتقاء والصعود؛ فربما يصحُّ أن يُحْمَل ما ورد في آيات سورة النجم على الإسراء المنصوص

(١) التبيان: ٩/ ٤٢٤.
(٢) تفسير الرازي: ٢٨/ ٢٨٩.
(٣) الكشاف: ٤/ ٣٠.
(٤) تفسير الرازي: ٢٨/ ٢٨٧.
(٥) التبيان: ٩/ ٤٢٤.
(٦) التبيان ـ أيضاً ـ: ٩/ ٤٢٤.

عليه في القرآن الكريم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهو في واقعِه عروجٌ وارتقاء وصعود. والله تعالى هو العالم بأسرار الكتاب وحقائق الأمور.

أما الرؤية المزعومة لله تعالى فهي ـ على سخفها كما وصفها الفخر الرازي ـ مرفوضة في كل الأحوال رفضاً مطلقاً؛ لا تجزئة فيه بين النبيّ وغيره وبين الدنيا والآخرة، ويعدُّ كل قائل بها مجسِّماً مخالفاً لقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وقوله الآخر: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وخارجاً على حكم العقل بكونه عزَّ وجل غير ماديّ وغير محكوم بقيود الزمان والمكان والجهة كما هو مقرَّر في محله من الفلسفة والكلام. وبذلك يكون المعنى الوحيدُ والفريد للرؤية أينما وردتْ في القرآن المجيد والحديث الصحيح رؤية آيات الله في صنعه وخلقه؛ كما قال جلَّ وعلا: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤] ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وقد يقول قائل: إن الله تعالى قد استعمل لفظ النظر في قوله عزَّ وجل: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] وهو ظاهر في الرؤية.

والجواب على ذلك: **أوّلاً** ـ إن النظر هو عموم التطلُّع والفكر في الشيء؛ وليس معناه الرؤية البصرية بالخصوص، ومن الشاهد الصريح على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

وثانياً ـ ما ذهب إليه الشريف المرتضى في أماليه من أن «إلىٰ» في هذه الآية اسمٌ لا حرف؛ ومعناه النِّعمة؛ والجمع آلاء، فيكون المراد من قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أنَّها ناظرة نعمة ربها.

وثالثاً: لو تنزلنا فسلَّمنا بأن المراد بالنظر هنا الرؤية بمعناها الماديِّ المباشر وبأن «إلى» حرف جرّ، فإنه استعمال للكلمة مجازاً بحذف المضاف، أي إن قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يعني أنها: إلى ثواب ربها ناظرة، وقد تكرر حذف المضاف في القرآن في أكثر من آية ومورد، قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهلِ القرية وراكبي العِير.

٢ ـ انشقاق القمر

وهو معجزة أخرى من معجزات نبينا الأعظم ـ(ص) ـ، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ٢]، وتناقل الرواة ذلك في مختلف مصادر التفسير والحديث، وكان هذا الحدث الهائل ـ كما يروي الطبري ـ «على عهد رسول الله (ص) وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة، وذلك أن كفّار مكة سألوه آية، فأراهم ـ(ص) ـ انشقاق القمر آيةً، حجةً على صدق قوله وحقيقة نبوَّته، فلمّا أراهم أعرضوا وكذّبوا وقالوا: هذا سحر مستمرٌ سَحَرَنا محمد، فقال الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]»[1].

وروى الزمخشري عن «بعض الناس: إن معناه ينشق يوم القيامة»[2].

---

(١) تفسير الطبري: ٢٧/ ٨٤.

(٢) الكشاف: ٤/ ٣٦.

وقال الطوسي:

«ومن أنكر انشقاق القمر وأنه كان؛ وحَمَلَ الآيةَ على كونه فيما بعد ـ كالحسن البصري وغيره واختاره البلخي ـ فقد ترك ظاهِرَ القرآن، لأن قوله: (انشق) يفيد الماضي، وحَملُه على الاستقبال مجاز. وقد روى انشقاقَ القمر عبد الله بن مسعود وأنسُ بن مالك وابن عمر وحذيفة وابن عباس وجبير بن مطعم ومجاهد وإبراهيم. وقد أجمع المسلمون عليه، ولا يعتدُّ بخلاف مَنْ خالف فيه لشذوذه، لأن القول به اشتهر بين الصحابة فلم ينكره أحد، فدلَّ على صحته وأنهم أجمعوا عليه، فخِلافُ مَنْ خالف فيما بعد لا يُلتَفَتُ إليه».

«ومَنْ طعن في انشقاق القمر بأنه لو كان لم يَخْفَ على أهل الأقطار؛ فقد أبْعَدَ، لأنه يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم، ولأنه كان ليلاً فيجوز أن يكون الناس نياماً فلم يعلموا به؛ لأنه لم يستمر لزمانٍ طويل، بل رجع فالتأم في الحال»[١].

وقال الفخر الرازي:

«وقال بعض المفسرين: المراد سينشق. وهو بعيد ولا معنى له، لأن مَنْ منع ذلك ـ وهو الفلسفي ـ يمنعه في الماضي والمستقبل، ومن يجوِّزه لا حاجة به إلى التأويل... والقرآن أدلُّ دليل وأقوىٰ مثبتٍ له، وإمكانُه لا يُشَكُّ فيه»[٢].

وقد أصدر في عصرنا الحاضر أحَدُ العلماء الهنود وهو الأستاذ ابن مظهر معين الدين رهبر فارقي كتاباً يُعنىٰ بهذا المعجز من منظور علمي؛ سمّاه «نئي مشاهدات أورد معجزه شق القمر»، وترجمة عنوانه إلى العربية: معجزة شق القمر في ضوء المشاهدات الجديدة، وقد كتبه باللغة

(١) التبيان: ٩/ ٤٤٣.

(٢) تفسير الرازي: ٢٩/ ٢٨.

الأوردية وطبعه في حيدر آباد سنة ١٩٦٨م، وتحدَّث في فصوله الأولى عن المعجزة: معناها والفائدة المتوخاة منها وكيف يقدر النبيّ على الاتيان بها وما هو الفرق بينها وبين السحر. ثم تحدَّث عن شق القمر وأثبت حصوله ووقوعه بالآثار والشواهد العلمية، «وبحث بحثاً ممتعاً في تحديد وقت المعجزة: أي هل كان في أول الليل أو نصفه أو آخره، مستنبطاً ذلك من الآثار والمعلومات الجغرافية. وأثبت بدلائل عقلية أنه ما زالت إلى يومنا هذا آثارُ الشقِّ في القمر. وأورد لإثبات ذلك مقتبسات للمحققين الاوروبيين مثل الدكتور بيرسي ولكنس وغيرهما، كما اقتبس من بعض الكتب إن رؤية المعجزة لم تنحصر في الجزيرة العربية؛ بل شوهدت في بعض البلدان الأخرى أيضاً ولا سيما الهند»[1].

---

(١) مجلة ثقافة الهند/ يصدرها مجلس الهند للروابط الثقافية/ المجلد ٢٠/ العدد الثاني/ إبريل ١٩٦٩م.

العصمة

لعل من أوضح معطيات العقل وايحاءاته البديهية أن لا يُؤْمن أحدٌ من ذوي الألباب بنبوّة إنسانٍ من البشر يتلّقىٰ أخبار السماء ويلقيها على الناس ديناً يجب الرضوخ له والإقرار به؛ إلاّ إذا كان هذا الإنسان النبيّ في أعلى مراتب الكمال ومدارج الامتياز؛ في صدق الحديث؛ وعدم السهو؛ والأمن من الزلل؛ والامتناع عن فعل المعصية ـ أية معصية ـ؛ والالتزام بفعل الطاعة ـ أية طاعة ـ، لكي يكون منزَّهاً إلى درجة القطع واليقين عما يوجب الشك في سلامة أقواله وأعماله وجميع تصرفاته.

وهذا ما أطلق عليه علماءُ الكلام اسمَ «العصمة».

وتكون العصمة على هذا؛ عبارة عن طاقةٍ داخلية متيقظةٍ في نفس النبيّ تهيمن عليه فتمنعه من كل تركٍ لطاعةٍ؛ أو فعلٍ لمعصية؛ أو زللٍ في قولٍ؛ أو خللٍ في عمل؛ أو تناقضٍ في تصرف.

وعلى الرغم من بداهة هذا المعنى وضرورة تمثُّله في مبعوث السماء فإن للمذاهب الإسلامية في هذا الموضوع كثيراً من الكلام وكثيراً من الخلاف فيما بينها فيه. وقد بيَّن الفخر الرازي بعضاً من تلك الآراء والخلافات فقال.

«اختلف الناس في عصمة الأنبياء (ع). وضَبْطُ القولِ فيه أن يقال: الاختلاف في هذا الباب يرجع إلى أقسام أربعة:

«**أحدها**: ما يقع في باب الاعتقاد.

«**وثانيها**: ما يقع في باب التبليغ.

«**وثالثها**: ما يقع في باب الأحكام والفتيا.

ورابعها: ما يقع في أفعالهم وسيرتهم.

«أمّا اعتقادهم الكفر والضلال فإن ذلك غير جائز.

«أما النوع الثاني ـ وهو ما يتعلَّق بالتبليغ فقد أجمعت الأمة على كونهم معصومين عن الكذب والتحريف فيما يتعلّق بالتبليغ.... واتفقوا على أن ذلك لا يجوز وقوعه منهم عمداً كما لا يجوز أيضاً سهواً.

«وأما النوع الثالث ـ وهو ما يتعلَّق بالفتيا ـ فأجمعوا على أنه لا يجوز خطأُهم فيه على سبيل التعمُّد، وأمّا على سبيل السهو فجوَّزه بعضهم وأبَاه آخَرون.

«وأمّا النوع الرابع ـ وهو الذي يقع في أفعالهم ـ فقد اختلفت الأمةُ فيه على خمسة أقوال:

«**أحدها**: قول مَنْ جوَّز عليهم الكبائر على جهة العمد، وهو قول الحشوية.

«**والثاني**: قول مَنْ لا يجوّز عليهم الكبائر؛ لكنه يجوّز عليهم الصغائر على جهة العمد إلاّ ما ينفِّر كالكذب والتطفيف، وهذا قول أكثر المعتزلة.

«**القول الثالث**: إنه لا يجوز أن يأتوا بصغيرة ولا بكبيرة على جهة العمد البتَّة، بل على جهة التأويل، وهو قول الجبائي.

«**القول الرابع**: إنه لا يقع منهم الذنب إلاّ على جهة السهو والخطأ.

«**القول الخامس**: إنه لا يقع منهم الذنب لا الكبيرة ولا الصغيرة،

لا على سبيل القصد ولا على سبيل السهو ولا على سبيل التأويل والخطأ، وهو مذهب الرافضة (كذا)»[١].

۞ ۞ ۞

ومع معرفة مقام النبيّ وتأثيره المباشر في الحياة العامة؛ بحكم كونه المثل والقدوة والمُتَّبَع؛ والحجةَ على الجميع في قوله وفعله وتقريره؛ فإن القول بالعصمة ضروري لا مفرَّ من الإقرار به والإذعان له. وعلى ذلك سار الفكر الشيعي الإماميُّ مؤكِّداً وجوب العصمة وحتميتها، منفرداً بقوله هذا بين سائر خطوط الفكر الإسلامي الأخرى التي لم تجد ضرورةَ الايمان بتنزيه الأنبياء على هذا المستوى من التنزيه المطلق المجرَّد من كل الشوائب وإن صغرت وحقرت، بما فيهم المعتزلة العقليون الذين ذهبوا ـ مع تأكيدهم الواضح الصريح على عصمة الأنبياء عن فعل الكبائر ـ إلى تجويز فعلهم الصغائر «التي لا حظَّ لها إلاّ في تقليل الثواب دون التنفير»[٢] كما مرَّت الإشارة إليه.

وعلى الرغم من أن المسألة من الوضوح بمكان ولا تحتاج إلى تطويل بحثٍ وتفصيل دليل، لما ذكرناه من بداهة الموضوع؛ ومن شهادة الوجدان بأن النبيّ الذي لا يؤمَنْ سهوُه وزللُه؛ واشتباهُه وخطأُه؛ وارتكابه المعاصي والمنافيات، لا يمكن تصديقه فيما يقول؛ وإتِّباعهُ فيما يفعل؛ وإطاعتُه فيما يأمر وينهىٰ ويحكم ويقرِّر.

---

(١) تفسير الرازي: ٣/ ٧.

(٢) مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوي: ١/ ٤٧٨. ويراجع كتاب (المنخول) للغزالي: ٢٢٣ ـ ٢٢٥ فقد ذكر مؤلفه فيه عدم وجوب عصمة الأنبياء، وزاد على ذلك فقال: «إنّا نجوّز أن ينبِّىء الله تعالى كافراً ويؤيده بالمعجزة» (كذا). وعلق محقق الكتاب على ذلك في الهامش فقال: «وخالف الروافض [يعني الشيعة الإمامية] فذهبوا إلى امتناعها [أي المعصية]».

أقول: على الرغم من ذلك فإن الموضوع قد اقتحم جميع الكتب الكلامية المعنية بهذه المطالب، وكذلك غير الكلامية منها كالتفسير ومباحث الاجتهاد، وكان من أهمّ أسباب ذلك وجود بعض الآيات القرآنية التي قد يشعر ظاهرها بارتكاب الذنب وفعل المعصية من قبل نبيّنا الأعظم (ص).

ولمّا كنّا بصدد استيعاب هذا البحث للجوانب الرئيسة من السيرة الشريفة كان لا بدّ لنا من استعراض تلك الآيات المشعِرة بذلك؛ ومن بيان الغرض المراد منها، ـ تكراراً موجزاً لما سبق منّا بحثُه في كتاب «النبوّة» بشيء من الإسهاب ـ، حتى يتضح الأمر لكلٍّ من يلتبس عليه ذلك؛ ويُقطَعَ الطريقُ على وساوس الشكوك والشبهات بحجج اليقين القاطع والدليل الناصع.

الآية الأولى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥].

لقد رأى بعضُ الجهلة وأعداء الإسلام إن في هذه الآية جانبين يمسّانِ مقامَ النبوّة هما: عتاب الله تعالى لرسوله؛ وتأثُّر النبيّ وتألّمه من عدم قدرته على الاتيان بالمعجزات أو عدم إقدار الله إياه على ذلك.

والحقُّ أن هذا الفهم لمعنى الآية إنما هو فهم سطحي ساذج يدل على جهلٍ تامّ بأسلوب القرآن وطريقته في التعبير. أمّا العارفون بمنهج القرآن والواقفون على أساليبه وطرائقه في البيان فإنهم يفهمون من هذه الآية ان حماس محمد واهتمامه بهداية قومه كان بالغاً حدَّه، وأن الخطاب الإلهيّ له فيها إنما يقوم على أساسٍ من هذا المنطلق.

وقد حدثنا القرآن الكريم ـ بالتكرار والتأكيد ـ عن حرص النبيّ

على إيمان قومه ومنتهى رغبته بمبادرتهم إلى ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] وقوله جلَّ وعلا: ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ [النحل: ٣٧] وقوله أيضاً: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعندما نستعرض الآية الشريفة موضوع البحث ونحاول فهمها في ضوء ما مرَّ؛ نجد أن معناها قد اتضح بكل جلاء وعلى النحو الآتي: إنك يا محمد لو صعدتَ إلى السماء أو دخلتَ في جوف الأرض في سبيل هداية قومك فإنك لن تحصل على مبتغاك ولن يؤمنوا بك بهذه العجالة وكما تريد.

فهل في ذلك ما يوحي بعتبٍ أو يومىء إلى لَوْم؟.

إن المراد من الآية المذكورة هو بيان أن هؤلاء العصاة المتمردين على أمر الله لن تنفعهم الآيات ولن تجذبهم المعجزات إلى حظيرة الايمان طوعاً واختياراً. نعم يمكن تحقيق ذلك بطريق الجبر الإلهي لهم على الطاعة وإكراههم عليها بموجب القدرة الإلهية التي لا تُقْهَر، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ولكن الله تعالى ـ كما تقرَّر في مباحث العدل ـ لم يجبر عباده على ذلك ولن يكرههم عليه، بل ترك لهم حريَّة الاختيار المطلقة في الايمان، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩ ـ ١٠].

أمّا إشعار الآية بحزن النبيّ (ص) وتألُّمه من العجز عن الاتيان بمعجزةٍ تقنع هؤلاء الكافرين؛ فهو ادِّعاء لا شاهد له ولا دليل عليه، لأن النبيّ يعلم أن الآيات والمعجزات إنما تصدر من الله تعالى وليست من صنعه هو؛ لأنه عبد الله ورسوله، وقد أعلمته هذه الآية بأن عدم إقداره

على الاتيان بما يريد منها ليس بسبب إهمال الله تعالى له؛ أو عدم اهتمامه بأمره؛ أو إعراضه عن تحقيق رغبته، وإنما بسبب علم الله جلّ وعلا بحقيقة نوايا هؤلاء الكافرين؛ وبإصرارهم على عنادهم الذي لا تنفع معه آية ولا تجدي هداية.

الآية الثانية: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

لقد زعم بعضهم أن هذه الآية صريحة في معاتبة النبيّ؛ والعتاب دليل المخالفة للأمر الإلهي في الأسر والأسرىٰ.

وهذا الزعم ـ في واقعه ـ أوهن من بيت العنكبوت، لأن الآية لم تحمل أي معنىً من معاني المخالفة والمعاتبة، ولا علاقة لها بالمعصية والذنب والخروج على الأوامر المقرَّرة، وليس فيها سوى التنبيه علىٰ أن منهج الأنبياء السابقين قائم على قتل كل عدوّ يظفرون به حيّاً في الحروب الدينية لا أسْره، ليُرهِب ذلك أعداءَ الله؛ ويعتبروا به فيمتنعوا عن محادَّة الله ورسوله. أما أسْرُهم وأخْذُهم أحياءً فلن يُسْمَح به إلاّ بعد انتشار الدين وتوسُّع رقعته واستقرار حال المؤمنين به، ويكون النبيُّ حينذاك مخيَّراً فيهم بين المَنِّ والفداء.

وهكذا يظهر أن الآية إنما تتحدَّث عن حكم شرعي لم يُبَلَّغ به رسول الله (ص) قبل اليوم؛ بعيداً عن أي ذنبٍ منه أو عتابٍ له، شأنها في ذلك شأن كلِّ الأحكام الشرعيَّة التي أنزلها الله تعالىٰ في كتابه الحكيم على نبيه العظيم.

الآية الثالثة: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

لقد إدَّعىٰ بعضهم أن مخاطبة النبيّ بجملة ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ دليل على ارتكاب الذنب، لأن العفو لا يكون إلاّ حيث يكون الذنب.

والحقيقة أن معنى هذه الآية لا يتضح بجلاء ما لم يُقرأ ما سبقها وما يليها مما يُتِمُّ معناه ويبيِّن المراد منها، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾... [التوبة: ٤٢ ـ ٤٦].

ومن التأمل في هذه الآيات نجد أن قوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ لم يكن عفواً عن ذنبٍ بالمعنى الشرعي، أي عن مخالفةٍ لحكمٍ من أحكام الله، وإنما كان الغرض منه إرشاد النبيّ إلى الوسيلة التي يستطيع أن يعرف بواسطتها الصادقين والكاذبين من أولئك الذين اعتذروا عن المشاركة في الجهاد.

فلو لم يأذن لهم بالتأخر لعرف الذين صدقوا وعرف الكاذبين، ولكنَّ إذنه للذين زعموا عدم استطاعتهم الخروج للحرب قد أخفى محكَّ التمييز بين الصادق والكاذب، إذ اعتذر الطرفان وحصلا على الإذن فلم يمكن التمييز بينهما.

هذا، ويجب أن لا نغفل عن أن الإذن بالتخلف كان من صميم صلاحيات النبيّ (ص) التي نصَّ عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾. كما ينبغي أن لا نغفل أيضاً عن أن خروج المنافقين كان ينطوي على خطرٍ كبير يعرِّض تضامن الجيش ووحدة كلمته للتخلخل والاضطراب، بما يحتمل أن يثيروا من فتن وبلابل، وينشروا من أكاذيب وأضاليل، وقد نبَّه الله تعالى

على ذلك في ذيل الآيات التي أوردناها فيما سبق فقال عزَّ من قائل: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧].

وإذن. فليس في الآية ما يدل على معصية أو ذنب، وإنما هي في واقعها صورة من صور التوجيه الإلهي لنبيّه الكريم في طريقة امتحان الناس؛ بعدم الاستعجال بالإذن لهم، لتتضح حقيقة نواياهم العقيدية؛ فيعرف الصادق والكاذب منهم على أبين وجهٍ وأجلاه.

الآية الرابعة: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

لقد تخيَّل بعضهم أن هذه الآية صريحة في أن محمداً كان شاكّاً في حقيقة ما أنزل الله تعال إليه ومتردداً في صحته.

وللمفسِّرين في بيان الغرض من هذه الآية رأيانِ أو وَجْهانِ:

الأول: ما ذهب إليه ثعلب والمبرّد من أن معنىٰ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ أي فقل يا محمد للكافر: إنْ كنتَ في شك مما أنزلنا إليك فاسألْ.

الثاني: وهو الأوْجَهُ ـ إن الخطاب بظاهره موجَّه للنبيّ بالذات ولكنَّه في واقعه موجَّه إلى عموم الناس. وفي القرآن الكريم نظائر كثيرة لهذا الأسلوب من الخطاب، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، كما أن من نظائره أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقد علم الله أنَّ عيسىٰ لم يقلْ ذلك ولم يَفُهْ به.

وممّا يدل على رجحان هذا الوجه ما جاء في آخر الآيات التي كانت منها تلك الآية المتقدمة؛ وهو قوله جلَّ وعلا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤]، فقد جاء فيها بصريح اللفظ أن المخاطَب بالشك ليس النبيَّ نفسه؛ وإنما أولئك الكفّار المتمردون على أمر الله والرافضون للإيمان والإذعان المطلق لحكم الله وشرعه ودينه.

الآية الخامسة: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب ٣٧].

لقد ادَّعى المدَّعون أن في هذه الآية عتاباً ولَوْماً للنبيّ على ما يخفيه في نفسه مما يخشى أن يقف الناسُ عليه، وهو ادّعاء باطل من نسج الخيال، لأن هذه الآية ـ كما يعرف المطلعون ـ ترتبط بقصة زيد بن حارثة وزوجه زينب بنت جحش، وقد تقدَّم منّا في فصل (الزواج والأزواج) بحث هذه القضية وبيان ملابساتها فلا نعيد القول فيه، وإن نظرة موضوعية فاحصة يلقيها القارىءُ على ما سلف بيانه توضح له المقصود من الآية وتجلو معاني جُمَلها وألفاظها المعبِّرة عن سياق القصة ومراحلها المتعددة، من دون أن تحمل في طياتها أي معنىً من معاني اللَّوم أو العتاب المزعوم.

الآية السادسة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٤].

لقد قيل إن ظاهر هذه الآية دالٌّ على أن للشيطان مجالاً كبيراً للعبث والتدخُّل في سلوك الأنبياء وأقوالهم وأعمالهم، وقد زاد بعض الوضّاعين في تجلية هذا القول أو تأكيده بما لفَّقوه في أحاديثهم المختلقة عن اسطورة «الغرانيق» وادّعاء نزول هذه الآية موضوع البحث بهذه المناسبة كما تأتي الاشارة إليه.

والحقيقة أن فهم هذه الآية معتمد في أصله على تحديد معنى «التمني» ومعرفة مدلول هذه الكلمة في هذا السياق. وقد ذكر المفسّرون واللغويون لها هنا معنيين:

المعنى الأول: إن التمني هو حديث النفس[1] وهو تمني القلب، أي تقدير الإنسان وجودَ ما يحبُّه. ويكون معنى الآية وسياقها حينئذٍ على النحو الآتي:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ﴾ كانوا على مستوى المسؤولية في إخلاصهم للرسالة؛ وفي جهادهم الكبير وعملهم الدائب في نشر الدعوة وتبليغ الشريعة؛ وفي تحمُّلهم المصاعب والمصائب التي تواجههم خلال قيامهم بذلك. وكان أعداء الله وأعداء الرسالات السماوية يبذلون كل وسعهم وطاقتهم في محاربة سفراء الله وإفساد خططهم وإجهاض أي نجاح حققوه في هذه السبيل.

فـ ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ الرسول أو النبيُّ نجاحَ مهمته بما عزم وخطَّط ورسم؛ من طرقٍ للدعوة، ووسائل لنشر العقيدة؛ ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ ما يُذهب بسعادته وابتهاجه، بما يصوِّر له من عقبات التقدم ومن احتمالات الفشل؛ وبما يهيِّج به أتباعه وأنصاره ضدَّ الرسالة،

---

(١) روى القرطبي في تفسيره: ١٢/ ٨٥ عن الكسائي والفرّاء أن تمنّى معناه حدَّث نفسَه.

فتذوب حينذاك مشاعر السعادة لدى الرسول أو النبيّ بما يخشى من عدم نجاح خططه؛ وبما يتوقَّع من أفعال الأعداء وتكالبهم عليه.

ولكنَّ الله تعالى بالمرصاد، ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ ويزيل بإقامة المعجزات وظهور الحجج وإنجاح مساعي الأنبياء والرسل ﴿مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ من فتنةٍ بين الناس؛ ومن إغراءٍ لهم بمحاربة الدين، ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بنصرْ أنبيائه ورسله، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وإنما يُقيم الله المعجزاتِ والحججَ والأدلة على صحة هذه النبوّاتِ وصدقِ هذه الرسالات ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ من مكائد وشُبَهٍ وشكوكٍ ﴿فِتْنَةً﴾ واختباراً ﴿لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ممن لا تؤثّر فيهم الآياتُ والمعجزاتُ ولا تخضعُ عقولُهم للمنطق والحجة والبرهان، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بما يُشاهِدون من الأدلّة والبراهين ﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

المعنى الثاني: إن التمني في الآية معناه التلاوة، ويكون المقصود: «أنَّ مَنْ أُرسِل قبلك من الرسل كان إذا تلا على قومه ما يوحي الله إليه حرَّفوا عليه وزادوا فيما يقول وانقصوا كما فعلت اليهود. وأُضيف ذلك إلى الشيطان لأنه هو الذي يُغْوي الناسَ بذلك، فينسخ الله ما يُلقي الشيطانُ أي يزيله ويدحضه بظهور حججه.

«وخرج هذا على وجه التسلية للنبيّ (ص) لمّا كذب المشركون عليه وأضافوا إلى تلاوته من مَدْحِ آلهتهم ما لم يكن فيها»[1].

(١) مجمع البيان: ٤/ ٩.

وهذا هو الوجه الوجيه والفهم الواعي للمراد من هذه الآية.

أما الأساطير الواردة بهذه المناسبة فقد صرَّح المحققون من المفسرين أنه لا يصح منها شيء[١]، على الرغم من رواية كثيرٍ من المحدِّثين والمفسِّرين والمؤرخين لنصِّها الباطل المرفوض؛ ومحاولتهم تصديقَ ذلك وتأويلَه، بل إن فيها من التطاول على مقام النبوّة والمسِّ بذلك المقام ما لا يرضاه الجاهل البليد فضلاً عن العالِم المدرِك[٢].

الآية السابعة: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ [عبس: ١ ـ ٤].

لقد زعم الزاعمون أن في هذه الآيات لَوْماً وتعنيفاً للنبيّ (ص) على عبوسه وإعراضه عن هذا المؤمن الأعمى، ولا يكون اللوم إلاّ إذا كان هناك ذنبٌ وخروجٌ على التعاليم الإلهية المقررة.

والحقُّ أنه ليس في هذه الآيات تصريح جليٌّ بارتكاب ذنبٍ كما ادَّعىٰ المدَّعون، سواء أقلنا بأن المعنيَّ بها النبيُّ نفسه أم غيره، بل ليس فيها ما هو أكثر من التوجيه والتنبيه، والإرشاد إلى الأَوْلىٰ والأجْدر بالفعل والاتِّباع.

وللمفسرين في شرح هذه الآيات رأيانِ أو قولان:

الأول: ما ذهب إليه الأكثر، وهو «إن المراد به النبيّ (ص).. وذلك إن النبيّ (ص) كان معه جماعة من أشراف قومه ورؤسائهم قد خلا بهم، فأقبل ابنُ أُمِّ مكتوم ليسلِّم؛ فأعرض النبيّ (ص) عنه كراهية أن تكره القومُ إقبالَه عليه، فعاتبه الله على ذلك»[٣].

---

(١) تفسير الرازي: ٢٣/ ٥٠ والروض الأُنُف: ٢/ ١٢٦.

(٢) يراجع في نصوص تلك الأساطير: السير والمغازي: ١٧٧ ـ ١٧٨ وطبقات ابن سعد: ١/ ق ١/ ١٣٧ وتفسير الطبري: ١٧/ ١٨٦ ـ ١٩٠ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٣٨ ـ ٣٤١ وتفسير القرطبي: ١٢/ ٨٠ ـ ٨٥.

(٣) روى ذلك الطوسي في التبيان: ١٠/ ٢٦٨.

الثاني: ما ذهب إليه الشيخ محمد بن الحسن الطوسي تعليقاً على القول المتقدم فقال: «هذا فاسد، لأن النبيّ (ص) قد أجلَّ الله قدرَه عن هذه الصفات، وكيف يصفه بالعبوس والتقطيب وقد وصفه بأنه ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. . . . ومَنْ عرف النبيّ (ص) وحُسْنَ أخلاقه وما خصَّه الله تعالى به من مكارم الأخلاق وحسن الصحبة. . . . كيف يقطّب في وجه أعمىٰ جاء يطلب الإسلام. علىٰ أن الأنبياء (ع) منزَّهون عن مثل هذه الأخلاق وعمّا هو دونها، لما في ذلك من التنفير عن قبول قولهم والإصغاء إلى دعائهم»[1].

ولهذا رجَّح الشيخ المذكور «أن هذه الآيات نزلت في رجلٍ. . . . كان واقفاً مع النبيّ (ص) فلما أقبل ابنُ أم مكتوم تنفَّر منه وجمع نفسَه؛ وعبس في وجهه؛ وأعرض بوجهه عنه، فحكىٰ الله تعالى ذلك وأنكره. . . . وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ خطاب للنبيّ (ص)؛ وتقديره: قل يا محمد: وما يدريك» إلى آخر الآيات[2].

ويبدو أن الشيخ الطوسي باختيار هذا الرأي الحصيف والفهم العميق للآيات وسياقها؛ قد سار علىٰ نهج أستاذه الشريف المرتضى علي بن الحسين الذي ذهب هذا المذهب فقال: «ليس في ظاهر الآية دلالة علىٰ توجُّهها إلى النبيّ (ص). بل هو خبر محض لم يصرَّح بالمُخْبَر عنه، وفيها ما يدل علىٰ أن المعنيّ بها غيره، لأن العبوس ليس من صفات النبيّ (ص) مع الأعداء المباينين فضلاً عن المؤمنين المسترشدين. ثم الوصف بأنه يتصدّى للأغنياء ويتلهّىٰ عن الفقراء لا

---

(١) التبيان: ١٠/٢٦٨.

(٢) التبيان: ١٠/٢٦٩.

يُشْبه أخلاقه الكريمة.... فالظاهر أن قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ المراد به غيره»[١].

ثم يزيد الشريف المرتضى المسألة إيضاحاً فيقول:

«فإنْ قيل: فلو صحَّ الخبر الأول هل يكون العبوس ذنباً أم لا؟. فالجواب: إن العبوس والانبساط مع الأعمىٰ سواء، إذ لا يشقُّ عليه ذلك، فلا يكون ذنباً، فيجوز أن يكون عاتب الله سبحانه بذلك نبيَّه (ص) ليأخذه بأوفر محاسن الأخلاق؛ وينبِّهه على عظم حال المؤمن المسترشد؛ ويعرِّفه أن تأليف المؤمن ليقيم علىٰ إيمانه أوْلىٰ من تأليف المشرك طمعاً في إيمانه»[٢].

واذن، ليس في هذه الآيات ـ على كل المحتملات ـ ما يزيد على مجرد التوجيه والتنبيه، وليس العتاب ـ هنا ـ إلاّ تعبيراً آخر عن التسديد والارشاد الإلهي لنبيّه الأعظم (ص)، نظير قوله تعالى مخاطباً رسوله أيضاً: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] وأمثاله.

الآية الثامنة: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وليس في الكلام العربي ـ كما ادعى المدعون ـ أصرح من كلمة ﴿ذَنۢبِكَ﴾ في نسبة فعل الذنب للنبيّ (ص).

ومع أن المفسِّرين قد ذكروا عدة وجوه في بيان المراد من لفظ الذنب في هذه الآية فإن أوجه الوجوه في ذلك ما اختاره الشريف

(١) مجمع البيان: ٥/ ٤٣٧.
(٢) مجمع البيان: ٥/ ٤٣٧.

المرتضى رحمه الله ـ وهو مَنْ هو في العلم واللغة والأدب ـ، فقد ذكر[1]: إن المراد من قوله تعالى: ﴿ذَنۢبِكَ﴾ هو ذنب قومك معك، وعلَّل ذلك بأن كلمة «الذنب» مصدر، ومعروف في علم النحو أن المصدر قد يضاف إلى الفاعل كما نقول: أعجبني سلوكُك أو أدبك أو فعلك؛ فنضيف المصدرَ إلى فاعله. وقد يضاف إلى المفعول كما نقول: ساءني مرضُك أو حبسُك؛ فنُضيفه إلى مَنْ وقع عليه المرض أو الحبس وهو المفعول.

ولفظة «ذنبك» هنا في الآية من إضافة المصدر إلى المفعول، ويُراد به الذنب الذي وقع على النبيّ (ص) من قومه المشركين؛ من شتم واستهزاء وتكذيب وأذى وحرب. بل لا يلتئم سياق الآيات إلاّ إذا فسَّرنا الجملة على هذا النحو، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١ ـ ٢]، فقد جاء الغفران مترتِّباً على الفتح، ولم يكن في يوم نزول الآيات فتح، لأنها نزلت بعد صلح الحديبية، وقد سمّى الله تعالى ذلك الصلح فتحاً لأنه كان الطريقَ إلى فتح مكة والممهِّدَ له، وإن المعنى الكامل لهذه الآيات؛ إذا صغناها بلغة جلية الدلالة واضحة الألفاظ لأفهامنا الحاضرة؛ يكون كما يأتي:

إنّا فتحنا لك بهذا الصلح فتحاً مبيناً يهيىء لك أمرَ دخولِ مكة، وسيغفر لأجلك الله ما تقدَّم من ذنبِ قومك نحوك وما تأخَّرِ منه بعد هذا الصلح إلى أن يتحقق الفتحُ ويدخلوا في دين الله، وبذلك يتمُّ الله نعمتَه عليك بالفتح والنصر وإسلام قومك المعاندين.

وإذا كان «الذنب» هو الذنب الذي فعله النبيّ نفسه كما تخيَّل بعض السطحيين فما علاقة ذلك بالفتح؟ ولماذا يترتب الغفران على هذا الفتح

---

(١) تنزيه الأنبياء: ١١٧.

المأمول، بل لا نجد لهذا الترتب معنى إلاّ إذا كان للفتح ارتباط بغفران ذنب اولئك الذين أساؤوا للنبيّ ممن ستُفْتَح بلادُهم للجيش النبوّي وينهار كيانهم الجاهلي، فيدخلون في دين الله أفواجاً.

الآية التاسعة: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

والضَّلال في هذه الآية خلاف العصمة قطعاً كما تخيَّل بعض المتخيلين.

والحقيقة إن الضلال في اللغة هو الذهاب والانصراف. وكان النبيّ ـ كما نعلم ـ لا يعرف كيف يعبد الله؛ وكيف يقوم بواجب التقرب إليه، أي أنه كان منصرفاً عن العبادة بمعناها الخاص، حتى هداه الله إليها بإنزال رسالة الإسلام عليه، وهذه الآية جزء من سلسلة آيات عدَّد الله تعالى فيها نعمه على النبيّ (ص) وعناياته المتلاحقة به: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨] فذكر عزَّ وجلَّ أنه قيَّض لمحمدٍ اليتيم مَنْ آواه وربّاه، وهيّأ له وهو الفقير مَنْ حباه وأغناه، ثم هداه إلى العبادة والإسلام بعد أن كان ضالاً عن ذلك أي تائهاً منصرفاً لا يعرفه ولا يهتدي إليه.

الآية العاشرة: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ٢].

وما الوزر ـ في النظرة السطحية الساذجة ـ إلاّ الذنب وارتكاب المعصية.

والحقيقة أن الوزر في اللغة هو الثقل، وإنّما سميت الذنوب أوزاراً لأنها تثقل حاملها وتجهده، ويكون ـ في ضوء ذلك ـ كلُّ ما يثقل الإنسانَ ويهمّه ويجهده وزراً وثقلاً؛ تشبيهاً له بالحمل الثقيل المجهد، كما شُبِّه به الذنب فسُمِّي وزراً أيضاً.

وكان في مقدمة ما يثقل النبيَّ ويجهده؛ ويثير همَّه وألَمه؛ هو ما

كان عليه قومُه من شركٍ وضلالٍ وإعراضٍ عن الدعوة؛ وعدم إذعانٍ للرسالة؛ وتمردٍ على الدين الذي أُرسِل به، وما كان عليه هو والقلّة المؤمنة المستضعفة من تحمل ألوان الأذى والتعذيب والمطاردة والتنكيل؛ ومن عدم القدرة على صدِّ شرور المشركين وعدوان المعتدين.

وهذا هو «الوزر» الذي عنته الآية الكريمة؛ أي الهم الثقيل الذي كان ينقض ظهر النبيّ ألماً وحزناً وتأثراً.

ولعل من أوضح الشواهد على كون هذا المعنى هو المقصود بالآية المذكورة تعقُّب ذلك بقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٤ ـ ٥]، إذ لا يلتئم رفعُ الذكر وحصولُ اليسر بعد العسر إلاّ مع كون المراد بالوزر هو الهمّ الثقيل الذي كان يعاني منه النبيّ ما يعاني؛ بسبب إعراض قومه عن الهدى والإسلام والصراط المستقيم.

الكتابة والقراءة

من المسائل المتصلة بصفات الكمال الإنساني وخصال الامتياز والتفوُّق أنْ يوصف الرجل بكونه يقرأ ويكتب، وتلك فضيلة من الفضائل التي يصح أن يتنافس فيها المتنافسون؛ وخاصة في ذلك العهد الذي كان يغلب عليه الجهل وتشيع فيه الأمّيَّة.

ولكنَّ كثيراً من الباحثين والمفكرين المسلمين قد نفوا معرفة القراءة والكتابة عن النبيّ؛ وعدُّوا تلك الأميَّة من معجزاته ومناقبه البارزة، وكان دليلهم الأكبر على ذلك ما ورد في القرآن الكريم مكرَّراً من وصفه بالأُمّيّ، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ وقوله عزَّ من قائل: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٧ ـ ١٥٨].

وقال المفسِّرون في بيان ذلك:

«قال الزجّاج: الأُميُّ: الذي هو على صفة أُمَّة العرب، قال (ص): «إنّا أُمَّة أُمّيَّة لا نكتب ولا نحسب»، فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون، والنبيّ (ص) كان كذلك، فلهذا السبب وُصِف بكونه أُمّيّاً»[1].

---

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ٢٣، وتقدم منه ذلك فيه: ٣/ ١٣٩. وورد هذا المعنى أيضاً في تفسير القرطبي: ٢/ ٥ و٧/ ٢٩٨.

وروى آخرون: أن المراد بالأمي هنا نسبة النبيّ إلى مدينته مكة التي تسمّى أيضاً: أمَّ القرى[1]، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَـٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩].

وقال اللغويون في شرح معنى «الأُمّيّ» و«الأُمِّيِّين» في القرآن الكريم:

«الأُمّيُّ: الذي لا يكتب، قال الزجّاج: الأُميُّ: الذي على خِلْقَة الأُمَّة؛ لم يتعلَّم الكتاب؛ فهو على جِبِلَّته. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، قال أبو إسحاق: معنى الأُمّيّ: المنسوب إلى ما عليه جَبَلَتْه أمُّه أي لا يكتب، فهو في أنه لا يكتب أُمّيٌّ، لأن الكتابة هي مُكتَسَبة؛ فكأنه نُسب إلى ما يُولَدُ عليه أي على ما وَلَدَتْه أُمُّه عليه.. وفي الحديث: «إنّا أُمَّة أُمّيَّة لا نكتب ولا نحسب» أراد أنهم على أصل ولادة أمِّهم لم يتعلَّموا الكتابة والحساب؛ فهم على جِبِلَّتهم الأُولى، وفي الحديث: «بُعِثْتُ إلى أُمَّةٍ اميَّة» قيل للعرب: الأميُّون؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة، ومنه قوله: ﴿بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

«وقيل لسيدنا محمد رسول الله (ص) الأُمّيُّ؛ لأن أُمَّة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب، وبَعَثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الخلَّة إحدى آياته المعجزة، لأنه (ص) تلا عليهم

(١) مجمع البيان: ٢/ ٤٨٧ وتفسير القرطبي: ٧/ ٢٩٩.

كتاب الله منظوماً؛ تارة بعد أخرى؛ بالنَّظْم الذي أنزِل عليه؛ فلم يغيِّره ولم يبدِّل ألفاظَه»[١].

⊛ ⊛ ⊛

ومهما يكن من أمر؛ فمن المسلَّم به والمتَّفَق عليه أن النبيّ ـ وقد نشأ في هذه الأمة الأُميَّة التي يندر بين أبنائها مَنْ يعرف القراءة والكتابة ـ كان قبل البعثة أميّاً كسائر أفراد قومه، والقرآن الكريم صريح في ذلك، فقد قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، كما يدلُّ على ذلك قوله عزَّ وجل: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، إذ أن جُملتَي ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ و﴿تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ جليَّتا الدلالة على أن محمداً باعتراف أعدائه، لم يكن يعرف الكتابة قبل نزول القرآن، ولذلك اتَّهموه بكونه قد طلب من غيره أن يكتب له ما جاء في أسْطار[٢] الأولين وكُتُبهم؛ وأن يُمْليَ عليه الكاتبُ ما كتب ـ أي يقرأه عليه ـ لأنه لا يحسن القراءة أيضاً.

وقال الشيخ الطوس في تفسير آية سورة العنكبوت:

«بَيَّن تعالى أنه لم يكتب، لأنه لو كَتَبَ لشكَّ المبطلون في القرآن وقالوا: هو قرأ الكُتُبَ؛ أو هو يصنِّفه ويضمُّ شيئاً إلى شيء في حالٍ بعد

---

(١) لسان العرب: تركيب أمم.

(٢) أسطار: جمع سَطْر، وجمع أسطار أساطير، أي ان «أساطير» هنا في الآية جمع الجمع وليست جمع اسطورة كما توهم كثيرون، ومن نظائر أساطير في كونها جمعَ الجمع: أنابيب جمع أنياب؛ وأبابيت جمع أبيات؛ وأيامين جمع أيمان؛ وأظافير جمع أظافر؛ وأخادير جمع أخدار؛ وأعاصير جمع أعصار؛ وأقاويه جمع أفواه، تراجع هذه التراكيب في التهذيب ولسان العرب.

حال، فإذا لم يحسن الكتابة لم تسبق إليه الظنَّة»[١].

وقال الفخر الرازي في تفسير الآية نفسها:

المراد أن «هذا القرآن ممَّن لم يَكتُبْ ولم يقرأ عينُ المعجزة؛ فيُعْرفَ كونه مُنْزَلاً، وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ فيه معنىً لطيف؛ وهو أن النبيّ إذا كان قارئاً كاتباً.. يكون للمبطل وجه ارتيابٍ، وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه»[٢].

۞ ۞ ۞

ثم وقع الخلاف وتعدَّد القول في حال النبيّ بعد البعثة، فهل قرأ وكتب بعد ذلك أو بقيت الأميَّة صفةً ثابتة له ـ (ص) ـ طيلة حياته؟؟

إنَّ آية سورة العنكبوت قد نفت عن النبيّ هذين الوصفين قبل البعثة، وهو صريحُ معنى قولِهِ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي قبل نزول القرآن، ولكنها لم تتحدث عنهما بعدها فلم تنفِ ولم تثبت شيئاً من ذلك بواضح الكلام وصريح القول.

وذهب الفخر الرازي إلى بقائه ـ (ص) ـ أميّاً مدى عمره الشريف، وعدَّ ذلك من جملة معجزاته، وقال:

«وبيانه من وجوه:

«**الأول**: أنه (ص) كان يقرأ عليهم كتابَ الله منظوماً مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظِه ولا تغيير كلماته، والخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد وأن يزيد فيها وأن ينقص... فكان ذلك من المعجزات.

---

(١) التبيان: ٨/ ٢١٦.

(٢) تفسير الرازي: ٢٥/ ٧٧.

«**والثاني**: أنه لو كان يحسن الخطَّ والقراءة لصار متَّهماً في أنه ربما طالع كُتُبَ الأوَّلين؛ فحصَّل هذه العلوم من تلك المطالعة، فلمّا أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلُّمٍ ولا مطالعة؛ كان ذلك من المعجزات»[١].

ثم قال بعد صفحات:

من «المعجزات التي ظهرت في ذاته المباركة.. أنه كان رجلاً أميّاً لم يتعلَّم من أستاذ؛ ولم يطالع كتاباً؛ ولم يتفق له مجالسةُ أحدٍ من العلماء؛ لأنه ما كانت مكةُ بلدةَ العلماء. وما غاب رسولُ الله (ص) عن مكة غيبةً طويلة يمكن أن يقال إنَّه في مدَّة تلك الغيبة تعلَّم العلوم الكثيرة.. فكان ظهورُ هذه العلوم العظيمة عليه، مع أنه كان رجلاً أمّيّاً لم يلقَ أستاذاً ولم يطالع كتاباً؛ من أعظم المعجزات»[٢].

وأخرج الذهبي بسنده عن عون بن عبد الله بن عتبة عن أبيه قال:

«ما مات النبيّ (ص) حتى قرأ وكتب».

ثم علَّق على كلام ابن عتبة فقال:

«لم يَرِدْ أنه (ص) كتب شيئاً إلا ما في صحيح البخاري من أنه يوم صلح الحديبية كتب اسمَه(محمد بن عبد الله)... وما خرج عن كونه أميّاً بكتابة اسمه الكريم، فجماعةٌ من الملوك ما علموا من الكتابة سوى مجرد العلامة، وما عدَّهم الناسُ بذلك كاتبين، بل هم أميون، فلا عبرة بالنادر.. والله تعالى فمن حكمته لم يُلْهِمْ نبيَّه تعلُّمَ الكتابة ولا قراءة

(١) تفسير الرازي: ١٥/ ٢٣.
(٢) تفسير الرازي: ١٥/ ٢٩.

الكتب حَسْماً لمادة المبطلين.. ثم ما المانع من تعلُّم النبيِّ (ص) كتابةَ اسمِه واسم أبيه مع فرط ذكائه وقوة فهمه... ثم هذا خاتمه في يده ونقشه «محمد رسول الله»، فلا يظن عاقل أنه ـ (ص) ـ ما تعقَّل ذلك، فهذا كله يقتضي أنه عرف كتابة اسمه واسم أبيه»[1].

وقال في موضع آخر من كتابه:

«يجوز على النبيّ (ص) أن يكتب اسمه ليس إلاّ؛ ولا يخرج بذلك عن كونه أميّاً.. وقد كان (ص) سيد الأذكياء، ويبعد في العادة أنَّ الذكيَّ يُمْلي الوحيَ وكُتُبَ الملوك وغيرَ ذلك على كُتّابه؛ ويرى اسمَه الشريف في خاتمه؛ ولا يعرف هيئةَ ذلك.. وبعضُ العلماء عَدَّ ما كتبه يوم الحديبية من معجزاته؛ لكونه لا يعرف الكتابة وكَتَبَ. فإنْ قيل: لا يجوز عليه أن يكتب؛ فلو كتب لارتاب مبطل ولقال: كان يُحْسِن الخطَّ ونَظَرَ في كتب الأوَّلين، قلنا: ما كتب خطّاً كثيراً حتى يرتاب به المبطلون، بل قد يقال: لو قال مع طول مدة كتابة الكُتّاب بين يديه: لا أعرف أن أكتب اسمي الذي في خاتمي؛ لارتاب المبطلون أيضاً ولقالوا: هو غاية في الذكاء فكيف لا يعرف ذلك؟ بل عَرَفَه وقال لا أعرف، فكان يكون ارتيابهم أكثر وأبلغ في إنكاره»[2].

وكان المفسِّر القرطبي قد جزم هو الآخر بأُميَّة النبيّ طيلة حياته وقال:

«الصحيح في الباب أنه ما كتب ولا حرفاً واحداً، وإنما أَمَرَ مَنْ يكتب، وكذلك ما قرأ ولا تهجّى»، وقال: «وبكونه امياً في أمةٍ أميةٍ

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٤/ ١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) سير أعلام النبلاء: ١٨/ ٥٤٠ ـ ٥٤١.

قامت الحجة وأُفحِم الحاسدون وانحسمت الشبهة، فكيف يطلق الله تعالى يدَه فيكتب وتكون آيةً، وإنما الآيةُ أن لا يكتب»[١].

۞ ۞ ۞

وهناك من مفكري المسلمين مَنْ ذهب إلى أنه (ص) قد كتب بعد البعثة وقرأ، ويأتي في جملة هؤلاء عددٌ من علماء الأندلس وفي مقدمتهم أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المتوفى سنة ٤٧٤هـ؛ وقد ألَّف رسالة في الموضوع سمّاها (تحقيق المذهب من أن النبيّ (ص) كَتَب)، واستدلَّ على ذلك بقول الشعبي: «ما مات النبيّ (ص) حتى كتب»، وبما رواه أبو كبشة السلولي: «أنه (ص) قرأ صحيفةً لعيينة بن حصن، وأخبر بمعناها»[٢].

ورأى هؤلاء أن هذا لا ينافي كونه امياً قبل ذلك بنص القرآن، «بل رأوه زيادة في معجزاته، واستظهاراً على صدقه وصحة رسالته، وذلك أنه كتب من غير تعلُّمٍ لكتابةٍ ولا تعاطٍ لأسبابها، وإنما أجرى الله تعالى على يده وقلمه حركاتٍ كانت عنها خطوط.. فكان ذلك خارقاً للعادة»[٣].

والغريب في الأمر أن القائلين بأميَّة النبيّ قد نَسَبوا هؤلاء الذاهبين إلى رفع الأمية عنه بعد البعثة إلى الكفر[٤]. وقال القرطبي في استنكار هذا التكفير: «إن المسألة ليست قطعية، بل مستندها ظواهر أخبار آحادٍ صحيحة، غير أن العقل لا يحيلها، وليس في الشريعة قاطع يحيل وقوعها»[٥].

(١) تفسير القرطبي: ١٣/٣٥٣.
(٢) تفسير القرطبي: ١٣/٣٥٢.
(٣) تفسير القرطبي: ١٣/٣٥٢.
(٤) سير أعلام النبلاء: ١٤/١٩٠.
(٥) تفسير القرطبي: ١٣/٣٥٣.

وتحقيق الكلام في المسألة ترجيح القول بأن النبيّ (ص) بعد البعثة قد قرأ وكتب، إذ كانت تلك الأمية ضرورة لا بدَّ منها قبل البعثة؛ لتحقق بذلك معجزته الكبرى بالاتيان بالقرآن؛ ولئلا يكون أي شكٍ أو ارتياب فيما جاء به؛ ولكيلا يقال إنه من صنعه وتأليفه، وهو الذي دلَّتْ عليه آية سورة العنكبوت في النصّ على ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾، وكذلك القول في حديث «إنّا أُمة أميَّة»، إذ ليس فيه ما يدل على استمرار ذلك إلى آخر أيام النبوّة، والكتابة والقراءة كما قال الذهبي: «صفة مدح»[1]، والمفروض في أيِّ نبيّ فضلاً عن سيدهم وخاتمهم الأعظم أن يكون جامعاً لصفات المدح وخصال الكمال.

ونختم الحديث في الموضوع بإيراد زبدة ما كتبه الشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد في بيان رأيه في ذلك فقال:

«إن الله تعالى لمّا جعل نبيَّه (ص) جامعاً لخصال الكمال كلها وخلال المناقب بأسرها، لم تنقصه منزلةٌ بتمامها يصح له الكمال ويجتمع فيه الفضل، والكتابةُ فضيلةٌ مَنْ مُنِحها فَضُل ومَنْ حُرِمَها نقص.

«ومن الدليل على ذلك: أن الله تعالى جعل النبيّ (ص) حاكماً بين الخلق في جميع ما اختلفوا فيه، فلا بد أن يعلِّمه الحكم في ذلك، وقد ثبت أن أمور الخلق قد يتعلَّق أكثرها بالكتابة؛ فتثبت بها الحقوق وتبرأ بها الذِّمم وتقوم بها البيِّنات ويُحْفَظ بها الديون وتحاط بها الأنساب، وأنها فضلٌ يشرف المتحلّي به على العاطل منه. وإذا صحَّ أن الله جلَّ اسمه قد جعل نبيَّه بحيث وصفناه من الحكم والفضل؛ ثبت أنه كان عالماً بالكتابة محسناً لها...».

«وشيء آخر: وهو قول الله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ

(١) سير أعلام النبلاء: ١٤/ ١٩١.

رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، ومحال أن يعلِّمهم الكتابَ وهو لا يحسنه.. ولا معنى لقول مَنْ قال: إن الكتاب هو القرآن خاصَّة. إذ اللفظ عام، العموم لا يُنْصَرَف عنه إلاّ بدليل، لا سيما على قول المعتزلة وأكثر أصحاب الحديث.

«ويدل على ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، فنفى عنه إحسان الكتابة وخَطَّه قبل النبوّة خاصة، فأوجب بذلك إحسانه لها بعد النبوة، ولولا أن ذلك كذلك لما كان لتخصيصه النفي معنى يُعْقَل. ولو كان حاله (ص) في فقد العلم بالكتابة بعد النبوّة كحاله قبلها لوجب ـ إذا أراد نَفْيَ ذلك عنه ـ أن ينفيه بلفظ يفيده.. فيقول له: وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذ ذاك ولا في الحال، أو يقول لستَ تحسن الكتابة ولا تتأتى منك على كل حال. كما أنه لمّا أعدمه قول الشعر ومَنَعَه منه نفاه عنه بلفظٍ يعم الأوقات؛ فقال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩].

«وإذا كان الأمر على ما بيَّنّاه ثبت أنه (ص) كان يحسن الكتابة بعد أنْ نبَّأه الله تعالى على ما وصفناه. وهذا مذهب جماعةٍ من الإمامية؛ ويخالف فيه باقيهم. وسائرُ أهل المذاهب والفِرَق يدفعونه وينكرونه»[(١)].

وبامكاننا أن نضيف إلى ما قاله هذا الشيخ المفيد ـ على جودته وصوابه واستيعابه لجوانب الموضوع ـ: ما ورد في النصوص المأثورة المشهورة من أن النبيّ (ص) لمّا اشتدَّ به مرضُه وأحسَّ بدنوِّ أجله «قال: ائتوني بكتابٍ أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده، قال عمر: إن النبيّ (ص)

(١) أوائل المقالات: ١١١ ـ ١١٣.

غلبه الوجع!! وعندنا كتاب الله حسبنا. فاختلفوا وكثر اللغط، قال: قوموا عني ولا ينبغي عندي التنازع، فخرج ابن عباس يقول: إنّ الرزيّة كلَّ الرزية ما حال بين رسول الله (ص) وبين كتابه»[١].

وفي لفظ مسلم:

«قال رسول الله (ص): ائتوني بالكتف والدَّواة ـ أو: اللَّوح والدواة ـ أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً، فقالوا: إن رسول الله (ص) يهجر»[٢].

وهذا الحديث بصريح ألفاظ الكتابة فيه وبتسمية الكتف أو اللوح والدواة ـ وهما أداتا الكتابة ـ لا يُبْقي تردداً لذي شكّ في كون النبيّ قد كتب وقرأ بعد البعثة.

أمّا اختياره (ص) كُتّاباً للوحي والرسائل وشؤون ادارة الدولة فليس معناه أنه أُمي لا يحسن الكتابة كما قد يُتَوَهَّم، بل إن كل عظماء العالم وذوي المسؤوليات الكبرى فيه لديهم كتّاب يكتبون لهم ما يراد كَتْبُه، مضافاً إلى أن الحكمة المستشرفة للمستقبل؛ والنظرةَ البعيدة المدى؛ يقتضيان أن يقوم بكتابة آيات القرآن الكريم وضبط ألفاظه أكثُر من واحدٍ كي لا يقع الخلاف في آيةٍ أو لفظةٍ منه بعد وفاة النبيّ (ص) وانقطاع وسيلة الاطمئنان عند الشك، ولعل تلك الحكمة نفسها هي التي اقتضت أن يكون أولئك الكتّاب من أنماط شتّى حتى الطُّلقاء مسلمة الفتح، كي يكون الاتفاق في مستقبل الأيام على نصِّ القرآن ثابتاً كل الثبوت ومسلَّماً لدى الجميع.

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٣٩ و٦/ ١١ ـ ١٢ و٩/ ١٣٧ وصحيح مسلم: ٥/ ٧٦ ومسند أحمد ابن حنبل: ١/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥ و٣٣٦.

(٢) صحيح مسلم: ٥/ ٧٦، وقريب من لفظه فيه: ٥/ ٧٥ ومسند أحمد: ١/ ٢٢٢ و٣٥٥.

الهجرة وبناء الدولة

في العام الثالث عشر من البعثة ـ كما هو المشهور بين المؤرخين[1] ـ أَذِنَ الله تعالى لنبيّه بالهجرة إلى المدينة المنورة، ليقيم فيها دعائم دولة الحق، وكان قد سبق هذه الهجرةَ أكثرُ من لقاءٍ في مكة بين النبيِّ (ص) وبعض رجال الأوس والخزرج من أهل يثرب وأطرافها ـ كما أسلفنا ذكره في فصل سابق.

وكان السبب المباشر في توقيت هذه الهجرة ما رواه المؤرخون من أن قريشاً لمّا رأوا «أن رسول الله (ص) قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم مَنَعَة، فحذروا خروجَ رسول الله (ص) إليهم، . . . فاجتمعوا له في دار الندوة ـ وهي دار قُصَيٍّ بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها ـ يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله (ص) حين خافوه»[2].

وكان ممن تحدَّث في هذا الاجتماع أبو جهل بن هشام، فقال:

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٤٠ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٩ وطبقات ابن سعد: ١/ق ١/ ١٥١ و١٥٢ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٨٤.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٢٤ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٧٠.

«أرى أن نأخذ من كل قبيلةٍ فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجلٍ واحد فيقتلوه، فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمُه في القبائل جميعاً؛ فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً».

فاتفق القوم على رجحان هذا المقترح، وتفرقوا على ذلك «وهم مجمعون له»[١].

«فأتى جبريلُ (ع) رسولَ الله (ص) فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنتَ تبيت عليه. فلما كانت عتمةٌ من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه، . . . فلما رأى رسولُ الله (ص) مكانهم قال لعلي بن أبي طالب (ع): نَمْ على فراشي وتَسَجَّ (واتَّشحْ) ببردي هذا الحضرميِّ الأخضر فنم فيه. . .، وكان رسول الله (ص) ينام في برده ذلك إذا نام»[٢].

«وخرج عليهم رسول الله (ص) فأخذ حفنةً من ترابٍ في يَدِه. . ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم. . . ولم يبق منهم رجل إلاّ وقد وضع على رأسه تراباً»[٣].

«ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب»[٤].

وأوحى الله تعالى «في تلك الليلة إلى جبريل وميكائيل: إني قضيتُ على أحدكما بالموت فأيكما يواسي صاحبه؟ فاختار الحياةَ كلاهما،

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/١٢٦ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٧١ ـ ٣٧٢.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/١٢٦ ـ ١٢٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٧٢.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/١٢٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٧٣.
(٤) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٧٣.

فأوحى الله إليهما: هلاّ كنتما كعلي بن أبي طالب (ع)؛ آخيتُ بينه وبين محمد وجعلتُ عمر أحدِهما أكثر من الآخر، فاختار عليٌّ الموتَ وآثر محمداً بالبقاء وقام في مضجعه، اهبطا فاحفظاه من عدوِّه. فهبط جبريل وميكائيل فقعد أحدهما عند رأسه والآخرُ عند رجليه؛ يحرسانه من عدوه.. وجبريل يقول: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب، مَنْ مِثْلُك يباهي الله بك ملائكة سبعِ سماوات»[1].

وظل المشركون ليلهم ذلك يراقبون فراش النبيّ (ص) من شقوق الباب، «فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله (ص)... فلم يبرحوا»[2]، ثم «أتت قريشٌ فراشه فوجدوا علياً»[3]، فقام علي عن الفراش «فلما دنوا منه عرفوه، فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري... فانتهروه... ونجّى الله رسوله من مكرهم»[4].

وروى الطبري:

«إن أبا بكر أتى علياً (ع) فسأله عن نبيّ الله ـ (ص) ـ، فأخبره أنه لحق بالغار من ثورٍ... فخرج أبو بكر مسرعاً فلحق نبيَّ الله (ص) في الطريق، فسمع رسولُ الله (ص) جرسَ أبي بكر... فحسبه من المشركين، فأسرع رسولُ الله (ص) المشيَ،... فخاف أبو بكر أن يشقَّ على رسول الله (ص)، فرفع صوته وتكلَّم فعرفه رسول الله ـ (ص) ـ.... فانطلقا... حتى انتهى إلى الغار»[5].

وجاء في رواية الحافظ ابن كثير:

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٩.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٢٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٧٣.
(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٩.
(٤) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٧٤.
(٥) تاريخ الطبري ـ أيضاً: ٢/ ٣٧٤.

«فجاء أبو بكر وعليٌّ (ع) نائم؛ وأبو بكر يحسب أنه نبيّ الله (ص)، فقال: يا نبيَّ الله، فقال له علي: إن نبيَّ الله قد انطلق نحو بئر ميمونة فأدرِكْه، فانطلق أبو بكر»[١].

و«أقام رسول الله (ص) في الغار ثلاثاً، ومعه أبو بكر، وجعلتْ قريش فيه، حين فقدوه، مائة ناقة لمن يردُّه عليهم»[٢]، و«طلبوا الأثر فلم يقعوا عليه، وأعمى الله عليهم المواضع، فوقفوا على باب الغار قد عشَّشتْ عليه حمامةٌ»[٣]، و«رأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه»[٤].

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ثم بيَّن الله تعالى هذه المعجزة الكبرى لنبيِّه الحبيب فقال في آية أخرى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

❀ ❀ ❀

وقدم رسولُ الله (ص) المدينة المنورة لاثنتي عشرة من شهر ربيع

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٣٣٨.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٣٠.

(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٢٩.

(٤) مسند أحمد: ١/ ٣٤٨. ويراجع ما قاله الخليفة المأمون في فضيلتي المبيت على الفراش والمصاحبة في الغار: العقد الفريد: ٥/ ٩٩.

الأول، وقيل: لليلتين خلتا منه، وقيل: لثمان خلون منه، وقيل: لهلال ربيع الأول[١]. وكان قدومه «قريباً من نصف النهار في الضحى الأعلى»[٢]، فنزل في قباء أوّلاً؛ على كلثوم بن هِدْم أخي بني عمرو بن عوف؛ وعلى سعد بن خيثمة أيضاً[٣]، فمكث أياماً عندهم، وذكر بعضُ المؤرخين: أنه صلّى الجمعة في بني سالم بن عوف ببطن وادٍ لهم ـ وقد اتُّخذ موضع الصلاة هذا بعد ذلك مسجداً ـ، وهي أول جمعةٍ جمَّعها رسول الله (ص) في الإسلام، وخطب (ص) في هذه الجمعة؛ فكانت أول خطبةٍ خطبها بالمدينة[٤].

ثم انتقل من هناك ليحل في المكان الذي اختاره الله له «فركب راحلته وقال: خلوا زمامها، فجعل لا يمرّ بحيّ من أحياء الأنصار إلاّ قالوا له: يا رسول الله؛ انزل بنا فإنك تنزل في العدَّة والكثرة، فيقول: خلوا زمام الراحلة فإنها مأمورة، حتى وقفت على باب أبي أيوب الأنصاري فبركتْ... فنزل بأبي أيوب فأقام عنده أياماً.. وقيل: إن ناقته بركت في موضع المسجد، فنزل، فجاء أبو أيوب فأخذ رحله فمضى به إلى منزله»[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٣٧ و٢٤٠ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٠ وطبقات ابن سعد: ١/ ق ١/ ١٥٧ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٨١ والاستيعاب: ١/ ١٧ والروض الأُنف: ٢/ ٢٤٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٨١ والاستيعاب: ١/ ١٧.

(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٣٨ و١٣٩ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٠ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٨٢.

(٤) تاريخ الطبري: ٢/ ٣٩٤، وقد أورد الطبري نصَّ الخطبة فيما رواه في تاريخه: ٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٦.

(٥) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣٠ ـ ٣١، وهناك تفاصيل أكثر في سيرة ابن هشام: ٢/ ١٣٨ ـ ١٤١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٩٦.

وكان النبيّ (ص) قبل مغادرته مكة قد أمر عليّاً أن يتخلف بعده هناك حتى يؤدّي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، وكان «رسول الله (ص) ليس بمكة أحدٌ عنده شيء يخشى عليه إلاّ وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته»[١].

فأقام عليٌّ بمكة ثلاث ليالٍ وأيّامها حتى أدّى الودائع، ثم قدم بعد ذلك المدينة فنزل مع رسول الله (ص)[٢].

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله (ص) على أثر هجرته زرافات ووحدانا، «فلم يبق بمكة منهم أحدٌ إلاّ مفتون أو محبوس»[٣]، و«نزلوا منازل الأنصار فواسوهم بالديار والأموال»[٤].

وسرعان ما بدأ العمل ببناء مسجد رسول الله (ص) ومسكنه؛ في المكان الذي بركتْ فيه الناقة، وعمل فيه رسولُ الله (ص) كما «عمل فيه المهاجرون والأنصار ودأبوا فيه»[٥] حتى تمَّ إنجازه في أقصر وقت.

ومن طرائف ما يروي الرواة في أخبار بناء المسجد النبوّي: إن عمار بن ياسر خاطب رسول الله (ص) ذات يومٍ وقد أثقلوه باللَّبِنِ: «يا رسول الله؛ قتلوني، يحملون عليَّ ما لا يحملون»، قالت أمُّ سلمة: «فرأيتُ رسول الله (ص) ينفض وفرته بيده ـ وكان رجلاً جعداً ـ وهو

(١) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٢٩.
(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٣٨ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣١ وتاريخ الطبري: ٢/ ٣٨٢.
(٣) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٤٤.
(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٣١.
(٥) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٤١، ويراجع في وصف البناء الأول هذا للمسجد النبوي: طبقات ابن سعد: ١/ ق ٢/ ٢ ـ ٣.

يقول: ويح ابن سمية، ليسوا بالذين يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية».

وارتجز علي بن أبي طالب (ع) يومئذ:

لا يستوي مَنْ يعمر المساجدا ... يدأب فيه قائماً وقاعدا

ومَنْ يُرى عن الغبار حائدا

«فأخذها عمار بن ياسر فجعل يرتجز بها... فلما أكثر ظنَّ رجلٌ من أصحاب رسول الله (ص)[1] أنه إنما يعرِّض به.. فقال: قد سمعتُ ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية، والله إني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك ـ وفي يده عصاً ـ، فغضب رسول الله (ص) ثم قال: ما لهم ولعمار! يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، إن عماراً جلدة ما بين عينيَّ وأنفي»[2].

❀ ❀ ❀

وبعد أن تمَّ بناء المسجد النبوّي المطهَّر في المدينة المنورة؛ بدأ النبيّ (ص) خطواته المتدرجة في سبيل بناء الدولة: وقيام سلطة الحق والعدل وحكومة السماء في الأرض.

وكانت الخطوة الأولى في هذه السبيل هي المؤاخاة بين أبناء الإسلام؛ وتعميق الرابطة بينهم، ليكون المجتمع الجديد قائماً على أسس ثابتة من المحبة والود؛ وعلى قواعد متينة من تراصِّ الصفوف وصفاء القلوب.

---

(١) كان ابن إسحاق قد سمى هذا الرجل، ولكن ابن هشام قد حذف اسمه كتماناً لذلك. وقد سماه شارح السيرة أبو ذر الخشني في شرحه لها، ونُقِل عنه ذلك في هامش سيرة ابن هشام.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/١٤٢ ـ ١٤٣.

وترشدنا النصوص التاريخية إلى أن هذه المؤاخاة كانت ذات اتجاهَيْن: أحدهما مؤاخاة بين بعض المهاجرين وبعض، والثاني مؤاخاة بين المهاجرين والأنصار(١).

ويؤكد خبرَ المؤاخاة بين المهاجرين بعضهم لبعضٍ ما رواه ابن إسحاق: من أن النبيّ (ص) «أخذ بيد علي بن أبي طالب (ع) فقال: هذا أخي، فكان رسول الله (ص) سيدُ المرسلين وإمامُ المتقين ورسولُ ربِّ العالمين؛ الذي ليس له خطير ولا نظير من العباد؛ وعليّ بن أبي طالب (ع) أخَوَيْن. وكان حمزة بن عبد المطلب أسدُ الله وأسدُ رسول (ص) وعَمُّ رسول الله (ص) وزيد بن حارثة مولى رسول الله (ص) أخَوَيْنِ»(٢).

وعلى هذا المنوال تم استيعاب المهاجرين في التآخي فيما بينهم، ثم استيعاب المهاجرين والأنصار كذلك أيضاً.

ثم زاد رسول الله (ص) في تأكيد هذه الأخوة فكتب كتاباً يتضمن أُسس هذا التآخي والتكافل، ونصَّ فيه على موادعة يهود يثرب ومهادنتهم؛ لما كانت لهم من علائق الجوار والتجارة والمصالح المالية مع الأنصار. وكان مما جاء في هذا الكتاب:

«هذا كتابٌ من محمد النبيّ (ص) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومَنْ تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم: أنهم أمة واحدة من دون الناس.. وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً [أي مُثْقَلاً بالدَّين والعيال] بينهم أن يُعْطُوه بالمعروف في فداءٍ أو عقل، وأن لا يحالف مؤمنٌ مولى مؤمنٍ دونه، وإن المؤمنين المتقين على مَنْ بغى منهم أو ابتغى دسيعةَ

(١) طبقات ابن سعد: ١/ ق ٢/ ١.

(٢) سيرة ابن هشام: ٢/ ١٥٠ ـ ١٥١.

ظلمٍ أو إثمٍ أو عدوانٍ أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولدَ أحدِهم... وأن مَنْ تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة،... لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ أو اشتجارٍ يُخاف فسادُه فانَّ مردَّه إلى الله عزَّ وجلّ وإلى محمدٍ رسول الله (ص)»[١].

وعلى هذه القاعدة الصلبة قام البناء؛ وارتفع الصرح؛ وانطلقت المسيرة.

وكانت قد اكتملت للنبيّ (ص) ببركة هذه الهجرة وذلك التآخي أهم المقومات الأساسية المطلوبة لإعلان قيام الدولة، ونعني بها الأركان الكبرى الثلاثة المتمثلة في:

١ ـ الأرض: وهي المدينة المنورة وأطرافها، وما تضمه من زرع وضرع وكلأ وماء.

٢ ـ السكان: وهم المسلمون القاطنون في هذه الأرض؛ بعد أن توحدت كلمتهم والتحمتْ وشائج الأخوة والمودّة بينهم.

٣ ـ الحكومة: وهي حكومة النبوّة التي يخضع لها الجميع ويدينون لها بالطاعة والتقديس.

وكما اكتملت مقوّمات وجود الدولة فقد اكتملت كذلك مقومات انطلاق الحكومة التي تقود المسيرة، وأصبح بمقدورها القيام بواجباتها المنتظرة على أفضل الوجوه.

وكان أبرز تلك المقومات:

أ ـ الدستور: وهو القرآن الكريم الذي جعل اللهَ تعالى مصدر السلطات والتشريع.

---

(١) سيرة ابن هشام: ٢/١٤٧ ـ ١٥٠.

ب ـ التشريع: وهو مجموع التكاليف القرآنية والأوامر النبوّية.

ج ـ القضاء للحسم بين المتنازعين: وقد تمثل ذلك في شخص النبيّ (ص) نفسِه بما يقضي ويحكم بين الناس؛ وفيمن يعيّنه النبيّ (ص) للتصدي لذلك.

د ـ السلطة التنفيذية: وكان على رأسها الرسول (ص) نفسه أيضاً.

ووضع النبيّ (ص) لهذه الدولة الفاضلة كل المتطلبات الدستورية التي تكفل لها حسن أداء العمل وانتظام الإدارة والتنفيذ.

وكان لهذه الحكومة رئيس أعلى هو النبيّ (ص) ذاته، وان شكل الحكم فيها ـ إذا جاز لنا أن نستعمل المصطلحات المعاصرة ـ قريباً جداً مما يسمى اليوم: «النظام الرئاسي».

ووضعت هذه الحكومة ـ تطبيقاً لأحكام شرع الله ـ نظاماً تفصيلياً يشمل كلَّ جوانب الحياة العامة التي ترتبط بحاجات الناس ومصالحهم الماثلة يومذاك، وكان في طليعة تلك الجوانب ما يتعلق منها بمسائل الحرب والسلم؛ وقضايا الإدارة والاقتصاد والاجتماع؛ وشؤون السياسة الخارجية والعلاقات مع الدول القائمة يومذاك.

ويقوم النظام الدفاعي في مجمله، على أربع قواعد كبرى تتدرَّج في التطبيق تبعاً للطوارىء والظروف؛ وتتسلسل في التنفيذ حسب مقتضيات المفاجآت والمستجدات:

أ ـ السلم: وهو حجر الأساس، قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

ب ـ الإعداد للدفاع وحفظ الحرمات، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ج ـ ردُّ العدوان: قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ

اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

د - الصبر على الحرب والاستبسال في الدفاع: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وتمثلت الممارسة الإدارية للحكومة النبوّية في أمثلةٍ كثيرة، منها:

تعيين المهاجر بن أبي أمية أميراً على صنعاء.

وزياد بن لبيد البياضي على حضرموت وصدقاتها.

وعَديّ بن حاتم على صدقات طيىء وأسد.

ومالك بن نويرة اليربوعي على صدقات بني حنظلة.

والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم على صدقات بني سعد.

والعلاء بن الحضرمي على صدقات البحرين.

وإرسال علي بن أبي طالب (ع) إلى أهل نجران بجمع صدقاتهم وأخذ جزيتهم[١].

واستقبال النبيّ (ص) وفود قبائل العرب، ومفاوضة زعمائها، وتحرير الكتب لبعضها بما يضمن لهم حقوقهم وللدولة حقوقها؛ وبما ينظم روابط تلك القبائل والبلدان بحكومة المركز على نحوٍ محدَّدٍ ومتَّفقٍ عليه[٢].

وتمثلت اللَّبنات الأولى للنظام الأقتصادي الجديد، في ذلك المجتمع الذي كان يعيش بين الغنى المفرط والفقر المدقع؛ في الأمثلة الآتية:

---

(١) يراجع في التعيينات الإدارية المذكورة: تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٦٠ وتاريخ الطبري: ١٤٧/٣.

(٢) يراجع في الوفود: سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٠٥ - ٢٤٥ وطبقات ابن سعد: ١/ق ٢/ ٣٨ - ٨٦ وتاريخ الطبري: ٣/ ١١٥- ١٤٦.

أ - تحريم الربا: قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ب - تحريم كنز المال: قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

ج - التأكيد على أن المالك الحقيقي لكل شيء هو الله تعالى، وأن المال إنما هو مال الله، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وأن الناس مستخلفون فيه ومأذونون من قبل المالك بالتصرف والتداول له ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]، بشرط أن يفعلوا في تلك الأموال بما يأمر به المالك ويرضى، وأن يبتعدوا عما ينهاهم عنه ولا يأذن فيه، وأن يدفعوا من ضرائب المال ما أمرهم به وألزمهم بأدائه.

د - التركيز بكل صراحة ووضوح على أن المال وسيلة لقضاء الحاجات المشروعة وتحقيق الرغبات المحلَّلة، وليس غاية في حدِّ ذاته كما يظن المغفَّلون، بل «ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيتَ؛ ولبست فأبليتَ؛ وتصدَّقت فأبقيتَ» كما جاء في الحديث الشريف.

هـ - بيان أهمية العمل والحث المؤكد عليه، لأنه المصدر الأكبر لكل مالٍ وثروة.

وتمثل النظام الاجتماعي في انطلاقته الإسلامية الأولى، في إلغاء كل قيم الجاهلية وفوارقها النسبية والطبقية والعنصرية.

وكان لعنُ أبي لهبٍ في القرآن الكريم وضمُّ سلمان الفارسي إلى أهل البيت واحداً من أمثلة ذلك.

وكان النبيّ (ص) ينادي دوماً في المسلمين موجّهاً ومؤكّداً: إن «الناس في الإسلام سواء، الناس طفّ الصاع لآدم وحواء، لا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي إلا بتقوى الله»، «لا تأتوني بأنسابكم، وأْتُوني بأعمالكم»، «أُوصيكم بمن ملكتْ أيمانُكم؛ فأطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما تلبسون»، «أن المسلم أخو المسلم لا يغشه ولا يخونه ولا يغتابه»[1].

وأولى الإسلامُ المرأةَ مزيداً من العناية والرعاية والاهتمام؛ وعدَّ ذلك جزءاً من عملية بناء المجتمع وتراصّه وتماسكه، بعد أن كانت في الجاهلية ومهانة إلى أفظع الحدود، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ ـ ٩]. فساوى الإسلام بينها وبين الرجل في الإنسانية وفي استحقاق الثواب والعقاب، وحرَّم وأْدَ البنت، وأثبت الأهلية الكاملة لها في الحقوق والواجبات، ومنحها حقَّ الإرث، وحثَّ على تعليمها بل عدَّ طلب العلم فريضة عليها كما هو على الرجل، ونظَّم شؤون الزواج والطلاق وما يتصل بهما ويتفرع عنهما في ضوء قاعدة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقاعدة ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَـٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وتمثلت الممارسة النبوّية للسياسة الخارجية:

بارسال الرسل والسفراء إلى ملوك عصره، وكان «أول رسولٍ بعثه رسول الله (ص) عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي»، و«كتب إليه كتابين»، وقد دعاه في كتابه الأول إلى الإسلام، وكان الكتاب الثاني متعلقاً بالسيدة أم حبيبة التي هاجرت مع زوجها إلى الحبشة فتنصَّر هناك ومات[2].

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٩١ ـ ٩٢.

(٢) طبقات ابن سعد: ١/ ق ٢/ ١٥.

وكان من جملة ذلك أيضاً:

بَعْثُه دحيةَ بن خليفة الكلبيَّ إلى قيصر.

وعبدَ الله بن حذافة السهميَّ إلى كسرى.

وحاطبَ بن أبي بلتعة اللخميَّ إلى المقوقس صاحب الاسكندرية.

وشجاعَ بن وهب الأسدي إلى الحارث الغساني حاكم دمشق.

وسليطَ بن عمرو العامري إلى هَوْذة الحنفي صاحب اليمامة.

كما بعث بعوثاً وكتباً إلى كلّ من:

جيفر وعبد ابني الجلندي في عُمَان.

والمنذر بن ساوى العبدي في البحرين.

وجبلة بن الأيهم ملك غسان.

وذي الكلاع وذي عمرو ومن إليهما من تُبَّع.

ومعدي كرب بن أبرهة من أرض خولان.

وربيعة بن ذي مرحب وقبيلته بحضرموت[١].

واستقبل النبيّ (ص) فيمن استقبل من الوفود القادمة من خارج الحجاز: وفد نصارى نجران؛ «ورئيسُهم أبو حارثة الأُسْقُف؛ ومعه العاقب والسيِّد وعبد المسيح وكُوز وقيس والأيهم، فوردوا على رسول الله (ص)، فلما دخلوا أظهروا الدِّيباج والصُّلُب ودخلوا بهيئةٍ لم يدخل بها أحد، فقال رسول الله (ص) دعوهم. فلقوا رسولَ الله (ص) فدارسوه يومهم... ونزل فيهم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ـ إلى قوله عزَّ من قائل ـ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا

---

(١) يراجع في الرسل والكتب والسفراء: سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥ وتاريخ اليعقوبي: ٢/ ٦١ ـ ٦٦ وطبقات ابن سعد: ١/ ق ٢/ ١٦ ـ ٣٨ وتاريخ الطبري: ٢/ ٦٤٤ ـ ٦٥٧.

وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]، فرضوا بالمباهلة، فلما أصبحوا قال أبو حارثة: انظروا مَنْ جاء معه، وغدا رسولُ الله (ص) آخذاً بيد الحسن والحسين؛ تتبعه فاطمة؛ وعلي بن أبي طالب بين يديه... فقال أبو حارثة: مَنْ هؤلاء معه؟ قالوا: هذا ابن عمه وهذه ابنته وهذان ابناها... فقال: إني أرى رجلاً جريئاً على المباهلة؛ وإني أخاف أن يكون صادقاً... قال أبو حارثة: يا أبا القاسم لا نباهلك ولكنّا نعطيك الجزية. فصالحهم رسول الله (ص).... وكتب لهم» كتاباً في ذلك[1].

❀ ❀ ❀

وفي سنة عشرٍ من الهجرة حجَّ النبيُّ (ص) حجته الكبرى المشهورة التي سمّاها المؤرخون «حجة الوداع».

«وخطب قبل التروية بيومٍ بعد الظهر» و«يوم عرفة حين زالت الشمس» و«قبل الصلاة من الغد يوم منى»، وكانت خطباً وافية جامعة ذكَّر فيها النبيُّ ـ (ص) ـ المسلمين بأهم تعاليم الإسلام وشرائعه وأحكامه[2].

---

(١) النص من تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٦٦ـ ٦٧. ويراجع في إخراج النبيّ (ص) علياً وفاطمة والحسن والحسين للمباهلة: تفسير الطبري: ٣/ ٣٠٠ وتفسير الفخر الرازي: ٨/ ٨٠ ـ ٨٢ وتفسير ابن كثير: ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١. واكتفى الطبري من كل ذلك في تاريخه ٣/ ١٣٩ بالقول: «قدم وفد العاقب والسيد من نجران فكتب لهما رسول الله (ص) كتاب الصلح» ولم يذكر الأسماء، أما ابن كثير في البداية والنهاية: ٥/ ٥٤ فذكر الحسن والحسين وفاطمة ولم يذكر علياً، مع أنه المعنيُّ بـ (أنفسنا) في الآية الكريمة.

(٢) يراجع في حجة الوداع: سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٤٨ ـ ٢٥٣ وطبقات ابن سعد: ٢/ ق ١/ ١٢٤ ـ ١٣٥ وتاريخ الطبري: ٣/ ١٤٨ ـ ١٥٢ والبداية والنهاية: ٥/ ١١٠ ـ ٢٠٦.

وختم خطبه مبلِّغاً ومؤكِّداً فقال:

«ألاَ إني إنما أُمِرْتُ أن اقاتلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله وإني رسول الله، وإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقّ، وحسابهم على الله».

«لا ترجعوا بعدي كفاراً مضلّين يملك بعضكم رقاب بعضٍ. إني قد خلَّفْتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي. ألا هل بلَّغتُ؟ قالوا: نعم، قال: اللهم اشهدْ».

«ثم قال: إنكم مسؤولون، فليبلِّغ الشاهدُ منكم الغائبَ»[١].

وفي أثناء مرجعه من مكة إلى المدينة بعد حجة الوداع نزل (ص) في مكانٍ قريب من الجحفة في موضع يقال له: غدير خم، فخطب هناك خطبة معروفة، وكان ذلك في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وقد عُني الحافظ ابن كثير برواية الحديث المتعلق بهذه الخطبة فكفانا مؤونة البحث والتخريج، قال:

«ونحن نورد عيون الأحاديث في ذلك... وقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ فجمع فيه مجلدين أورد فيهما طرقه وألفاظه.. وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر... ونحن نورد عيون ما رُوِيَ في ذلك».

«قال محمد بن اسحاق في سياق حجة الوداع... لما أقبل عليٌّ من اليمن ليلقى رسول الله (ص) بمكة، تعجل إلى رسول الله واستخلف على جنده الذين معه رجلاً من أصحابه، فعمد ذلك الرجل فكسا كلَّ

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٩٢، ويراجع في طرق «حديث الثقلين: كتاب الله وعترتي»: كتاب «حديث الثقلين» الذي نشرته دار التقريب بالقاهرة.

رجل من القوم حلةً من البزِّ الذي كان مع عليّ، فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم فإذا عليهم الحلل، قال: ويلك ما هذا؟ قال: كسوتُ القوم ليتجملوا به إذا قدموا في الناس، قال: ويلك انزع قبل أن ينتهي به إلى رسول الله (ص)، قال: فانتزع الحلل من الناس فردَّها في البز، قال: وأظهر الجيش شكواه لما صنع بهم... فقام رسول الله (ص) فينا خطيباً... يقول: (أيها الناس لا تشكوا عليّاً، فوالله إنه لأخشن في ذات الله ـ أو في سبيل الله ـ من أن يُشْكى). ورواه الإمام أحمد من حديث محمد بن إسحاق وقال: إنه لأخشن في ذات الله أو في سبل الله».

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن بريدة قال: «غزوتُ مع علّي اليمنَ فرأيتُ منه جفوة، فلما قدمتُ على رسول الله (ص) ذكرتُ علياً فتنقَّصتُه، فرأيتُ وجه رسول الله يتغير فقال: (يا بريدة؛ ألستُ أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم؟، قلتُ: بلى يا رسول الله، قال: مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه). وكذا رواه النسائي... وهذا إسناد جيد قويّ رجاله كلهم ثقات».

قال الحافظ ابن كثير ـ وما زال الكلام له ـ:

«وقد روى النسائي في سننه... عن زيد بن أرقم قال: لما رجع رسول الله (ص) من حجة الوداع ونزل غدير خم؛ أمر بدوحاتٍ فقُمِّمن، ثم قال: (كأني قد دُعيتُ فأجبتُ، إني قد تركتُ فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فانظروا كيف تخلفوني فيهما؛ فإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)، ثم قال: (الله مولاي، وأنا وليّ كل مؤمن)، ثم أخذ بيد عليّ فقال: (مَنْ كنتُ مولاه فهذا وليُّه، اللهمَّ والِ مَنْ والاه وعادِ من عاداه)».

«وقال ابن ماجه... عن البراء بن عازب قال: أقبلنا مع رسول الله (ص) في حجة الوداع التي حجَّ، فنزل في الطريق، فأمر:

الصلاة جامعة، فأخذ بيد عليّ فقال: (ألستُ أوْلى بالمؤمنين من أنفسهم؟) قالوا: بلى، قال: (ألستُ بأوْلى بكل مؤمنٍ من نفسه؟) قالوا: بلى، قال: (فهذا وليُّ مَنْ أنا مولاه، اللهمَّ والِ مَنْ والاه؛ وعادِ من عاداه)[١]، وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر بسنده.

ثم قال ابن كثير:

«وقال الحافظ أبو يعلى الموصليُّ والحسن بن سفيان... عن البراء قال: كنا مع رسول الله (ص) في حجة الوداع، فلما أتينا على غدير خُمّ كُسح لرسول الله (ص) تحت شجرتين، ونودي في الناس: الصلاة جامعة، ودعا رسول الله (ص) علياً وأخذ بيده فأقامه عن يمينه فقال: (ألستُ أوْلى بكل امرىءٍ من نفسه؟) قالوا: بلى، قال: (فإن هذا مَوْلى مَنْ أنا مولاه، اللهمَّ والِ مَنْ والاه وعادِ من عاداه)، فلقيه عمر بن الخطاب فقال: هنيئاً لك؛ أصبحتَ وأمسيتَ مولى كل مؤمن ومؤمنة».

وذكر ابن كثير إن هذا الحديث قد رواه ابن جرير الطبري بأسانيد متعددة، ورواه أحمد بن حنبل والنسائي وشعبة وعبد الله بن أحمد بن حنبل وأبو داود والترمذي وابن ماجه بأسانيد متعددة أيضاً[٢].

وقال الحافظ ابن حجر الهيتمي:

إن حديث الغدير «حديث صحيح لا مرية فيه، وقد أخرجه

---

(١) ووردت تتمة لهذا الدعاء في بعض الروايات التي ذكرها ابن كثير، مثل قوله (ص): «وانصر مَنْ نَصَرَه واخذل من خذله» وقوله: «وأحِبَّ من أحبَّه وابغضْ من أبغضه».

(٢) يراجع تفصيل ما رويناه عن ابن كثير في حديث الغدير: البداية والنهاية: ٥/ ٢٠٨ ـ ٢١٣.

جماعة... وطرقه كثيرة جداً... ولا التفات لمن قدح في صحته؛ ولا لمن ردَّه بأن علياً كان باليمن، لثبوت رجوعه منها وإدراكه الحجَّ مع النبيّ (ص) . وقولُ بعضهم: إن زيادة اللهم والِ مَنْ والاه إلخ موضوعةٌ؛ مردودٌ، فقد ورد ذلك من طرق صحَّح الذهبيُّ كثيراً منها»[1].

ثم قال هذا الحافظ مضيفاً إلى ما تقدَّم:

«ولفظه عند الطبراني وغيره بسندٍ صحيح: أنه (ص) خطب بغدير خم تحت شجرات فقال:

«أيها الناس؛ إنه قد نبَّأني اللطيف الخبير أنه لم يعمّر نبيٌّ إلاّ نصف عمر الذي يليه من قبله، وإني لأظن أني يوشك أن أُدعى فأُجيب، وإني مسؤول وإنكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟».

«قالوا: نشهد أنك قد بلَّغتَ وجهدتَ ونصحتَ فجزاك الله خيراً».

«فقال: أليس تشهدون أنْ لا إله إلّا الله، وأن محمداً عبده ورسوله؛ وأن جنَّتَه حقٌّ؛ وأن ناره حق؛ وأن الموت حق؛ وأن البعث حق بعد الموت؛ وأن الساعة آتية لا ريب فيها؛ وأن الله يبعث مَنْ في القبور؟».

«قالوا: بلى نشهد بذلك، قال: اللهمَّ اشهدْ، ثم قال:

«يا أيها الناس؛ إنَّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أوْلى بهم من أنفسهم، فمن كنتُ مولاه فهذا مولاه ـ يعني علياً ـ. اللهمَّ والِ من والاه، وعاد من عاداه».

«ثم قال: يا أيها الناس؛ إني فرطكم؛ وإنكم واردون عليّ

(١) الصواعق المحرقة: ٢٥.

الحوضَ... وإني سائلكم حين تردون عليَّ عن الثَّقَلَيْنْ فانظروا كيف تخلفوني فيهما: الثقل الأكبر كتاب الله عزَّ وجلّ ـ سببٌ طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا ـ وعترتي أهل بيتي، فإنه قد نبَّأني اللطيف الخبير أنهما لن ينقضيا حتى يردا عليَّ الحوض»[١].



وبعودة النبيّ (ص) إلى المدينة من حجة الوداع؛ نصل إلى ختام الحديث عن الهجرة الشريفة وما ترتَّب عليها من بناء الدولة وقيام حكومة السماء في الأرض؛ ومن سلسلة الانجازات الكبرى والأحداث الضخمة التي شهدتها تلك السنون العشر الزواهر، وقد أتينا فيما سلف عرضه على بيان الأهم الأهم من كل ذلك مع مراعاة الإيجاز والاختصار فيه. أما معارك الإسلام وحروب الدفاع عن المقدسات التي قادها النبيّ (ص) وشارك فيها بنفسه؛ وأشرف على إدارتها بعبقريته الفذة المدعومة بتسديد الله وتأييده ونصره؛ فقد أفردنا لها فصلاً خاصاً بها في آخر هذا الكتاب.

---

(١) الصواعق المحرقة: ٢٥.

فاجعة المرض والوفاة

قدم رسولُ الله (ص) المدينة قافلاً من حجة الوداع، ودخل العامُ الحادي عشر من الهجرة، وبعد أن أقام والمسلمون أياماً للراحة من وعثاء السفر «عقد لأُسامة بن زيد بن حارثة على جلَّة المهاجرين والأنصار، وأمره أن يقصد حيث قُتِل أبوه من أرض الشام. . . وكان في الجيش أبو بكر وعمر. وتكلَّم قومٌ وقالوا: حَدَثُ السنِّ وابن سبع عشرة سنة»[1] وقد «أمَّرَ غلاماً حَدَثاً على جلَّة الماجرين والأنصار»[2].

واستبطأ رسولُ الله (ص) الناسَ في خروجهم مع أسامة، فصعد المنبر «فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل، ثم قال: أيها الناس؛ أنفِذوا بَعْثَ أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً لها»[3].

ولقد كان هذا الإبطاء ظاهرة جديدة لم يجرؤ اولئك المنافقون المتمشدقون بالإسلام على المجاهرة بها قبل اليوم، لِمَا يتجلّى فيها من عناد صريح وتمرد صارخ على أمر رسول الله (ص) وحكمه، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]،

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٩٣ وطبقات ابن سعد: ٢/ ق٢/ ٤١.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٩٩.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠ وطبقات ابن سعد: ٢/ ق ٢/ ٤١.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤]. وقد أثَّر تقاعسُ هؤلاء تأثيراً بالغاً في نفس النبيّ (ص) حتى أنه لم يجد مناصاً من أن يعلن على رؤوس الأشهاد: «جهِّزوا جيش أُسامة ـ أو: أنفذوا بعث أسامة ـ، لعن الله من تخلَّف عنه»(١).

ويبدو أن منشأ هذا التمرد على الأمر النبوّي يعود إلى إحساس اولئك المتقاعسين بأن النبيّ ـ (ص) ـ مريض؛ وإن مرضه ربما كان مميتاً، وخصوصاً بعد قوله ـ (ص) ـ في حجة الوداع وفي غدير خم: «يوشك أن أُدعى فأُجيب».

ويقول ابن إسحاق إلحاقاً بصعود النبيّ (ص) المنبر وتأكيده على إنفاذ جيش أسامة ولعنه المتخلِّفين عنه:

«ثم نزل رسول الله (ص)، وانكمش الناسُ [أي أسرعوا] في جهازهم، واستعزَّ برسول الله (ص) وجعُه، فخرج أسامة وخرج جيشه معه حتى نزلوا الجُرْفَ ـ من المدينة على فرسخ ـ فضرب به عسكره... فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاضٍ في رسول الله (ص)»(٢).

وروى المحدِّثون والمؤرخون إن النبيّ (ص) قال يوماً في مرضه هذا لمن كان قد حضره من أصحابه: «هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده، فقال عمر: إن رسول الله (ص) قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله»، فاختلف الحضور واختصموا، «فمنهم من يقول: قرِّبوا يكتب لكم رسول الله (ص)، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما كثر اللغط والاختلاف وغَمُّوا رسولَ الله (ص) قال: قوموا عني»(٣).

---

(١) الملل والنحل: ١/ ٢٠ وشرح نهج البلاغة: ٦/ ٥٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣٠٠.

(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ ق٢/ ٣٧.

وكانت جملة «غلبه الوجع» هي العبارة الملطّفة التي اختارها الرواة بدلاً من النصّ الأصليّ: «إن رسول الله (ص) يهجر»[١].

وكان ابن عباس ـ كما جاء في الروايات ـ يبكي عندما يذكر ذلك اليوم ويقول: «يوم الخميس وما يوم الخميس»، «إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله (ص) وبين كتابه»[٢].

وقال القاضي عياض معلّقاً وشارحاً حدث يوم الخميس:

«النبيّ (ص) غير معصوم من الأمراض وما يكون من عوارضها من شدة وجعٍ وغَشْيٍ ونحوه مما يطرأ على جسمه، معصوم أن يكون منه من القول أثناء ذلك ما يطعن في معجزته ويؤدي إلى فسادٍ في شريعته؛ من هذيان أو اختلال في كلام، وعلى هذا لا يصح ظاهرُ روايةِ مَنْ روى في الحديث: «هَجَرَ» إذ معناه هذى».

ثم قال بعد كلام طويل مدافعاً ومخرِّجاً:

«ويكون امتناع عمر إمّا إشفاقاً على النبيّ (ص) من تكليفه في تلك الحال إملاءَ الكتاب وأن يدخل عليه مشقة من ذلك»، «وقيل: خشي عمر أن يكتب أموراً يعجزون عنها فيحصلون [أي يقعون] في الحرج بالمخالفة»[٣].

---

(١) صحيح مسلم: ٥/ ٧٦ ومسند أحمد: ١/ ٣٥٥ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ٢/ ٣٦ و٣٧. ويراجع في هذا الخبر ـ بلفظَيْه ـ: صحيح البخاري: ١/ ٣٩ و٦/ ١١ ـ ١٢ و٩/ ١٣٧ وصحيح مسلم: ٥/ ٧٥ و٧٦ ومسند أحمد: ١/ ٢٢٢ و ٣٢٤ـ ٣٢٥ و٣٣٦ و٣٥٥ ودلائل النبوّة: ٧/ ١٧١ و١٨٣ وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣١ ولسان العرب (هجر) ونهاية الأرب: ١٨/ ٣٧٣.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٣٩ وصحيح مسلم: ٥/ ٧٥ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ٢/ ٣٦ و٣٧.

(٣) ورد كلام القاضي بتفصيله في نهاية الأرب: ١٨/ ٣٧٥ ـ ٣٧٧.

ولا أريد أن اعقب بشيء على كلام القاضي المذكور، وإنما أترك ذلك للقارىء الحصيف.

وروى الطبري عن عبد الله بن مسعود أن النبيّ (ص) نعى نفسَه يوماً وعنده جمع من أصحابه، فبادروه بأسئلتهم: متى أجَلُك؟ ومَنْ يغسِّلك؟ وفيم نكفِّنك؟ ومَنْ يصلّي عليك؟ ومن يُدخِلك قبرك؟ فأجابهم على كل ذلك كما تقول الرواية[١] بالتفصيل.

وقد أورد ابن أبي الحديد هذا الرواية أيضاً ثم علَّق عليها فقال:

«قلتُ: العجب لهم كيف لم يقولوا له في تلك الساعة: فمن يلي أمورنا بعدك؟، لأن ولاية الأمر أهمُّ من السؤال عن الدفن وعن كيفية الصلاة عليه. وما أعلم ما أقول في هذا المقام!»[٢].

أقول:

لا وجه لعجب الرجل واستغرابه، بعد أن كانت مسألة ولاية الأمر بعده معلومةً لديهم علم اليقين، ولذلك لم يجدوا في هذه المناسبة ما يقتضي السؤال منه عن ذلك، كيف ولم يفصلهم عن آخر نصّ عليها وعلى تعيين القائم بها في غدير خم أكثر من أسابيع معدودات.

❁ ❁ ❁

وكان المرض يشتد برسول الله (ص) يوماً بعد يوم، وقيل: إن مدة مرضه إلى وفاته كانت أربعة عشر يوماً[٣]، وقال ابن إسحاق: «ابْتُدىء رسولُ الله ـ (ص) ـ بشكوه الذي قبضه الله فيه . . . في ليالٍ بقين من صفر»[٤].

---

(١) ورد نص الرواية في تاريخ الطبري: ٣/ ١٩١ ـ ١٩٢.
(٢) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣٠.
(٣) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٩٣.
(٤) سيرة ابن هشام: ٤/ ٢٩١.

وسرعان ما نزلت النازلة وحلَّت الفاجعة، واختُرم رسولُ الله (ص) في إجماع الروايات حين زاغت الشمس واشتد الضحاء من يوم الإثنين[١]، ولكن الروايات لم تتفق على تعيين يوم الوفاة وشهرها:

فقيل: لليلتين بقيتا من صفر[٢].

وقيل: في أول يوم من شهر ربيع الأول[٣].

وقيل: لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول[٤].

وقيل: لعشرٍ خلون منه[٥].

وقيل: لاثنتي عشرة ليلة خلت منه[٦].

وكنتُ ـ عندما وقفتُ على هذه الأقوال ـ متوقِّفاً من قبول القولين الأول والأخير؛ حتى وقفتُ على تحقيق أبي القاسم السهيلي شارح السيرة في ذلك، فأكَّد عندي التوقف فيهما، قال:

«لا يصح أن يكون توفي (ص) إلاّ في الثاني من الشهر أو الثالث عشر أو الرابع عشر أو الخامس عشر، لإجماع المسلمين على أن وقفة عرفة في حجة الوداع كانت يوم الجمعة ـ وهو التاسع من ذي الحجة ـ،

---

(١) جميع المصادر الآتي ذكرها في تعيين يوم الوفاة.

(٢) تهذيب الطوسي: ٦/ ٢.

(٣) دلائل النبوّة: ٧/ ٢٠١ و٢٣٤ والاستيعاب: ١/ ١٣ و٢٠ والبداية والنهاية: ٥/ ٢٥٥.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ٢/ ٩٣ وطبقات ابن سعد: ٢/ق ٢/ ٥٧ وتاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٠ ودلائل النبوّة: ٧/ ٢٣٤ و٢٣٥ وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣٥ والبداية والنهاية: ٥/ ٢٥٥.

(٥) البداية والنهاية: ٥/ ٢٥٦.

(٦) طبقات ابن سعد: ٢/ ق ٢/ ٥٨ وتاريخ الطبري: ٣/ ٢٠٠ والاستيعاب: ١/ ١٣ و٢٠ ودلائل النبوّة: ٧/ ٢٣٥ والمناقب: ١/ ١٢٢ وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ١٣٥ والبداية والنهاية: ٥/ ٢٥٥.

فدخل ذو الحجة يوم الخميس، فكان المحرّم إمّا الجمعة أو السبت، فإن كان الجمعة فقد كان صفر إما السبت وإما الأحد، فإن كان السبت فقد كان ربيع الأحد أو الإثنين، وكيفما دارت الحال على هذا الحساب فلم يكن الثاني عشر من ربيعٍ يوم الاثنين بوجهٍ. . . وذكر الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنف أنه تُوفيَ الثاني من ربيع الأول، وهذا القول وإن كان خلاف أهل الجمهور فإنه لا يبعد إنْ كانت الثلاثة الأشهر التي قبله كلها من تسعة وعشرين. . . وقد رأيتُ للخوارزمي أنه توفي (ع) في أول يوم من ربيع الأول، وهذا أقرب في القياس مما ذكر الطبري»[١].

وإذا صحَّ أن تكون الوفاة قد حدثت في صفر كما جاء في القول الأول؛ فلعلها كانت ـ في ضوء تحقيق السهيلي المتقدم ـ في التاسع والعشرين من صفر لا الثامن والعشرين منه.

وعلى كل حال؛ فقد وقعت الواقعة؛ ودهت المصيبة؛ ومات رسول الله (ص)، فأصبح المسلمون من وقع النبأ وألم المصاب في أشد حالٍ وأسوئه، وكأنهم من عمق الإحساس بهذا الخطب الجلل سكارى وما هم بسكارى، يلفهم الذهول؛ وتخيِّم عليهم الحيرة؛ ويسيطر عليهم الخوف من شرور العواقب وفتن المستقبل وسوء المنقلب.

وسرعان ما قام فيهم عمر بن الخطاب ـ وهم على تلك الحالة من الوجوم والقلق والاضطراب ـ فصاح فيهم منذراً ومتوعِّداً؛ وقال:

«إن رجالاً من المنافقين يزعمون إن رسول الله (ص) قد توفي. وإن رسول الله (ص) والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن

---

(١) الروض الأُنُف: ٤/ ٢٧٠.

عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات. ووالله ليرجعنَّ رسولُ الله (ص) كما رجع موسى فليقطعنَّ أيديَ رجالٍ وأرجلَهم زعموا أن رسول الله (ص) مات»[١].

ووقعت هذه الكلمات على أسماع المسلمين الحيارى المذهولين وقع الصاعقة، ولم يكن لديهم في مثل تلك الساعة مجال لتحكيم العقل والتأمل فيما يسمعون، بل لم يدر في خلد أحدٍ منهم حينذاك أن يتساءل عن أسباب قطع أيديهم وأرجلهم إذا ما رجع النبيّ (ص) من غيبته ـ كما يقول عمر ـ، وهم لم يرتكبوا ذنباً ولم يفعلوا شيئاً سوى إعلان موت نبيهم اعتماداً على إخبار من كان عنده من أهل بيته بذلك.

وما هي إلا سويعات حتى أقبل أبو بكر ـ وكان قد ترك النبيَّ مريضاً وخرج إلى منزله بالسنح خارج المدينة عند امرأته حبيبة بنت خارجة بن أبي زهير[٢] ـ، فسمع النبأ ورأى حال المسلمين وبلغه ما قال عمر في ذلك، فوقف خطيباً في الناس فقال:

«أيها الناس، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ ـ إلى آخر الآية [آل عمران: ١٤٤].

«قال أبو هريرة: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعتُ أبا بكر تلاها فعَقِرْتُ [أي دهشت] حتى وقعتُ إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفتُ أن رسول الله (ص) قد مات»[٣].

ولستُ هنا بصدد التعليق على قولة عمر وجوابِ أبي بكر، مع أن

(١) سيرة ابن هشام: ٤/٣٠٥.

(٢) دلائل النبوّة: ٧/٢٠٠.

(٣) سيرة ابن هشام: ٤/٣٠٥ ـ ٣٠٦.

للتعليق على ذلك مجالاً واسعاً جداً، ويقيني أن أبا حفص كان أذكى من أن يشك بموت النبيّ ـ(ص) ـ، وهو القائل قبل أيام بأنه قد غلبه الوجع، ولكن الموقف كان يفرض عليه أن يطلق هذه المتفجِّرة الملهاة ما دام صاحبه غائباً، ثم يقوم أبو بكر ـ عندما يعود ـ بابطال مفعولها وإزالة أصدائها من النفوس والمشاعر.

وتُرِك جثمانُ رسول الله (ص) مسجّى في بيته ثلاثاً؛ لاشتغال القوم عنه بأمر البيعة[١]. ثم جاء أبو بكر بعد ثلاث ـ وهو خليفة ـ فكشف عن وجهه وقبَّل بين عينيه ثم قال: بأبي أنت وأمي؛ طبتَ حيّاً وطبتَ ميتاً[٢].

وجاء في رواية ابن كثير: «إن رسول الله (ص) توفي يوم الاثنين وذلك ضحىً، فاشتغل الناس ببيعة أبي بكر... بقية يوم الاثنين وصبيحة الثلاثاء... ودفنوه ليلة الأربعاء»[٣].

وقد رفض ابنُ أبي الحديد المعتزلي قبولَ قولِ من قال: «إن أبا بكر أقبل... من مسكنه بالسنح... فدخل المسجد... ودخل على عائشة، فتيمَّم رسولَ الله (ص) وهو مُغَشّى ببرد حبرة... وقال: بأبي أنت وأُمي يا رسول الله... أمّا الموتة التي كُتبت عليك فقدمِتَّها...»[٤] أو ما كان بهذا المضمون، وقال معلِّقاً على ذلك:

«والصحيح إن دخول أبي بكر إليه وكشفَه عن وجهه وقولَه ما قال إنما كان بعد الفراغ من البيعة، وأنهم كانوا مشتغلين بها»[٥].

---

(١) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣١٢ وتاريخ الطبري: ٣/ ٢١١ وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣٥.

(٢) تاريخ الطبري: ٣/ ٢٠١ وشرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣٥ ـ ٣٦.

(٣) البداية والنهاية: ٦/ ٣٠١.

(٤) دلائل النبوّة: ٧/ ٢١٥.

(٥) شرح نهج البلاغة: ١٣/ ٣٧.

ولعل خير ما نختم به هذا الفصل فيغنينا عن كثير من البيان والتعليق والتفصيل؛ أن نقتبس من بحث الكاتب الأردني المعاصر أحمد حسين يعقوب المحامي فِقَراً مما تحدَّث به عن الأحداث الثلاثة الكبرى التي حلَّت بالمسلمين أيام مرض النبيّ (ص) ووفاته؛ فكان لها ما كان من الآثار العميقة الواسعة والنتائج البعيدة المدى على امتداد العصور، قال:

«هنالك ثلاثة عوامل؛ أو إن شئتَ فقل ثلاثة أحداث هزَّت النظام السياسي الإسلامي هزاً عنيفاً:

«**الحدث الأول**: يوم الرزية ـ كما يسميه ابن عباس ـ؛ يوم مُنِع الرسول من كتابة كتابه... وباختصار شديد: حالوا بين الرسول (ص) وبين كتابة كتابه الذي يؤمِّن فيه الأمةَ ضد الضلالة، وواجهوه بهذه الكلمة الجارحة: بأن الرسول قد هجر».

«وتعتبر هذه الحادثة... أول طريق من طرق الانحراف عن هذا النظام، وهي حادثة لا يمكن الاعتذار منها. وكيف نوفِّق بين منع الرسول (ص) من كتابة وصيته بحجة أن المرض قد اشتدَّ به، وبين السماح لأبي بكر بكتابة وصيته مع أن المرض قد اشتد به أكثر من اشتداد المرض برسول الله (ص)...».

«ونفس الحال مع عمر... وبالرغم من هذا الوجع الشديد الذي كان يعانيه فقد أوصى بوصيته ورتَّب أمر الشورى واطمأن أن عثمان خليفته... ونُفِّذت بدقةٍ وصيته... بالرغم من اشتداد الوجع به...».

«**الحدث الثاني**: مواجهة العترة الطاهرة وعزلها وإلغاء دورها ومحاولة تفتيتها... وبالرغم من تلك النصوص الصريحة [وقد أوردها الباحث] فقد بذلوا المستحيل لإبعاد أهل البيت... وجرت تلك الفظائع...».

الحدث الثالث: الفلتة.

وبعد أن شرح الكاتب بيعة السقيفة وطريقة البيعة قال: «هكذا تمت... في غياب كلِّ قريش، إذ لم يحضر الاجتماع من قريش إلا أبو بكر ـ وهو من بني تيم ـ وعمر ـ وهو من بني عَديّ ـ وأبو عبيدة ـ وهو من بني الحارث ـ، وهذه البطون الثلاثة ليست من عشيرة الرسول الأقربين».

«وتمت بيعة أبي بكر في غياب المهاجرين كلهم، فلم يحضر من المهاجرين أحد سوى الثلاثة... وفي غياب العترة الطاهرة وهي ناصية قريش بنصِّ الشرع... ولعمري لقد تركت تلك الفلتةُ آثارَها على التاريخ الإسلامي كلِّه؛ والنظام السياسي الإسلامي أيضاً»[1].

وصدق ربُّ العزَّة إذ قال وهو أصدق القائلين:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

---

(١) النظام السياسي في الإسلام: ١١٨ـ ١٢٩.

المعارك الكبرى
في العهد النبوي

معركة بدرٍ الكبرى

أدركت جماعة المشركين في مكة وفي مقدمتهم قريش أن محمداً ـ (ص) ـ بهجرته إلى المدينة واستقراره فيها؛ قد أفلت من قبضتهم؛ وخرج عن دائرة سيطرتهم وبطشهم، بل أصبح بإمكانه أن يضع قواعد دولته؛ ويقيم دعائم سلطته؛ وينشىء النظام الأمثل للحياة السعيدة التي يحكمها شرع الله الخالد؛ ويحدِّد معالَم طريقِها القرآنُ الكريم، بلا خوفٍ من أذى طواغيتهم؛ وبدون حذر من شرور أنذالهم وسفلتهم.

ولما كان الإسلام في الأصل الأول من أصول نظامه الدفاعي داعياً إلى السلم والموادعة وعدم الاعتداء على الآخرين، لم يكن لدى المشركين في حقيقة الأمر ما يخشونه من دولة محمد، ولكن حقدهم على هذا الدين وضغنهم على نبيّه الأمين، وقد فاق جميع ما عرفته الجاهلية من الأحقاد القبلية والضغائن العشائرية؛ كان يغلي في صدورهم غليان المرجل؛ فلم يترك لهم مجالاً لاستقرار أو شعوراً باطمئنان.

وكان ردُّ الفعل الأول لهؤلاء الكفرة على نجاة النبيّ (ص) من مؤامرتهم الدنيئة؛ وهجرته إلى أرض أخرى لا تخضعُ لسلطانهم، مطاردة من بقي بين ظهرانيهم من المسلمين المستضعفين؛ ومصادرة أموال من كان له مالٌ بمكة من المهاجرين.

ولما علم النبيّ (ص) بأفاعيل قريش ضد اولئك المسلمين؛ وضدّ الأموال والمخلّفات هناك، رأى أن الحرب آتية لا محالة، وأن عليه أن يتهيأ للصدام مع قريش إن سنحت الفرصة وواتت الظروف، ليذيق اولئك الطغاة جزاء فعلهم، ويكيل لهم بالمثل سوء صنيعهم، ويعوّض المسلمين عما اغْتُصِب من أموالهم وانْتُهِب من أملاكهم.

وتمثلت الخطوة أو التجربة الأولى لذلك في وقوع بعض المصادمات والمناوشات بين الطرفين، «فقُتِلتْ قتلى... وأُسِرت اسارى من قريش فيهم بعض بني المغيرة وفيهم ابن كيسان مولاهم... وكانت تلك الوقعة... أوّلَ ما أصاب به بعضهم بعضاً من الحرب، وذلك قبل مخرج أبي سفيان وأصحابه إلى الشام»[1].

ولما انطلقت قوافل التجارة القرشية في ذلك العام كالمعتاد؛ محمَّلة بالأموال الطائلة والأمتعة الثمينة من الشام إلى مكة؛ وعلى رأسها كبير الحاقدين على الإسلام أبو سفيان بن حرب الأموي، وبلغ سمعَ النبيّ (ص) نبأُ هذه المسيرة التجارية الحافلة؛ بادر إلى ندب المسلمين للانقضاض عليها وقال: «هذه عِيْرُ قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله يُنفِلكموها».

فانتدب الناسُ، فخفّ بعضُهم، وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله (ص) يلقى حرباً.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز، يتحسّس الأخبار؛ ويسأل مَنْ لَقِيَ من الرُّكبان حذراً وتخوُّفاً، حتى أصاب خبراً من بعضهم أن محمداً قد استنفر أصحابَه لكَ ولعِيرك. فخشي المفاجأة عند ذلك،

(١) تاريخ الطبري: ٢/ ٤٢١.

واستأجر رسولاً يصل إلى مكة فيُعلِم قريشاً بالأمر ويحثهم على الخروج لحماية أموالهم.

ووصل مبعوث أبي سفيان إلى مكة فصرخ ـ وهو ببطن الوادي ـ واقفاً على بعيره: اللَّطيمة اللَّطيمة؛ أموالكم مع أبي سفيان قد عَرَض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوثَ الغوث.

وتجهَّز الناسُ سراعاً؛ فكانوا بين رجلَين: إما خارجٍ؛ وإمّا باعثٍ مكانه رجلاً، وأوعبت قريش فلم يتخلَّف من أشرافها أحدٌ، إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب تخلَّف وبعث مكانه العاصيَ بن هشام بن المغيرة.

وأراد اميةُ بن خلف التخلُّف أيضاً، فأتاه عقبة بن أبي معيط ـ وهو جالس في المسجد بين ظهرانَيْ قومه ـ بمجمرةٍ يحملها؛ فيها نار وعُودٌ يُتَبخَّر به؛ حتى وضعها بين يديه، ثم قال له: يا أبا عليّ استجمِرْ فإنما أنت من النساء، قال: قبحك الله وقبح ما جئتَ به، ثم تجهز فخرج مع الناس.

وخرجت قريش بقضِّها وقضيضها لانقاذ الأموال ونجدة أبي سفيان.

وكان خروج رسول الله ـ(ص) من المدينة في ليالٍ مضت من شهر رمضان ـ قيل: هي ثمانٍ، وقيل غير ذلك ـ في ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، كان المهاجرون منهم ثلاثة وثمانين رجلاً، وسائرهم من الأنصار منهم واحد وستون رجلاً من الأوس ومائة وسبعون رجلاً من الخزرج. «وضرب (ص) عسكره ببئر أبي عِنَبَة وهي على ميلٍ من المدينة، فعرض أصحابه، وردَّ من استصغر منهم».

وتسلَّم اللواءَ مُصْعَب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، وكان أمام رسول الله (ص) رايتان أُخريانِ: إحداهما مع علي بن أبي طالب ويقال لها العُقَاب ـ، والأخرى مع بعض الأنصار وهو سعد

بن معاذ، أي: إن اللواء الأعظم كان مع مصعب؛ وراية المهاجرين مع عليّ؛ وراية الأنصار مع سعد.

وكان مع النبيّ (ص) في هذه المعركة؛ من الخيل ثلاثة؛ ومن الإبل سبعون يتعاقب على كل بعيرٍ منها راكبان أو ثلاثة.

وسلك النبيّ (ص) الطريق المتَّجه إلى مكة، حتى إذا كان بالمُنصَرَف تَرَك طريقَ مكة بيَسَارٍ؛ وسلك ذات اليمين يريد بَدْراً.

وعندما وصل قريباً من الصفراء بعث رجلَيْنِ إلى بدر يتحسَّسان له الأخبار عن أبي سفيان وقومه. ثم ترك الصفراءَ بيَسارٍ أيضاً وسلك ذات اليمين.

ثم نزل فأتاه الخبر هناك عن قريش بمسيرهم من مكة ليمنعوا عِيرَهم، فعلم النبيّ (ص) أنها الحرب مع قريش كلِّها ومن يحالفها من القبائل، فعزم على جمع أصحابه ليستشيرهم في الأمر.

واجتمع القوم، وعرض النبيّ (ص) المسألة، وطلب أن يشيروا عليه، فأعلن عددٌ من المهاجرين الحاضرين استعدادهم للبذل والفداء والنصرة، وكان أبلغ الجميع المقداد بن عمرو الكندي إذ قال:

يا رسول الله؛ امْضِ لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتِلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق؛ لو سِرْتَ بنا إلى بَرْكِ الغِماد [وهو مكان ناءٍ من أرض اليمن] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال له رسول الله ـ (ص) خيراً، ودعا له به.

ثم طلب النبيّ (ص) المشورة من الحاضرين مرة أخرى، وكان يريد

أن يعرف رأيَ الأنصار لأنهم لمّا بايعوه قالوا له: إذا وصلتَ إلينا فأنت في ذمَّتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا. فكان رسول الله (ص) يتخوَّف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نَصْرَه إلاّ ممن دهمه بالمدينة، وأن ليس له أن يسير بهم إلى عدوّ خارج بلدهم.

فلمّا كرَّر رسولُ الله ـ(ص) طلب المشورة؛ أدرك سعد بن معاذ هدف النبيّ ومراده بذلك، فقال:

والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟.

قال: أجل.

قال سعد: فقد آمنّا بك وصدَّقناك، وشهدنا أنَّ ما جئتَ به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا؛ على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لِمَا أردتَ فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضتَ بنا هذا البحرَ فخُضْتَه لخُضْناه معك ما تخلَّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوَّنا غداً. إنّا لَصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعلَّ الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك. فسِرْ بنا على بركة الله.

فسُرَّ رسول الله (ص) بقول سعدٍ، ونَشَّطه ذلك، ثم قال: «سيروا وأبْشِروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم».

ثم ارتحل رسول الله (ص) حتى نزل قريباً من بدر. فركب هو وبعض أصحابه يستطلع الأمر بنفسه، ثم بعث لمّا أمسى نفراً من أصحابه يلتمسون له خبر قريش؛ فأصابوا إبلاً لهم يستقون عليها الماء ومعها غلامان، فأتوا بهما، واستجوبوهما، فأخبرا بأن قريشاً وراء هذا الكثيب الذي يُرى بالعُدْوة القصوى.

فقال لهما رسولُ الله (ص): «كم القوم»؟.

قالا: كثير.

قال: «ما عِدَّتهم»؟.

قالا: لا ندري.

قال: «كم ينحرون كلَّ يوم»؟.

قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً.

فقال رسولُ الله (ص): «القومُ فيما بين التسعمائة والألف».

ثم قال لهما: «فمَنْ فيهم من أشراف قريش»؟.

قالا: عُتْبة بن ربيعة، وشَيْبة بن ربيعة، وأبو البختريّ بن هشام، وحكيم ابن حِزام، ونوفل بن خويلد، والحارث بن عامر بن نوفل، وطُعَيْمة بن عَدِيّ بن نوفل، والنَّضْر بن الحارث، وزَمَعَة بن الأسود، وأبو جهل بن هشام، وأُميَّة بن خلف، ونُبَيْه ومنبه ابنا الحجّاج، وسهيل بن عمرو، وعمرو بن عبدودّ.

فأقبل رسول الله (ص) على الناس فقال: «هذه مكة قد ألْقَتْ إليكم أفلاذَ أكبادها».

ولمّا علم أبو سفيان بتوجُّه النبيّ (ص) وأصحابه للقائه؛ أخذ بعِيرِه طريق الساحل بعيداً عن الجهة التي يسير فيها المسلمون، فنجا هو وموكبه التجاري الضخم من الضربة الكبرى، وبعث إلى قريش من يخبرهم بنجاة القافلة وسلامتها؛ وطلب منهم العودة إلى مكة، فقال أبو جهل بن هشام: لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً ـ وكان بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم به سوق كلَّ عام ـ فنُقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجُزُرَ، ونُطْعَم الطعام، ونُسْقى الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العربُ وبمسيرِنا وجَمْعِنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها.

وقال الأخنسُ بن شَريق لبني زُهْرَة: يا بني زُهْرة؛ قد نَجّى الله لكم

أموالكم، وخلَّص لكم صاحبكم مَخْرَمة بن نوفل ـ وكان في القافلة ـ، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا بي جُبْنَها وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير منفعة. لا ما يقول هذا؛ يعني أبا جهل، فرجعوا ولم يبق زُهريٌّ واحد.

وسارت قريش حتى نزلوا بالعُدوة القصوى من الوادي، وكانت آبار الماء في العُدْوة الدنيا من بطن الوادي باتجاه المدينة.

وسار النبيّ (ص) بمشورة الحُبَاب بن المُنْذر بن الجَموح، حتى إذا أتى أدنى ماءٍ من القوم نزل عليه، ثم أمر بالآبار الأخرى فأُفْسِد أمرُها، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فمُلِئَ ماءً.

وجاء سعد بن معاذ إلى النبيّ ـ (ص) ـ فقال له: يا نبيَّ الله؛ ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونُعِدُّ عندك ركائبَك، ثم نلقى عدوَّنا، فإنْ أعزَّنا الله وأظهرنا على عدوِّنا كان ذلك ما أحْبَبْنا، وإن كانت الأُخرى جلستَ على ركائبك فلحقتَ بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلَّف عنك أقوام يا نبيَّ الله ما نحن بأشدَّ لك حُبّاً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلَّفوا عنك. يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى عليه رسول الله (ص) خيراً، ودعا له بخير.

ثم بُني لرسول الله (ص) عريش، فكان فيه.

وأقبلت قريش نحو جيش المسلمين، فلمّا رآهم النبيّ (ص) قال:

«اللهمَّ هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفخرها تُحادُّك وتكذِّب رسولك. اللهُّم فنَصْرَك الذي وعدتَني. اللهمَّ أحِنْهم [أي أهْلِكْهم] الغَدَاة».

وأقبل نفر من قريش يريدون أن يردوا حوض المسلمين. فقال رسول الله ـ (ص) ـ: «دعوهم»، فوَرَدوا.

ولمّا استقرت قريش في مواضعها بعثوا مَنْ يحدس لهم عدد أصحاب محمد، فاستجال رسولُهم بفرسه حول العسكر وضَرَب في الوادي هنا وهناك، فأخبر بأنهم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون، وليس لهم كمينٌ أو مَدَد، ثم قال: قد رأيتُ ـ يا معشر قريش ـ البلايا تحمل المنايا؛ نواضحَ يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلاّ سيوفهم، والله ما أرى أن يُقْتَل رجلٌ منهم حتى يَقْتُل رجلاً منكم، فإذ أصابوا منكم أعدادهم فما خيرُ العيش بعد ذلك، فرَوْا رأيكم.

فلمّا سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس؛ وأتى عُتبةَ بن ربيعة فأقنعه بالعودة والرجوع بالناس إلى مكة، فوافق على ذلك وأعلن رأيَه على الملإ صريحاً واضحاً، وبلغ ذلك أبا جهل فثارت ثائرته ورفض الرجوع، ثم تكلَّم مع هذا وذاك من زعماء قريش كلاماً مثيراً للعواطف وغرائز الانتقام؛ فأفسد على الناس الرأيَ الذي دعاهم إليه عتبة.

وتهيأ القوم للحرب، وكانت الوقعة يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان.

وخرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي ـ وكان رجلاً شرساً سيِّىء الخُلُق ـ فقال: أُعاهِد الله لأشربنَّ من حوضهم أو لأهدمنَّه أو لأموتنَّ دونه.

فلمّا خرج؛ خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلمّا التقيا ضربه حمزة فأطَنَّ قَدَمَه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخبُ رجلُه دماً ثم حَبَا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، وأتْبَعَه حمزةُ فضربه حتى قتله في الحوض.

ثم خرج من بعده عتبةُ بن ربيعة وشيبةُ بن ربيعة والوليدُ بن عتبة، ودعوا المسلمين إلى المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار: عوفُ بن الحارث ومعوِّذُ بن الحارث وعبدُ الله بن رواحة.

فقال المشركون: مَنْ أنتم؟.

قالوا: رهطٌ من الأنصار.

قال المشركون: أكفاء كرام، ما لنا بكم من حاجة، إنما نريد قومنا.

ثم نادى مناديهم: يا محمد؛ أخْرِجْ إلينا أكفاءنا من قومنا.

فقال رسولُ الله (ص): «قم يا عُبَيْدَة بن الحارث؛ وقم يا حمزة؛ وقم يا عليّ».

فلمّا قاموا ودَنَوْا من المشركين، قالوا: مَنْ أنتم؟.

فسَمَّوا أنفسَهم.

قالوا: نعم أكفاء كرام.

فبارز عبيدةُ ـ وكان أسَنَّ القوم ـ عتبةَ بن ربيعة، وبارز حمزةُ شيبةَ بن ربيعة، وبارز عليٌّ الوليدَ بن عتبة، فأمّا حمزة فلم يُمْهِل شيبةَ أنْ قَتَلَه، وأما عليٌّ فلم يُمهل الوليدَ أنْ قتله، وأمّا عبيدة وعتبة فاختلفا بينهما ضَرْبَتَيْنْ وكَرَّ حمزةُ وعليٌّ بأسيافهما على عتبة فأجهزا عليه؛ واحتملا عبيدة فحازاه إلى أصحابه.

ثم تزاحف الناسُ ودنا بعضهم من بعض، وأمر رسولُ الله (ص) أصحابه أنْ لا يحملوا حتى يأمرهم وقال: «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنَّبْل».

وكان رسول الله (ص) يكرِّر مناشدة ربِّه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: «اللهُّم إنْ تهلك هذه العصابةُ اليوم لا تُعْبَد».

ثم خرج (ص) إلى الناس فحرَّضهم وقال: «والذي نفس محمدٍ بيده؛ لا يُقاتلهم اليومَ رجلٌ فيُقْتَل صابراً محتسِباً مُقبِلاً غير مُدبِرٍ إلاّ

أدخله الله الجنة». فقال عُمَيْر بن الحُمام أخو بني سلمة ـ وفي يده تمرات يأكلهنَّ ـ: بخ بخ؛ أفما بيني وبين أن أدخل الجنةَ إلاّ أن يقتلني هؤلاء. ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القومَ حتى قُتِل.

ثم إن رسول الله ـ(ص) أخذ حفنةً من الحصباء فاستقبل قريشاً بها، ثم قال: «شاهت الوجوه»، ثم نفحهم بها، وأمر أصحابه بالهجوم وقال لهم: «شدُّوا».

وسرعان ما هُزمت قريش، وقتل الله مَنْ قتل من صناديدهم، وأُسِرَ مَنْ أُسِرَ من أشرافهم.

ولمّا وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسولُ الله (ص) في العريش، وسعدُ بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله ـ(ص) متوشِّح بالسيف في نفرٍ من الأنصار يحرسون رسولَ الله (ص) يخافون عليه كَرَّة العدوِّ. رأى رسولُ الله (ص) في وجه سعد بن معاذ الكراهيةَ لما يصنع الناس، فقال له رسولُ الله ـ(ص) ـ: «والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم»، قال: أجَلْ والله يا رسول الله، كانت أول وقعةٍ أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال.

ورأى أميةُ بن خلف ـ وكان من رؤوس المشركين ـ عبدَ الرحمن ابن عوف فسأله: مَن الرجل المعلم بريشة نعامةٍ في صدره؟، فقال له عبد الرحمن: ذاك حمزة بن عبد المطلب، فقال أمية: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل.

وكمن معاذُ بن عمرو بن الجموح لأبي جهلٍ وقد اختفى في شجرةٍ، ثم قَصَده فلما تمكَّن منه حمل عليه فضربه ضَرْبةً أطنَّتْ قدمَه بنصف ساقه، فضرب عكرمةُ بن أبي جهل معاذاً هذا على عاتقِه فطرح

يدَه فتعلَّقتْ بجلدةٍ من جنبه، فلما آذَتْه يدُه هذه وضع عليها قدمَه ثم تمطّى بها عليها حتى قطعها. ثم جاء عبدُ الله بن مسعود فوجد أبا جهلٍ بآخر رمق فقتله.

❀ ❀ ❀

وأسفرت المعركة عن مقتل خمسين أو سبعين رجلاً من المشركين؛ وأسْرِ سبعين منهم؛ واستشهاد أربعة عشر رجلاً من المسلمين: ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

وتقول الاحصائيات التفصيلية كما رواها المؤرخون:

إن علياً (ع) قتل: العاص بن سعيد بن العاص، والنَّضْر بن الحارث، وعُقْبة بن أبي مُعَيط (وقيل: إن قاتل عقبة هو عاصم بن ثابت)، والوليد بن عُتْبة، وعامر بن عبد الله، وطعيمة بن عدي ـ على قولٍ ـ، ونوفل بن خويلد، وعمير بن عثمان بن عمرو، وأبا مسافع الأشعري، ومسعود بن السائب، والعاص بن مُنَبِّه بن الحجاج، وأبا العاص بن أبي أمية بن المغيرة، وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة، وعبد الله بن المنذر بن أبي رفاعة، وحاجب بن قيس بن عدي السهمي، وأوس بن مِعْيَر بن لوذان، ومعاوية بن عامر. وشارك في قتل حنظلة بن أبي سفيان، وعتبة بن ربيعة، وزَمَعَة بن الأسود، وعقيل بن الأسود.

وقتل حمزةُ بن عبد المطلب: شيبةَ بن ربيعة، وطعيمة بن عدي ـ على قولٍ ـ، وأبا قيس بن الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد الأسد المخزومي. وشارك في قتل حنظلة بن أبي سفيان، وعتبة بن ربيعة، وزمعة بن الأسود، وعقيل بن الأسود.

وقتل المقدادُ بن عمرو: زيدَ بن مليص ـ وقيل: قتله بلال بن رباح.

وزيدُ بن حارثة: نُبَيْه بن الحجاج بن عامر. واشترك في قتل حنظلة ابن أبي سفيان.

وسعدُ بن الربيع: رفاعةَ بن أبي رفاعة المخزومي.

وصعيبُ بن سنان: عثمانَ بن مالك.

والمُجَذَّرُ البلويّ: أبا البختري العاصَ بن هشام.

وعمّارُ بن ياسر: عامرَ بن الحضرمي، والحارثَ بن زَمَعَة.

والنعمانُ بن عصر حليفُ الأوس: الحارثَ بن الحضرمي.

وسالمٌ مولى أبي حذيفة: عميرَ بن أبي عمير، وابْنَه.

والزبيرُ بن العوّام: عبيدةَ بن سعيد بن العاص بن أمية.

وخبيبُ بن اساف: الحارثَ بن عامر بن نوفل.

❀ ❀ ❀

وأمر رسولُ الله (ص) بعد أن انجلى غبار المعركة ورفرفت راية الحق المنصور؛ أن يُطرَح قتلى المشركين في القليب، فطُرِحوا فيه إلا ما كان من أُمية بن خلف؛ فإنه انتفخ في درعه فملأها، فذهبوا ليحرّكوه فتاثر لحمُه، فجعلوه مكانه وألقوا عليه ما غيَّبه من التراب والحجارة.

ولّما أُخِذ عتبةُ بن ربيعة مسحوباً إلى القليب، نظر رسول الله (ص) في وجه أبي حذيفة بن عتبة ـ وكان من المسلمين المهاجرين ـ؛ فإذا هو كئيب قد تغيَّر لونُه، فقال له النبيّ (ص): «يا أبا حذيفة؛ لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيءٌ؟»، فقال: لا والله يا رسول الله؛ ما شككتُ في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنتُ أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنتُ أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيتُ ما أصابه وذكرتُ ما مات

عليه من الكفر بعد الذي كنت أرجو له؛ أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله (ص) بخيرٍ.

وعندما تمَّ إلقاء قتلى المشركين في القليب وقف عليهم رسول الله (ص) فقال: «يا أهل القليب، هل وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقّاً؟؛ فإني قد وجدتُ ما وعدني ربي حقاً».

وبعث رسول الله (ص) عبد الله بن رواحة على أثر ذلك بشيراً إلى أهل العالية؛ وزيدَ بن حارثة إلى أهل السافلة، يخبران بما فتح الله عزَّ وجل على رسوله وعلى المؤمنين. ثم عزم على العودة إلى المدينة؛ ومعه النَّفَل الذي غُنِم من أعداء الله؛ والاسارى من المشركين الذين فُرِض عليهم الفداء لاطلاق سراحهم[1].

أمّا النَّفَل الذي أفاءَ الله به على المسلمين فقد قسمه رسول الله (ص) بين المحاربين الذين كانوا معه على السواء.

وأما الأسارى فقد عُومِلوا بأفضل الوجوه تنفيذاً لوصية النبيّ بهم، حتى كانوا يُطعَمون الخبزَ؛ ويأكل المسلمون التمر.

وأرتحل رسول الله (ص) من مكانه ذاك؛ حتى إذا كان بالرَّوحاء استقبله الناس يهنئونه بما فتح الله عليه وعلى مَنْ معه، فقال لهم أحد المقاتلين ـ وهو سَلَمَةُ بن سَلامة ـ: ما الذي تهنِّئونا به؟ فوالله إنْ لقينا إلا عجائز صُلعاً كالبُدن المُعَقَّلة؛ فنحرناها. فتبسَّم رسول الله (ص) وقال: «أي ابن أخي؛ اولئك المَلأَ» يعني الأشراف والرؤساء.

---

(١) روى الذهبي بسنده خبر الفداء عن الشعبي قال:
«كان فداء اسارى بدرٍ أربعة آلاف ودونها، فمن لم يكن له شيء أُمِرَ أن يعلّم صبيان الأنصار الكتابة» سير أعلام النبلاء: ١٥/٤٢٨.

وإذا كان هذا المقاتل المسلم الشجاع قد استهان بهؤلاء الأشراف والزعماء إلى هذه الدرجة؛ فرآهم عجائز صلعاً كالبدن المعقَّلة أمام بطولة المسلمين وقوة إيمانهم، فإن المقاتلين المشركين المنهزمين إلى مكة كانوا على العكس من ذلك رعباً وفرقاً واضطراباً، وقد وصف أحدُهم لقاءهم بالمحاربين المسلمين في بدر فقال:

«ما هو إلاّ أنْ لقينا القوم، فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاؤوا، ويأسروننا كيف شاؤوا. وأيم الله ـ مع ذلك ـ ما لُمْتُ الناسَ، لقينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بُلقٍ بين السماء والأرض، والله ما تُلِيق [أي: ما تُبقي] شيئاً ولا يقوم لها شيء».

وصدق الله العليّ العظيم إذ يقول:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

(*) المصادر:

سيرة ابن هشام: ٢/ ٢٥٧ ـ ٣٦٩.

طبقات ابن سعد: ٢/ ق ١/ ٦ ـ ١٧.

تاريخ الطبري: ٢/ ٤٢١ ـ ٤٦٠.

معركة أُحُد

تجمَّع قادة المشركين بمكة بعد هزيمتهم النكراء في بدر؛ لتدارس مآل أمرهم مع محمد (ص) وأصحابه، وقد تكشَّف لهم مدى الخطر الكبير المحدق بزعامتهم المرهوبة وثرواتهم الضخمة وسمعتهم المعروفة بين قبائل الجزيرة العربية وما والاها.

وبعد تداول الأمر من كل جهاته تقدَّم إليهم أحدهم قائلاً: يا معشر قريش؛ إنَّ محمداً قد وَتَرَكم وقتل خياركم، فأعينونا بالمال الذي كان في عِيْرِ قريش عند معركة بدرٍ على حربه، فلعلَّنا نُدرك منه ثأرَنا بمن أصاب منّا.

وسرعان ما وافق الجميع على ذلك متحمِّسين متدافعين، ورُوِيَ أنه نزل على أثر ذلك قوله تعالى فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وبعثوا رسلهم يسيرون في العرب يدعونهم إلى نصرهم فأوعبوا وحضروا.

وهكذا اجتمعت قريش ومَنْ أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة؛ على الإعداد لحربٍ أخرى مع المسلمين، وكان في طليعة اولئك

المتحمسين لها أصحابُ التجارة وذوو الزعامة ممن كان يخشى على كل ذلك من هذا المدِّ المتلاطم القادم من المدينة المنوَّرة.

وبدأ يحرِّض بعضهم بعضاً، ويشجِّع الواحد صاحبه، ويشد هذا من عزيمة ذاك. واستنفروا لهذه المهمَّة كلَّ من يمكن استنفاره ومَنْ يُرجى العون منه، حتى بلغت الحال إلى أن يدعوَ جُبَيْر بن مطعم غلاماً له حبشيّاً يقال له وَحْشيّ ـ وكان معروفاً أنه يقذف بحربةٍ له قَذْف الحبشة وقلَّما يخطىء بها ـ فقال له: اخرج مع الناس، فإنْ أنت قتلتَ حمزةَ عمَّ محمدٍ بعمي طُعَيْمة بن عَدِيّ فأنت عتيق.

ثم خرجت قريش ـ بعد الفراغ من الإعداد والتأهُّب ـ بحدِّها وحديدها وجدِّها وأحابيشها وجميع مَنْ تابَعَها من بني كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظُّعن [أي النساء في هوادجهنَّ] التماسَ الحفيظة وأنْ لا يفرُّوا، فخرج أبو سفيان بن حرب بهند بنت عتبة، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأُمِّ حكيم بنت الحارث بن هشام، وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبِّه بن الحجاج، وهكذا فعل الآخرون.

وكانت هند بنت عتبة كلَّما مرَّتْ بوحشيّ أو مرَّ بها قالت له: ويها أبا دَسمة؛ اشفِ واشْتَفْ، وكان وحشيٌّ يكنى بأبي دسمة.

وأقبل جمعهم يقطع البيداء، حتى نزلوا بعَيْنَيْن، بجبلٍ ببطن السَّبْخَة، من قناةٍ على شفير الوادي، مقابل المدينة.

وبلغ خبرُ مسيرهم رسول الله (ص)، ثم سمع هو والمسلمون نبأ نزولهم حيث نزلوا، وبات سعد بن معاذ وأُسَيد بن حُضَير وسعد بن عبادة في عُدَّةٍ عليهم السلاح في المسجد بباب رسول الله (ص) وحُرِست المدينة حتى أصبحوا، فجمع النبيّ (ص) ذوي المشورة من أصحابه وقال لهم فيما قال:

«فإنْ رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرٍّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها». فقال بعضهم: يا رسول الله؛ أخرج بنا إلى أعدائنا، لا يَرَوْنَ أنَا جَبُناً عنهم وضَعُفْنا.

وقال آخر: يا رسول الله؛ أقم بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ لنا قطّ إلاّ أصاب منّا، ولا دخلها علينا إلاّ أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله، فإن أقاموا أقاموا بشَرِّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا.

واقترح آخرون الاستعانة باليهود لأنهم كانوا حلفاء الأنصار.

ورفض النبيّ (ص) بكل صرامةٍ مقترحَ الاستعانة باليهود وقال: «لا حاجة لنا فيهم». ثم رجح ـ بعد المداولة والمناقشة الموسَّعة ـ رأيُ القائلين بضرورة الخروج للقاء القوم؛ وعدم المكث والانتظار في المدينة.

وصلّىٰ رسول الله (ص) الجمعة بالمسلمين، ووعظهم وأمرهم بالجدِّ والجهاد، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا، وأكَّد عليهم التهيؤ لعدوهم، ثم صلّى بالناس العصر وقد حشدوا، ثم دخل بيته فلبس لَأْمَتَه، وخرج للقتال في ألفٍ من أصحابه، وخرج السَّعْدانِ أمامه يَعْدُوان ـ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ـ، وكل واحدٍ منهما دارع، والناس عن يمينه وشماله.

وشاء المنافقون ممن كانوا مع رسول الله (ص) استغلال الموقف حبّاً بالسلامة، فقال قائلهم ـ وهو عبد الله بن أُبَيِّ بن سَلُول ـ: أطاعهم وعصاني، ما ندري علامَ نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس، فرجع بمن اتَّبعه من قومه من أهل النفاق والريب، وكانوا ثلثَ الناس، فلحقهم

عبدُ الله بن عمرو بن حرام ـ وكان مسلماً صادق الإيمان ـ فقال لهم: يا قوم؛ اذكِّركم الله أن لا تخذلوا قومكم ونبيّكم. فلمّا استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف والخذلان قال: أبْعَدَكم الله أعداءَ الله، فسيُغني الله عنكم نبيَّه.

ومضى رسولُ الله (ص) بموكبه المؤمن الشجاع إلى لقاء المشركين، وسلكوا طريقاً خاصاً ـ بدلالة أحد الأنصار ـ يخرج على القوم من قرب ولا يمر عليهم، حتى نزلوا الشِّعبَ من أُحُد، في عَدْوة الوادي إلى الجبل، وجعلوا ظهورهم إلى أُحُد. ثم أعلن (ص) بكل صرامةٍ قائلاً: لا يقاتلنَّ أحدٌ منكم حتى نأمره بالقتال.

وعَبَّأ النبيّ (ص) أصحابه وكانوا سبع مائة، وأمَّر على الرماة ـ وكانوا خمسين رجلاً ـ عبد الله بن جبير؛ وهو مُعْلم يومئذ بثياب بيضٍ، وأصدر الأمر إلى قائدهم قائلا: «انضح الخيل عنّا بالنبل؛ لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فأنت مكانك، لا نُؤتَيَنَّ من قبلك».

ودفع اللواء الأعظم إلى مصعب بن عمير أخي بني عبد الدار؛ ولواء المهاجرين لعليّ (ع)؛ ولواء الأوس لأُسيد بن حضير؛ ولواء الخزرج للحُبَاب بن المنذر أو سعد بن عُبادة.

وأخذ رسولُ الله (ص) بيده سيفاً وقال: «مَنْ يأخذ هذا السيف بحقِّه؟».

فقام إليه رجال، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دُجانة سِماك بن خَرَشة الساعدي الأنصاري فقال: وما حقُّه يا رسول الله؟.

قال النبيّ (ص): «أن تضرب به العدوَّ حتى ينحني. أو قال ـ كما في رواية أخرى ـ: حقّه أن لا تقتل به مسلماً وأن لا تفرَّ به عن كافر».

قال أبو دجانة: أنا آخذه يا رسول الله بحقه.

فأعطاه النبيّ السيف، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، وكان إذا أعلم بعصابةٍ له حمراء علم الناسُ أنه سيقاتل؛ وتسمي الأنصار عصابته: عصابة الموت. فلما أخذ السيفَ من يد رسول الله (ص) أخرج عصابته تلك فعصب بها رأسَه وجعل يتبختر بين الصفَّيْن، فلما رآه رسول الله (ص) يختال في مشيته قال: «إنها لمشيةٌ يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

ويبدو أن النبيّ (ص) كان يريد بتكريم أبي دجانة أن يفهم الأنصار مقدار اعتماده عليهم وثقته بهم في الدفاع عن كيان الإسلام الوليد.

❀ ❀ ❀

وعبَّأت قريش أفرادها للحرب؛ وهم ثلاثة آلاف رجل؛ فيهم سبعمائة دارع، ومعهم مئتا فرس وثلاثة آلاف بعير. وجعلوا خالد بن الوليد قائد الميمنة، وعكرمة بن أبي جهل قائد الميسرة، وكان اللواء ـ كعادتهم ـ بيد بني عبد الدار.

والتقىٰ الطرفان وبدأت الحرب، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال في السنة الثالثة من الهجرة.

واقتتل الناس حتى حميت الوغىٰ، وقاتل أبو دجانة حتى أمعن وقاتل معه المسلمون، فأنزل الله عزَّ وجلّ نصره، وصدقهم وعده، فحسّوهم بالسيوف حتى كشفوهم.

وأخذت هند بنت عتبة ـ أُمّ معاوية ـ في نسوة من نساء المشركين الدفوفَ يَضْرِبْنَ بها خلف الرجال يُحرِّضنَهم، وكانت ترتجز وتقول:

ويهاً بني عبد الدارْ ويهاً حماة الأدبارْ ضرباً بكل بتّارْ

وتقول:

نحن بنات طارقْ نمشي على النمارقْ إنْ تُقبِلوا نُعانقْ

أو تُدبِروا نُفارقْ فراقَ غير وامق

وصاح طلحة بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين: من يبارز؟، فبرز له عليٌّ (ع) فالتقيا بين الصفَّيْن، فبدره علي فضربه على رأسه حتى فلق هامته، فوقع وهو كبش الكتيبة، فسُرَّ رسول الله (ص) بذلك وكبَّر، وكبَّر المسلمون وشدوا على كتائب المشركين.

وتسلَّم اللواء بعد طلحة أخوه عثمان فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده وكتفه حتى انتهىٰ إلى مُؤتَزَرِه.

واشتد القتال، وحمي وطيس الحرب، وشدَّ حمزة بن عبد المطلب على حامل راية المشركين أرطأة بن عبد شرحبيل بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار فقتله.

وكمن وحشيٌّ[1] في أثناء ذلك لحمزة؛ فرماه بحربته، فسقط شهيداً مضمخاً بدمائه، وكان وحشي يتحدث عن مصرع حمزة فيقول:

لما ألتقى الناسُ خرجتُ أنظر حمزة وأتبصَّره، حتى رأيتُه في عُرض

---

(١) كان وحشيٌّ يسكن مكة، فلما افتتح النبيّ (ص) مكة فرَّ إلى الطائف، ثم جاء متنكراً في وفد الطائف بعد أن سُدَّت في وجهه سبل النجاة ففاجأ النبيَّ بإسلامه، فقال له النبيّ بعد أن اضطر إلى الصفح عنه لتلفظه بالشهادتين: «ويحك غَيِّبْ عني وجهك فلا أرينَّك»، وروى ابن هشام: «أن وحشياً لم يزل يُحَدُّ في الخمر حتى خُلِع من الديوان، فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أن الله تعالى لم يكن ليَدَعَ قاتل حمزة» سيرة ابن هشام: ٣/٧٦ ـ ٧٧.

الناس يهدُّ أعداءه بسيفه هدّاً ما يقوم له شيء، فوالله إني لأَتَهَيَّأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر، إذ تقدَّمني إليه سِباعُ بن بعد العُزّى، فلما رآه حمزةُ ضَرَبه ضربةً ما أخطأت رأسَه. وهززتُ حربتي، حتى إذا رضيتُ منها دفعتُها عليه، فوقعتْ في ثُنَّته حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء (أي: ينهض متثاقلاً) نحوي، فغُلِب، وتركتُه وإياها حتى مات.

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله (ص) قتال الأبطال، وكان من القلائل الذين ثبتوا ولم يفروا من الزحف، وأدركته الشهادة بسيف ابن قمئة الليثي وهو يظن أنه رسول الله (ص).

وتسلَّم اللواء عليُّ بن أبي طالب بأمر رسول الله (ص) بعد شهادة مصعب، واشتدَّ القتال حتى بلغ أعنف ما يُتَصوَّر ضراوة وشدة.

وجلس النبيّ (ص) تحت راية الأنصار، وأرسل إلى علي (ع): أنْ قَدِّم الراية. فتقدم عليٌّ بها، فناداه أبو سعد بن أبي طلحة صاحب لواء المشركين: هل لك في البراز من حاجة؟، فقال علي: نعم. فبرزا بين الصفَّيْن فاختلفا بضربتين، فضربه علي فصرعه ثم انصرف عنه ولم يُجهِزْ عليه، فقال له أصحابه: أفلا أجهزتَ عليه؟ فقال: إنَّه استقبلني بعورتِه[1]. ثم أجهز عليه سعد بن أبي وقاص بطعنةٍ في حنجرته.

وبرز في أثناء ذلك حنظلةُ بن أبي عامر الملقَّب على لسان النبيّ ـ(ص) ـ بـ «غسيل الملائكة»، فَعَلا أبا سفيان يريد قتله، فبادر أحد المشركين فعاجل حنظلة بضربة قاتلة؛ فاستشهد رضي الله عنه.

---

(١) قال محققو السيرة تعليقاً على هذه الحادثة: «وقد فعل علي (ع) هذه مرة أخرى يوم صفين، حمل على بسر بن أرطأة، فلما رأى بسر أنه مقتول كشف عن عورته، فانصرف عنه. ويروى أيضاً مثل ذلك عن عمرو بن العاص مع علي (ع) يوم صفين» سيرة ابن هشام: ٣/٧٨ ـ الهامش ذو الرقم (٢) ـ.

وأصبح النصر للمسلمين قاب قوسين أو أدنى، وبدأت نساء المشركين تستعد للفرار طلباً للنجاة، وانكشف القوم عن معسكرهم فلم يبق فيه أحد، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاؤوا. وسقط كل حملة لواء الكفر صرعى من حوله واحداً بعد واحد، فبقي لواؤهم مطروحاً على الأرض لا يجرؤ قرشي على الدنو منه لحمله.

وحدَّث أبو رافع الصحابي قال: لما قَتَل عليُّ بن أبي طالب (ع) أصحابَ الألوية؛ أبصر رسول الله (ص) جماعةً من مشركي قريش، فقال لعليّ (ع): «إحمل عليهم» فحمل عليهم ففرَّق جمعهم وقتل منهم عمرو ابن عبد الله الجمحيّ. ثم أبصر رسول الله (ص) جماعة أخرى منهم، فقال لعلي (ع): «إحمل عليهم» فحمل عليهم ففرّق جماعتهم وقتل منهم شيبة بن مالك أحد بني عامر بن لؤي. فقال جبريل: يا رسول الله؛ إن هذه لَلْمُواساة، فقال رسول الله (ص): «إنه منّي وأنا منه» فقال جبريل: وأنا منكما، قال: فسمعوا صوتاً:

لا سيف إلا ذو الفقا ... رِ ولا فتى إلا علي

ورأى الرماة من أصحاب النبيّ ـ وكانوا يطلُّون على أرض المعركة من علٍ ـ أن المشركين قد تركوا معسكرهم وولوا هاربين؛ وأن رفاقهم وقعوا في المعسكر نهباً وغنماً، وكان فيه ما فيه من أُبَّهةٍ ومال وسلاح، فثارت في نفوس معظمهم غريزة الطمع في الغنائم، فتركوا مواضعهم التي وضعهم فيها رسول الله ـ (ص) ـ، وهجموا على المعسكر يغنمون ما ضمَّه من عدة ومال، وخالفهم في ذلك قائدُهم عبد الله بن جبير في نفرٍ يسير دون العشرة؛ فثبت في مكانه وقال: لا أُجاوز أمْرَ رسول الله ـ (ص) ـ.

واستغلت فلول المشركين هذه الفرصة السانحة، فعلتْ عاليةٌ منهم بقيادة خالد بن الوليد ذلك الموقع الجبليّ الحساس الذي كان فيه الرماة، بعد أن استشهدت البقية الثابتة منهم فيه واستشهد أميرهم عبد الله بن جبير أيضاً.

ويقول ابن سعد في روايته: إن المسلمين اختلطوا؛ فصاروا يقتتلون على غير شعار، ويضرب بعضهم بعضاً، ما يشعرون به من العجلة والدهش، وولّى مَنْ ولّى منهم وقد جهدته الحرب فما يدري ما يصنع.

ودارت الدائرة على المسلمين، حتى صرخ صارخ: ألاَ إن محمداً قد قُتِل، فزاد ذلك في رعب المسلمين وذعرهم.

ووصف ابن إسحاق ذلك اليوم العصيب فقال: «كان يوم بلاء وتمحيص، أكرم الله فيه مَنْ أكرم من المسلمين بالشهادة، حتى خلص العدو إلى رسول الله (ص) فدُثَّ [أي رُمِيَ] بالحجارة حتى وقع لشقِّه، فأُصيبت رباعيته وشُجَّ في وجهه وكُلِمَتْ شَفَتُه... فجعل الدَّمُ يسيل على وجهه... ووقع رسول الله (ص) في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ علي بن أبي طالب (ع) بيد رسول الله (ص)».

ولم يبق من المدافعين عن رسول الله (ص) إلاّ نفر قليل لم يتجاوز أربعة عشر في الأكثر، وبينهم رسول الله (ص) ثابت كالجبل الراسخ يرمي عن قوسه حتى صارت شظايا.

وآل الأمر بأُمّ عمارة نُسَيبة بنت كعب المازنية ـ وكانت تراقب المعركة من بعيد ـ أن تحمل السلاح وتباشر القتال، حتى أُصيبت بضربةٍ بقيت آثارها في بدنها بعد ذلك.

وفرَّ ـ فيمن فرَّ ـ عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان وسعد بن عثمان ـ والأخيران من الأنصار ـ حتى بلغوا جبلاً بناحية المدينة فأقاموا به ثلاثاً ثم رجعوا.

وانتهى أنس بن النَّضرْ إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار؛ وقد ألقوا سلاحهم وجلسوا في ناحية، فقال: ما يُجلِسُكم؟ قالوا: قُتِل رسول الله، قال: فماذا تصنعون

بالحياة بعده؟، يا قوم إن كان محمد قد قُتِل فإن ربَّ محمد لم يقتل، فقاتِلوا على ما قاتل عليه محمد، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء؛ وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، قوموا فموتوا على ما مات عليه. ثم شدَّ بسيفه واستقبل القوم فقاتل حتى قُتِل ـ رضي الله عنه ـ، ووجدوا به يومئذ سبعين ضربة، فما عرفه أحدٌ إلا أُخته.

ولما خفَّ ضجيج الحرب وهدأت قعقعة السلاح؛ كان أول مَنْ شاهد رسولَ الله (ص) بعد شيوع خبر مقتله: كعب بن مالك الأنصاري، فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين؛ أبشروا؛ هذا رسول الله (ص).

وسار النبيّ نحو الشِّعب في أرض المعركة، وخرج علي بن أبي طالب (ع) حتى ملأ درقتَه ماءً من موضعٍ للماء في أُحُدٍ يسمى المهراس، فجاء به إلى رسول الله (ص) ليشرب منه ويتوضأ، ثم صلّى النبيّ (ص) الظهر ذلك اليوم قاعداً من الجراح التي أصابته.

وفي الجانب الآخر وقعت نساء المشركين ـ وفي مقدمتهن هند بنت عتبة أُمُّ معاوية بن أبي سفيان ـ يمثِّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله (ص)؛ يُجدِّعن الآذان والأنُفَ، حتى اتخذت هند من ذلك خلاخيل وقلائد، وبقرت عن كبد حمزة فلاكَتْها فلم تستطع أن تُسِيغها فلَفَظَتْها، ثم علتْ على صخرة مشرفة فعبَّرت عن حقدها الأسود ببعض الأراجيز، ومنها قولها:

شفيتُ من حمزة نفسي بأُحُدْ   حتى بقرتُ بطنه عن الكبدْ
أذهب عني ذاك ما كنتُ أجدْ   من لذعة الحزن الشديد المعتمِدْ

وبلغت أراجيزُها سمعَ حسان بن ثابت؛ فكشف قناع الهجو، فذكَرَ زناها؛ وشهر بولدها (الكبير) المولود من ذلك الزنا، وقال في بعض ما قال:

لـعـن الإلٰـهُ وزوجَـهـا مـعـهـا هـنـدَ الـهـنـود طـويـلـة الـبَـظْـرِ
أخَـرَجـتِ مُـرقِـصـةً إلـى أُحُـدٍ فـي الـقـوم مُـعـنِـقـةً عـلـى بَـكْـرِ
ونـسـيـتِ فـاحـشـةً أتـيـتِ بـهـا يـا هـنـد ويـحـكِ سُـبَّـةَ الـدهـر
زعـم الـولائـدُ أنـهـا ولـدتْ ولـداً صـغـيـراً كـانَ مـن عـهـرِ[1]

وقال فيها ـ أيضاً ـ من جملة مقطوعةٍ أخرى:

لـمن الـصـبيُّ بجانب الـبطحاءِ مُـلـقـىً عـلـيـه غـيـرَ ذي مَـهْـدِ
نَـجَـلَـتْ بـه بـيـضـاءُ آنـسـةٌ مـن عـبـدِ شـمـسٍ صـلـتـهُ الـخَـدِّ
غـلـبتْ عـلـى شَـبَـهِ الـغـلام وقـد بـان الـسـوادُ لـحـالـكٍ جـعـدِ[2]

ولم تكن هند في فعلتها هذه شاذَّة أو خارجة على طبائع زوجها وبني قومها الأرذلين وجِبِلَّتهم الخبيثة القذرة، فقد مرَّ الحُلَيْس بن زَبّان أخو بني الحارث بن عبد مناة بحمزة بعد مقتله؛ فرأى أبا سفيان زوج هند وهو يضرب في شِدْق حمزة بزُجِّ الرُّمح، تنفيساً عن حقده البالغ الدفين.

❁ ❁ ❁

ووضعت الحرب أوزارها بعد هذا الجلاد الدامي، وجمع المشركون حقائبهم منصرفين.

وبعث رسولُ الله (ص) عليَّ بن أبي طالب (ع) فقال: اخرجْ في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإنْ كانوا قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل فأنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فأنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ثم

(١) ديوان حسان: ٣٨٤.

(٢) ديوان حسان ـ أيضاً ـ: ٣٩٦، وله قصائد أخرى في هذا الموضوع وردت في الديوان.

لأُناجزنَّهم، قال علي (ع): فخرجتُ في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فرأيتهم قد جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجَّهوا إلى مكة.

وعندما علم المسلمون بانصراف عدوهم إلى مكة؛ أقبلوا على أرض المعركة لمعرفة القتلى من إخوانهم؛ والقيام بواجب دفنهم.

ونادى رسول الله (ص): مَنْ رجلٌ ينظر لي ما فعل سعدُ بن الربيع؛ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟. فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد. فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق، قال: فقلت له: إن رسول الله (ص) أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، قال: أنا في الأموات، أبلغ رسول الله (ص) عني السلام وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبياً عن أُمته. وأبلغ قومَك عني السلام وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عُذْرَ لكم عند الله إنْ خُلِصَ إلى نبيكم ومنكم عَينٌ تطرف. قال: ثم لم أبرح حتى مات، فجئتُ رسولَ الله (ص) فأخبرتُه خَبَرَه.

وخرج رسولُ الله (ص) يلتمس حمزة بن عبد المطلب، فوجده ببطن الوادي، قد مُثِّل به فبُقِر بطنُه عن كبده وجُدع أنفهُ واذناه، فقال معبِّراً عن عظيم وجده وألمه: «لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفتُ موقفاً قط أغْيَظَ إليَّ من هذا، ثم قال: جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة بن عبد المطلب مكتوبٌ في أهل السماوات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسَدُ الله وأسد رسوله»، وأمر ـ (ص) ـ بحمزة فسُجِّيَ ببردةٍ، ثم صلّى عليه فكبَّر سبع تكبيرات، كذلك صلّى على جميع الشهداء.

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إلى حمزة ـ وكان أخاها لأبيها وأُمها ـ، فقال رسول الله (ص) لابنها الزبير: «القها فأرْجعها لا ترى ما بأخيها». فقال لها: يا أمّه؛ إن رسول الله (ص) يأمركِ أن ترجعي، قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني أنْ قد مُثِّل بأخي؛ وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من

ذلك، لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله. فلما جاء الزبير إلى رسول الله (ص) فأخبره بذلك قال: «خَلِّ سبيلها» فأتَتْه فنظرتْ إليه.

ثم أمر رسول الله (ص) بحمزة وبالشهداء فدُفنوا في مقبرتهم المعروفة حتى اليوم.

وانصرف رسول الله راجعاً إلى المدينة فلقِيَتْه حَمْنَةُ بنت جحش، فنعى الناسُ إليها أخاها عبد الله؛ فاسترجعت واستغفرت له، ثم نُعِي لها خالها حمزة بن عبد المطلب؛ فاسترجعت واستغفرت له، ثم نُعِي لها زوجْها مصعب بن عمير؛ فصاحت وولولت، فقال رسول الله ـ (ص) ـ: «إن زوج المرأة لَبِمكانٍ».

ومرَّ رسول الله (ص) في طريق عودته بدارٍ من دور الأنصار؛ فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عَيْناً رسول الله (ص) فبكى ثم قال: «لكنَّ حمزة لا بواكي له»، فلما رجع سعد بن معاذ وأُسَيْد بن حضير إلى دار قومهم أمرا نساءهم أن يتحزَّمن ثم يذهَبْن فيبكين على عمِّ رسول الله (ص)، فلما سمع رسول الله بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهنَّ على باب مسجده يبكين عليه، فقال: «ارجعْنَ يرحمكنَّ الله.. رحم الله الأنصار؛ فإن المواساة منهم لَقَدِيمة».

ثم مرَّ موكب رسول الله (ص) بامرأةٍ من بني دينار قد قُتل زوجها وأبوها وأخوها في هذه المعركة، فلما نُعُوا لها قالت: فما فعل رسولُ الله؟ قالوا: خيراً يا أُمَّ فلانٍ هو بحمد الله كما تُحِبّين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟ فأُشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبةٍ بعدك صغيرة.

ولمّا انتهى رسول الله (ص) إلى أهله ناول سيفَه ابنته فاطمة فقال: «اغسلي عن هذا دمَه يا بنيَّة؛ فوالله لقد صَدَقني اليوم». وناولها علي بن أبي طالب (ع) سيفه وقال: وهذا ـ أيضاً ـ فاغسلي عنه دمَه؛ فوالله لقد صدقني اليوم.

وفي صباح اليوم التالي ـ وكان الأحد السادس عشر من شوال ـ

أذَّنَ مؤذِّنُ رسول الله (ص) في الناس بطلب العدو، وكان أذانه وخروجه لغرض إرهاب المشركين، عسى أن يبلغم أنه خرج في طلبهم، ليظنوا به قوةً على الحرب، وليعلموا أن ما أصاب المسلمين لم يوهن قدرتهم ولم يقعد بهم عن القتال والمناجزة.

وخرج رسول الله (ص) حتى انتهى إلى حمراء الأسد ـ وهي من المدينة على ثمانية أميال ـ، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة.

❁ ❁ ❁

وكانت حصيلة هذه المعركة استشهاد سبعين من المسلمين: أربعة من المهاجرين، والباقون من الأنصار.

وقُتِل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً عرفنا منهم ممن قَتَل حمزةُ: عثمان بن أبي طلحة، وسِباع بن عبد العزّى، وقيل: أرطاة بن عبد شرحبيل.

وممَّن قتل عليٌّ: طلحة بن أبي طلحة، وأبو سعيد بن أبي طلحة، وصؤاب أحد غلمان بني عبد الدار، وعبد الله بن حُمَيد بن زهير، وأبو الحكم بن الأخنس بن شريق، وأبو أمية بن أبي حذيفة، وقيل: أرطاة بن عبد شرحبيل(*).

وصدق الله العلي العظيم إذ أنزل في هذه المعركة فيما أنزل:

﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].



(*) المصادر:
سيرة ابن هشام: ٣/ ٦٥ ـ ١٥١.
طبقات ابن سعد: ٢/ ق ١/ ٢٥ـ ٣٤.
تاريخ الطبري: ٢/ ٥٠٣ ـ ٥٣٢.

معركة الخندق وبني قريظة

لما أجلى النبيُّ (ص) اليهودَ من بني النضير من المدينة إلى خيبر ـ بعد نقضهم العهود والمواثيق ـ؛ خرج نفرٌ منهم ومعهم بعض بني وائل من أشرافهم ووجوههم إلى مكة، يدعون قريشاً إلى حرب النبيّ (ص) ويحرِّضونهم على ذلك، فلقوا منهم نفوساً تواقة وآذاناً صاغية، وأعطوهم العهد والميثاق عليه.

ثم خرج اولئك النفر من اليهود من مكة فجاؤوا غطفان من قيس عيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله (ص)، وأعلموهم بعزم قريش على ذلك، ووعدوهم المشاركة في القتال، فاجتمعوا وتهيأوا له.

وخرجت قريش بعد أن أتمت العُدَّة واجتمع العدد يقودها أبو سفيان بن حرب الأموي، وغطفانُ وقائدها عيينة بن حصن الفزاري، وبنو مُرَّة وعلى رأسهم الحارث بن عوف المُرّي، وأشجعُ يقودهم مِسْعَر بن رُخَيْلة. وكان ذلك في شوال من سنة خمسة من الهجرة.

وبلغ سمعَ رسول الله (ص) ما أجمعوا له من كيد وأمر، فأمر بضرب خندق على المدينة يحميها من هجوم الأعداء ومباغتتهم، وعَمِل فيه رسول الله (ص) ترغيباً وتشجيعاً للمسلمين، وعمل معه جمهور المؤمنين، فدأب ودأبوا فيه.

وكان المنافقون من أهل المدينة ـ وقد تظاهروا بالمشاركة في العمل ـ بطاء الحركة كثيري التعلُّل والأعذار، ومنهم من يتسلَّل إلى أهله خلسة وبغير إذن. أما المسلمون الصادقون؛ فكان الرجل منهم إذا نابته النائبة وفاجأته الحاجة التي لا مناص منها: يذكر ذلك لرسول الله (ص) ويستأذنه في اللحوق بحاجته؛ فيأذن له، فإذا قضاها سارع في الرجوع إلى ما كان فيه من عمله، تقرباً إلى الله تعالى واحتساباً. وأنزل الله في هذه المناسبة في اولئك المؤمنين من أهل الحسبة والطاعة والرغبة في الخير قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

وعمل المسلمون في الخندق حتى أحكموه، وحصلت في أثناء حفره قصص وأحاديث؛ فيها من الله تعالى دلائل وشواهد على تصديق رسوله وتحقيق نبوّته، وقد عاين ذلك المسلمون وعايشوه.

وأقبلت قريش ـ وقد فرغ رسول الله (ص) من الخندق ـ في عشرة آلاف من أحابيشهم ومَنْ تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجدٍ حتى بلغوا مشارف المدينة، ونزلوا إلى جانب أُحُد.

وخرج رسول الله (ص) والمسلمون في ثلاثة آلاف حتى جعلوا ظهورهم إلى جبل سَلْعٍ، فضرب (ص) هنالك معسكره، وجعل الخندق حداً فاصلاً بينه وبين القوم.

وبعد أن استقر المشركون في مواضعهم، قصد حُيَيُّ بن أخطب اليهودي النَّضَري ملاقاة كعب بن أسد اليهودي القُرَظي صاحب عَقْد بني

قريظة وعهدهم ـ وكان قد وادع رسول الله (ص) على قومه وعاهده على ذلك ـ، فلما سمع كعبٌ بمقدم حُيَيٍّ بن أخطب علم أن في قدومه إليه نيَّة مبيَّتة، فأغلق دونه باب حصنه، فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له، فناداه حييٌّ: ويحك يا كعب افتح لي، قال: ويحك يا حيي إنك امرؤ مشؤوم وإني قد عاهدتُ محمداً فلستُ بناقضٍ ما بيني وبينه ولم أرَ منه إلاّ وفاءً وصدقاً، قال: افتح لي أُكلِّمك، قال: ما أنا بفاعلٍ. فما زال به حتى فتح له، فقال حيي: ويحك يا كعب! جئتُك بعزِّ الدهر؛ جئتك بقريش وغطفان في قادتها وسادتها قد عاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومَنْ معه. فقال له كعب: جئتَني والله بذلِّ الدهر وبجَهامٍ قد هَرَاق ماءه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء؛ فدعني وما أنا عليه فإني لم أر من محمدٍ إلاّ صدقاً ووفاء. فلم يزل حُييٌّ بكعبٍ يكلِّمه ويزيِّن له الأمر حتى رضخ له، وأخذ من حييّ ميثاقاً وعهداً لئن رجعتْ قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن يدخل معه في حصنه حتى يصيبه ما يصيب صاحبه.

وهكذا نقض كعبٌ عهده؛ وبَرِىءَ مما كان بينه وبين رسول الله (ص)، وأصبح النبيّ والمسلمون وقد أُحيط بهم وبمدينتهم من كل طرف وصوب.

فلما انتهى خبر ذلك إلى رسول الله (ص)، بعث سيدَ الأوس سعدَ بن معاذ وسيدَ الخزرج سعدَ بن عبادة ومعهما عبد الله بن رَوَاحة وخَوّات بن جبير وقال لهم: «انطَلِقوا حتى تنظروا أحَقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه (أي لا تعلنوا ذلك للناس لئلا يؤثِّر على معنويات المحاربين) ولا تفتُّوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به».

وخرج هؤلاء الأربعة حتى أتوا جَمْعَ اليهود؛ فوجدوهم على أخبث

ما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله وقالوا: مَنْ هو وما شأنه، لا عهد بيننا وبينه ولا عقد. فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم؛ فما بيننا وبينهم أرْبى ـ أي أعظم ـ من المشاتمة.

ثم أقبل السَّعْدان ومَنْ معهما إلى رسول الله (ص) فسلَّموا عليه ثم قالوا: عَضَلٌ والقارة [كنايةً عن غدرهم].

وشاع على أثر ذلك خبر نقض اليهود لعهدهم؛ فعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف، وأصبح المسلمون مطوَّقين بالأعداء من فوقهم ومن أسفل منهم، ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى بلغت الحال بأحد بني حارثة أن يعلن فيقول: يا رسول الله؛ إنَّ بيوتنا عورةٌ من العدو ـ وذلك على ملإ من رجال قومه ـ فأْذَنَ لنا أن نرجع إلى دورنا فإنها خارج من المدينة.

وتقابل الجيشان ـ وكلاهما على أتمَّ أُهبة القتال ـ، فأقاموا قريباً من شهر؛ لم تكن بينهم حربٌ إلاّ الحصار والرمي بالنبل.

وفكَّر رسول الله (ص) في جملة ما فكَّر به لإزالة هذا الخطر المحدق بالمدينة؛ أن يفعل فعلاً يشتِّت به شمل هؤلاء الأعداء ويحدث به الإنقسام في صفوفهم، وذلك بأن يَعِدَ زعيمي غطفان باعطائهما ثلث ثمار المدينة إذا ما انسحبا من القتال ورجعا بمن معهما، ورأى أن يستشير أصحاب الشأن في ذلك قبل إعلانه، ولما كانت ثمار المدينة ملكاً للأنصار خاصة دون المهاجرين؛ بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة؛ فذكر ذلك لهما وطلب رأيهما فيه، فقالا له: يا رسول الله؛ أمراً تحبُّه فتصنعه؛ أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؛ أم شيئاً تصنعه لنا؟، قال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني

رأيتُ العرب قد رَمَتْكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب؛ فأردتُ أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمرٍ مّا». فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله؛ قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان؛ لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرةً إلا قِرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك وبه؛ نعطيهم أموالنا، والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله (ص): «فأنت وذاك».

ومرَّت على مواجهة الجيشين أيام أخرى وأيام، وحصار المشركين للمسلمين قائم ولكن بلا اشتباك ودماء. ثم تقدَّم فوارسُ من قريش منهم عمرو بن عبد وُدٍّ بن أبي قيس وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن أبي وهب وضرار بن الخطاب، حتى مرُّوا بمنازل بني كنانة فقالوا: تهيَّئوا يا بني كنانة للحرب، فستعلمون مَنِ الفُرسانُ اليوم.

ثم أقبلوا تُسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إنَّ هذه لمكيدةٌ ما كانت العرب تكيدها. ويقال: إن سلمان الفارسي كان هو المشير به على رسول الله (ص)؛ وإن المهاجرين قالوا ذلك اليوم: سلمان منّا ـ اعتزازاً بمشورته هذه ـ، وقالت الأنصار: سلمان منّا، فقال رسول الله (ص): «سلمان منّا أهل البيت».

وتيمَّم اولئك المشركون الأربعة المتقدمون مكاناً ضيقاً من الخندق؛ فضربوا خيلهم فاقتحمت منه، فجالت بهم في السَّبخة بين الخندق وسَلْع، فجعل عمرو بن عبد ودّ يدعو إلى البراز ويقول:

ولقد بُححتُ من النِّدا ءِ لجمعهم هل من مُبارِزْ

فقال عليٌّ بن أبي طالب (ع): أنا أُبارزه يا رسول الله. فأعطاه النبيُّ سيفه وعَمَّمه وقال: «اللهم أعِنْه عليه».

وكان عمرو المذكور قد شارك في حرب بدر؛ وأصيب فيها فلم يشهد يومَ أُحُدٍ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه. فلما وقف ينادي: من يُبارِزُ؟ برز له عليٌّ (ع) فقال له: إنك قد عاهدتَ الله أن لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خَلَّتَيْن إلا أخَذْتَها منه، قال له: أجل، قال له علي (ع): فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإني أدعوك إلى النزال. فقال له: لِمَ يا ابن أخي؟ فوالله ما أُحبُّ أن أقتلك، قال له علي: لكني والله أحبُّ أن أقتلك. فحَمِيَ عمرو عند ذلك فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علّيٍ، فتنازلا وتجاولا، فقتله عليٌّ، وخرج أصحاب عمرو منهزمين حتى اقتحموا الخندق هاربين.

وكان من أبرز ما أصيب به المسلمون في هذه الحرب جرح الصحابي البطل المغوار سعد بن معاذ، وقد حدَّثتنا عنه أم المؤمنين عائشة، وكانت في حصن بني حارثة ذلك اليوم ـ وهو من أحرز حصون المدينة ـ ومعها أم سعد في الحصن نفسه، قالت عائشة: فمرَّ سعد وعليه درعٌ له مقلَّصة [أي قصيرة] قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربته، وهو يقول:

لَبِّثْ قليلاً يشهد الهيجا حَمَلْ لا بأس بالموت إذا حان الأجَلْ

فقالت له أُمُّه: الحقْ يا بني فقد ـ والله ـ أخَّرت، قالت عائشة: فقلت لها: والله لوددتُ ان درع سعدٍ كانت اسبغ مما هي. وخفتُ عليه حيث أصاب السهم منه، فرُمِيَ سعدٌ بسهم فقطع منه الأكحلَ ـ وهو عرق في الذراع ـ، فلما أصيب قال: اللّهم إن كنتَ ابقيتَ من حرب قريش شيئاً فأبْقِني لها، فإنه لا قوم أحبّ إليَّ أن أجاهدهم من قومٍ آذوا رسولك وكذَّبوه وأخرجوه، اللّم وإنْ كنتَ قد وضعتَ الحرب بيننا وبينهم فاجعله لي شهادة، ولا تُمِتْني حتى تقرَّ عيني من بني قريظة.

ومن طرائف ما ورد في أخبار هذه المعركة ما حدَّثت به صفية بنت عبد المطلب قالت: كنّا في فارعٍ في حصن حسان بن ثابت، وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان، فمرَّ بنا رجل من يهود فجعل يُطِيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله (ص)، وليس بيننا وبينهم أحدٌ يدفع عنّا، ورسول الله (ص) والمسلمون في نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آتٍ، قالت: فقلت يا حسان؛ إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن؛ وإني والله ما آمَنُه أن يدل علينا مَنْ وراءنا من يهود، وقد شُغِل عنا رسول الله (ص) وأصحابه؛ فانزل إليه فاقتله، قال: يغفر الله لكِ يا ابنة عبد المطلب؛ والله لقد عَرفتِ ما أنا بصاحب هذا [وكان حسان معروفاً بالجُبن]، قالت: فلما قال لي ذلك ولم ارَ عنده شيئاً؛ احتجرتُ - أي شددتُ وسطي - ثم أخذتُ عموداً ثم نزلتُ من الحصن إليه؛ فضربتُه بالعمود حتى قتلتُه.

وأقام رسولُ الله (ص) وأصحابه فيما وصف الله تعالى به حالهم من الخوف والشدَّة؛ لتظاهر عدوهم عليهم؛ وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

❁ ❁ ❁

وفي خلال تلك الأيام العصيبة قدم نُعَيم بن مسعود الغطفاني على النبيّ فقال: يا رسول الله؛ إني قد أسلمتُ وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمُرْني بما شئتَ. فقال رسول الله (ص): «إنما أنت فينا رجل واحد؛ فخَذِّلْ عنّا إن استطعتَ فإن الحرب خدعة».

فخرج نُعَيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة - وكان لهم نديماً في الجاهلية - فقال: يا بني قريظة؛ قد عرفتم ودّي إياكم وخاصّةَ ما بيني

وبينكم، قالوا: صدقتَ لستَ عندنا بمتَّهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم؛ فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تَحَوَّلوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدُهم وأموالهم ونساؤهم بغيره؛ فليسوا كأنتم، فإن رأوا نُهْزَةً أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تُقاتِلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رُهُناً من أشرافهم يكونون بأيديكم؛ ثقةً لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تُناجِزوه.

فقالوا له: لقد أشرتَ بالرأي.

ثم خرج نُعَيمٌ منهم حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودّي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمرٌ قد رأيتُ عليَّ حقاً أن أُبلغكموه نصحاً لكم؛ فاكتموا عني، فقالوا: نفعل، قال: إن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنّا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يُريضيك أن نأخذ لك من القبيلتين ـ قريش وغطفان ـ رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على مَنْ بقي منهم حتى نستأصلهم؟، فأرسل إليهم: نعم، فإن بعثت يهود يلتمسون منكم رُهُناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

ثم خرج حتى أتى غطفانَ فقال: يا معشر غطفان؛ إنكم أصلّي وعشيرتي وأَحَبُّ الناس إليَّ، ولا أراكم تتهمونني، قالوا: صدقتَ؛ ما أنت عندنا بمتَّهم، قال: فاكتموا عني، قالوا: نفعل؛ فما أمرك؟ ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذّرهم كما حذّرهم.

ولّما طالت مدة التأهب والانتظار أرسل أبو سفيان ورؤوسُ غطفان

إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفرٍ من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنّا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخفُّ والحافر، فاغدوا للقتال حتى نُناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فكان جواب بني قريظة: لسنا بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تُعطونا رُهُناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً لنا؛ حتى نُناجز محمداً، فإنّا نخشى إن ضرَّستكم الحرب واشتد عليكم القتال أنْ تنشمروا ـ أي تسرعوا ـ إلى بلادكم؛ وتتركونا؛ والرجل في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت الرسل بما قالت بنو قريظة؛ قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدَّثكم نُعَيمُ بن مسعود لَحَقٌّ، فأرسلوا إلى بني قريظة: إنّا والله لاندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا. فقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا: إن الذي ذكر نُعَيم لَحَقٌّ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غيرَ ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلّوا بينكم وبين الرجل في بلدكم.

وهكذا انفرط عقد ذلك الحلف الخبيث، فشتَّت الله شملهم، وخذَّل بينهم، ثم بعث عليهم الريح الزَّعزع في تلك الليالي الشاتية الشديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم؛ وتطرح أخبيتهم وآنيتهم.

فلما انتهى إلى رسول الله (ص) ما آل إليه واقع القوم؛ وما اختلف من أمرهم؛ وما فرَّق الله من جماعتهم ووحدة كلمتهم، دعا حذيفة بن اليمان فقال (ص) له: يا حذيفة؛ اذهب فأدخل في القوم فانظر ماذا يصنعون، ولا تُحْدِثَنَّ شيئاً حتى تأتينا.

قال حذيفة: فذهبتُ فدخلت في القوم، والريحُ وجنودُ الله تفعل بهم ما تفعل، لا تُقِرُّ لهم قِدراً ولا ناراً ولا بناء، فقام أبو سفيان فقال:

يا معشر قريش؛ لينظر امرؤٌ مَنْ جليسُه؟ قال حذيفة: فأخذتُ بيد الرجل الذي كان إلى جنبي فقلتُ: مَنْ أنت؟ قال: فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش؛ إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكُراع والخفُّ، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون؛ ما تطمئن لنا قِدر؛ ولا تقوم لنا نار؛ ولا يستمسك لنا بناء، فارتَحِلوا فإني مرتحل. ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه؛ ثم ضربه فوثب به.

قال حذيفة: فرجعتُ إلى رسول الله (ص) وهو قائم يصلّي.. فلمّا سلَّم أخبرتُه الخبر.

ثم سمعت غطفان برحيل قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

ولمّا أصبح رسول الله (ص) انصرف ـ هو والمسلمون ـ عن الخندق راجعين إلى المدينة وقد وضعوا السلاح، وأُثِر عن النبيّ (ص) في انصرافه عن الخندق قوله: «الآن نغزوهم ـ يعني قريشاً ـ ولا يغزوننا». فكان كذلك حتى فتح الله تعالى على رسوله (ص) مكة.

❀ ❀ ❀

وكان النبيّ (ص) خلال انشغاله بحرب قريش وغطفان في الخندق؛ في شغل شاغل بأمر المدينة نفسها، لأن الرجال المسلَّحين القادرين على حمايتها والدفاع عنها كانوا مستنفرين لتلك الحرب، فكان الخطر يتهدَّد المدينةَ ـ وليس فيها إلا النساء والعجزة والصبيان ـ من ضربةٍ مفاجئة من اليهود بعد نقضهم العهد ونكثهم بالميثاق، أي إن الخطر كان يتهدد الخطوط الخلفية لجيش المسلمين ويجعلهم في حربٍ على جبهتين: أماميَّةٍ مع قريش وخلفيَّةٍ مع اليهود.

ولذلك كان همُّ النبيّ (ص) بعد انسحاب قريش أن ينهي الموقف ويحسم الأمر مع اليهود، فيأمن تكرار مثل هذا الخطر في مقبل الأيام.

وتنفيذاً لذلك أمر مؤذِّناً له ـ وهو راجع من الخندق إلى المدينة ـ أن يؤذِّن في الناس: «مَنْ كان سامعاً مطيعاً فلا يصلينَّ العصر إلا ببني قريظة».

وقدَّم رسول الله (ص) عليَّ بن أبي طالب (ع) برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس. فسار عليٌّ (ع)؛ حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها كلاماً سيئاً في النبيّ (ص)، فرجع حتى لقي رسول الله (ص) بالطريق فقال (ع): يا رسول الله؛ لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث، قال (ص): لَمِ؟ أظنك سمعتَ منهم لي أذىً، قال (ص): نعم يا رسول الله.

ثم أتى رسولُ الله (ص) بني قريظة، فنزل على بئرٍ من آبارها، وتلاحق به الناس، فحاصرهم قرابة خمسٍ وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار؛ وقذف الله في قلوبهم الرعب.

ويقول الرواة: إن حُيَيَّ بن أخطب كان قد دخل مع بني قريظة في حصنهم؛ حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه. فلما أيقنوا بأن رسول الله (ص) غير منصرف عنهم حتى يناجزهم؛ قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود؛ قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيّها شئتم، قالوا: وما هي؟، قال: نُتابع هذا الرجل ونصدِّقه، فوالله لقد تبيَّن لكم انه لَنَبيٌّ مرسل؛ وإنه لَلَّذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التَّوراة أبداً ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه فهلمَّ نقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدنَّ النساء

والأبناء، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم، قال: فإن أبيتم عليَّ هذه فان الليلة ليلة السبت؛ وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نُصِيب من محمد وأصحابه غِرَّةً، قالوا لا نفسد سبتنا علينا.

ثم إن اليهود طلبوا من رسول الله (ص) أن يبعث إليهم أبا لُبَابة بن عبد المنذر الأوسي ـ وكان بنو قريظة حلفاء الأوس ـ ليستشيروه في أمرهم، فأرسله رسول الله (ص) إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال؛ وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم، فسألوه: يا أبا لبابة؛ أترى أن ننزل على حكم محمد؟، قال: نعم ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ إنه الذَّبح.

وتقول إحدى روايات ابن إسحاق: إن عليَّ بن أبي طالب (ع) صاح وهم محاصرو بني قريظة: يا كتيبة الإيمان، وتَقَدَّم. . ، وقال (ع): والله لأذوقنَّ ما ذاق حمزة أو لأفتحنَّ حصنهم، فقالوا: يا محمد؛ ننزل على حكم سعد بن معاذ.

وعلى كل حال، لم يجد هؤلاء اليهود مناصاً من النزول على حكم محمد ـ (ص) ـ، فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله؛ إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلتَ في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمتَ. وقد كان رسول الله (ص) قبل بني قريظة قد حاصر بني قَيْنقاع ـ وكانوا حلفاء الخزرج ـ فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول فوهبهم له.

فلمّا كلَّمَتْه الأوس؛ قال رسول الله (ص): «ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟»، قالوا: بلى، قال رسول الله (ص): «فذاك إلى سعد ابن معاذ».

وكان رسول الله (ص) بعد جرح سعدٍ قد جعله في خيمةٍ لامرأةٍ من أسلم، في مسجده، كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وقد أمر النبيُّ (ص) الأوسَ لما أُصيب سعد بالخندق قائلاً: «اجعلوه في خيمة رُفَيْدَة حتى أعوده من قريب».

فلمّا حكَّمه رسولُ الله (ص) في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمارٍ قد وَطَّأوا له بوسادةٍ من أدم ـ وكان رجلاً جسيماً جميلاً ـ، وأقبلوا معه وهم يقولون له: يا أبا عمرو؛ أحسِن في مواليك، فإن رسول الله (ص) إنما ولاّك ذلك لتُحسِن فيهم. فلما أكثروا عليه قال: لقد أنى لسعدٍ أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

وانتهى سعد إلى رسول الله (ص)، فقال النبيّ (ص) للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم»، فقاموا إليه فقالوا: يا أبا عمرو؛ إن رسول الله (ص) قد ولاّك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال لهم سعد: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم ما حكمتُ؟، قالوا: نعم، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقتَل الرجال؛ وتُقسَّم الأموال؛ وتُسبى الذراري والنساء.

فقال رسول الله (ص) لسعدٍ: «لقد حكمتَ فيهم بحكم الله ـ أو قال: ـ أصبتَ حكم الله ورسوله».

ثم نُفِّذ حكم سعدٍ فيهم.

❀ ❀ ❀

وأنزل الله تعالى فيما أنزل في محكم كتابه في معركة الخندق:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

إلى قوله جلَّ وعلا:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وألحق بذلك مما يخصُّ بني قريظة قولَه عزَّ من قائل:

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٦ ـ ٢٧].

(*) المصادر:

سيرة ابن هشام: ٣/ ٢٢٤ ـ ٢٥٣.

طبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٤٧ـ ٥٦.

تاريخ الطبري: ٢/ ٥٧١ـ ٥٩٣.

معركة خيبر

أقام رسول الله (ص) بالمدينة أشهراً بعد عودته من الحديبية، ثم خرج في سنة سبع من الهجرة إلى خيبر، لتصفية هذا الجيب المعادي الخطير الذي ما زال يهدِّد استقرار الكيان الإسلامي الوليد، ويشكِّل عنصرَ ضغطٍ دائم على جبهته الداخلية وأمنه الوطني.

ودفع رسول الله (ص) رايته العظمى ـ وكانت بيضاء ـ إلى علي بن أبي طالب (ع)؛ كما دفع راية أخرى إلى الحُبَاب بن المنذر؛ وثالثة إلى سعد بن عبادة.

ومضى (ص) حتى نزل بجيشه وادياً يقال له الرَّجيع؛ ففصل بين أهل خيبر وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر بسلاح أو رجال.

ولما سمعت غطفان بنيَّة رسول الله (ص) ومنزله جمعوا له، ثم خرجوا للدفاع عن حلفائهم اليهود والتضامن معهم ضدَّه. حتى إذا ساروا مرحلةً سمع بعضُ الغطفانيين من خلفهم في أموالهم وأهاليهم حسّاً وحركة، فظنوا إن المسلمين قد تسلَّلوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم فأقاموا في أهاليهم وأموالهم، وخلَّوا بين رسول الله (ص) وبين خيبر.

ولما أشرف رسول الله (ص) على خيبر قال لأصحابه: قفوا، ثم توجَّه إلى الله تعالى داعياً مبتهلاً، وكان مما أُثِر من دعائه قوله:

«اللهَّم ربَّ السماوات وما أظْلَلْنَ؛ وربَّ الأرضين وما أقْلَلْنَ؛ وربَّ الشَّياطين وما أضللن؛ ورب الرياح وما أذرَيْن، فإنّا نسألك خير هذه القرية وخيرَ أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرِّها وشرِّ أهلها وشرِّ ما فيها».

وبات رسول الله (ص) تلك الليلة حيث أقام، وكان من ديدنه (ص) إذا غزا قوماً لم يُغِرْ عليهم حتى يُصبح، فلما أصبح ركب نحو خيبر نفسها، فرأوه العمال وهم غادون إلى أعمالهم؛ ورأوا الجيش الزاحف معه، ففروا لا يلوون على شيء، فتفاءل النبيّ خيراً بفرارهم وقال: «الله أكبر، خربت خيبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباحُ المنذَرين».

وبدأ رسول الله (ص) بفتح الحصون الأدنى فالأدنى منها، فافتتح حصنَ النَّطاة وحصنَ قلعة الزبير وحصنَ ناعمٍ ثم حصن الصَّعب بن معاذ، حتى انتهى إلى حصنَيِ الوَطِيح والسُّلالم ـ وهما آخر حصون خيبر ـ فحاصرهما بضع عشرة ليلة.

وبعث رسول الله (ص) ـ لما أراد فتح آخر تلك الحصون ـ أبا بكر ومعه المقاتلون فقاتل ورجع ولم يك فتحٌ وقد جهدَ. ثم بعث في اليوم التالي عمرَ بن الخطاب على رأس اولئك المقاتلين، فلقوا أهل خيبر، فانكشف عمر وأصحابه ورجعوا إلى رسول الله (ص) يُجَبِّن أصحابه ويُجبِّنونه. فقال رسول الله (ص): لأعطِيَنَّ الراية ـ أو اللواء ـ غداً رجلاً يحبُّ الله ورسولَه ويحبُّه اللهُ ورسوله؛ يفتح الله على يديه، ليس بفرّار». فتمنّى كثير من السامعين أن يكون كلٌّ واحدٍ منهم هو المنتخب لذلك، وقال عمر: فما أحببتُ الإمارة قبل يومئذٍ؛ فتطاولتُ لها واستشرفتُ رجاءَ أن يدفعها إليَّ.

فلما كان من الغد ـ وقد تطاول لها من تطاول من الأصحاب ـ دعا النبيّ (ص) علياً (ع) وهو أرْمَد، فتفل في عينيه، وقال له: «خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك»، ونهض معه من الناس من نهض.

وخرج علي (ع) مسرعاً حتى أتى مدينة خيبر، فركز الراية في رضمٍ من الحجارة تحت الحصن، فخرج إليه أهل الحصن فقاتلهم، ثم خرج مرحب فارتجز قائلاً:

قد علمتْ خيبر أني مرحبُ   شاكي السلاح بطل مجرَّبُ

ـ إلى آخر رجزه ـ، فردَّ عليه عليٌّ (ع) مرتجزاً ـ فيما نُسِب إليه ـ فقال:

أنا الذي سمَّتني أُمي حيدرَه   كليث غاباتٍ كريه المنظرَهْ

أكيلهم بالصاع كَيْلَ السَّندرَهْ

واختلف عليٌّ (ع) ومرحب بضربتين، فضربه عليٌّ (ع) على هامته حتى عض السيف منها باطنَ رأسه، فجندله على الأرض، وسمع أهل العسكر صوت ضربته.

ثم تقدَّم رجل من اليهود يريد ضرب علّي (ع) بسيفه فأصابت الضربةُ ترسَه فطاح من يده، فتناول عليٌّ (ع) باباً كان عند الحصن فتترَّس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ فتقدم إلى ذلك الباب ثمانية نفر[1] يريدون قلبه فما استطاعوا.

---

(١) كذا ورد العدد في المصادر المنقول منها، ولكن البيهقي في إحدى رواياته يذكر: أن أربعين رجلاً لم يستطيعوا حمله، ويقول في رواية أخرى له: إنه اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب، دلائل النبوّة: ٤/ ٢١٢.

وما إن تمَّ النصر بفتح خيبر وأخْذ الحصون من أيدي المسلَّحين اليهود؛ حتى طلب أهلُها من النبيّ (ص) أن يوافق على نفيهم وحقن دمائهم، فنافهم. ثم انصرف (ص) متوجِّهاً إلى وادي القرى، ومنه إلى المدينة.

واستُشهد في هذه المعركة ـ كما جاء في الإحصائيات التاريخية ـ خمسة عشر رجلاً من المسلمين، وقتل من اليهود فيها ثلاثة وتسعون رجلاً.

(*) المصادر:
سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٤٢ ـ ٣٥٨.
طبقات ابن سعد: ٢/ق ١/ ٧٧ ـ ٨٥.
تاريخ الطبري: ٣/ ٩ ـ ١٦.

صلح الحديبية وفتح مكة

في أواخر سنة ست من الهجرة غادر رسول الله (ص) المدينة متوجهاً إلى مكة؛ بقصد الاعتمار وزيارة البيت، لا يريد مجابهة ولا قتالاً، وساق معه الهَدْيَ سبعين بَدَنةً لإثبات نيته السلمية في هذا التوجه، واستنفر مَنْ حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه، ولم يكن معهم من السلاح إلا السيوف في القُرُب، ولكنه كان يخشى قريشاً أن تعرض له بحرب أو تصدّه عن البيت.

وخرج رسول الله (ص) بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب ـ وكان عددهم ما بين ألف وأربعمائة وألف وستمائة ـ، وأحرم بالعمرة، حتى إذا كان بعسفان لقيه أحدُ الكعبيين فقال له: يا رسول الله؛ هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد يقود خيلهم التي قدّموها إلى كراع الغميم.

فقال النبيّ (ص): مَنْ رجلٌ يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم التي هم بها؟.

فتقدَّم رجلٌ من أسلم للارشاد والدلالة، فسلك بهم طريقاً وعراً كثير الحجارة، فلما خرجوا منه بعد مشقة ونَصَبٍ؛ وأفضوا إلى أرض

سهلة عند منقطع الوادي، أمر رسولُ الله (ص) الناسَ أن يسلكوا ذات اليمين في طريقٍ تخرج على مهبط الحديبية من أسفل مكة، فسلك الجيش ذلك الطريق، فلما رأت خيلُ طليعة قريش غبار الجيش من هذا الطريق رجعوا راكضين إلى قومهم يعلمونهم بالأمر ويحذِّرونهم الجيش القادم.

وما إن انتهى رسول الله (ص) إلى داخل ثنيَّة المرار حتى بركت ناقته، فقال (ص): حبسها حابس الفيل عن مكة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطةٍ يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها، ثم قال للناس: انزلوا، فقيل له: يا رسول الله؛ ما بالوادي ماءٌ ننزل عليه. فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه؛ فنزل به في قليبٍ من تلك القلب المهجورة فغرزه في جوفه؛ فجاش بالماء الكثيرة.

فلما اطمأن رسول الله (ص) في مقامه هذا، أتاه بُدَيل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة فكلَّموه وسألوه: ما الذي جاء به؟، فأخبرهم أنه لم يأتِ لحرب، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظِّماً لحرمته. فرجعوا إلى قريش فأخبروهم بذلك، فكان جواب قريش: إن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبداً.

وبعد مداولات طويلة وتبادل للرسل بين الطرفين، بعثت قريش سهيل بن عمروٍ في عدة من الرجال إلى رسول الله (ص) يطلبون المصالحة؛ بشرط أن يرجع عنهم عامه هذا، كي لا تقول العرب إن محمداً دخل مكة عنوةً على قريش.

فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله (ص) تكلَّم فأطال الكلام، وتراجَعا كثيراً في المقال، ثم اتفقا على الصلح.

ثم دعا رسولُ الله ـ (ص) عليَّ بن أبي طالب (ع) فقال له: اكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم

فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتبْ: باسمك اللهمَّ.

فقال رسول الله (ص) اكتب: باسمك اللهمَّ، فكتبها.

ثم قال: اكتب: هذا ما صالح عليه محمدٌ رسول الله سهيلَ بن عمرو.

فقال سهيل: لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

فقال رسول الله (ص): اكتب: هذا ما صالح عليه محمدُ بن عبد الله سهيلَ ابن عمرو:

اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناسُ؛ ويكفُّ بعضهم عن بعض، على أنه مَنْ أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه رَدَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة، وإنه لا إسلال ولا إغلال، وإنه مَنْ أحبَّ أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمدٍ وعهده، وتواثبت بنو بكرٍ فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

فلما فرغ رسول الله (ص) من إملاء الكتاب؛ أشهد عليه رجالاً من المسلمين ومن المشركين. وقام إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه، فلما رأى المسلمون إن النبيّ قد نحر وحلق تواثبوا ينحرون ويحلقون.

وتم الاتفاق على عدم دخول مكة هذا العام، وعلى حقهم في

دخولها في العام القابل؛ وفي الإقامة بها ثلاثاً، بشرط أن لا يكون معهم إلا سلاح الراكب، أي السيوف في القُرُب.

ثم انصرف رسول الله (ص) من وجهه ذلك قافلاً، حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت عليه سورة الفتح:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١ ـ ٢].

وكان مما أنزل الله في هذه السورة:

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا * لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ٢٦ ـ ٢٧].

وصدق الله رسوله حقاً ـ وهو أصدق القائلين ـ، إذ توجَّه النبيّ (ص) في شهر ذي القعدة من العام التالي للصلح في سنة سبع من الهجرة؛ إلى مكة المكرمة للعمرة وزيارة البيت، وهي العمرة التي سُمِّيت في التاريخ «عمرة القضاء»، لأنها كانت بمثابة القضاء عن تلك العمرة التي صدَّه المشركون عنها.

وخرج معه المسلمون ممن صُدَّ في السنة الماضية، فلما سمع بقدومه أهلُ مكة خرجوا عنها إلى رؤوس الجبال، واصطفَّ له بعضهم عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فدخل النبيّ (ص) مكة من الثنية التي تُطلِعُه على الحَجون، وعبد الله بن رَواحة آخذ بزمام راحلته، ثم طاف وطاف المسلمون معه، وابن رواحة يرتجز ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيلِه خلوا فكلُّ الخير مَعْ رسولِ

ـ إلى آخر الرجز ـ، فقال عمر بن الخطاب مستنكراً هذا الرجز: يا ابن رواحة؛ ايهاً. فقال رسولُ الله (ص): يا عمر إني أسمع، فأسكت عمر.

ثم أكمل النبيّ (ص) مناسك العمرة، وأقام بمكة ثلاثاً كما كان متفقاً عليه في وثيقة الصلح، ثم انصرف إلى المدينة.

❀ ❀ ❀

وتحرَّكت الترات القديمة كالعادة في نفوس بني بكر ـ وكانوا قد دخلوا في عقد قريش في معاهدة الصلح ـ فاعتدوا على خزاعة للظفر بثأرٍ لهم منهم، ورفدت قريش بني بكر بالسلاح لأنهم حلفاؤهم، وقاتل معهم من قريش مَنْ قاتل مستخفياً، فحازوا خزاعة إلى داخل مكة، فلم يكن لخزاعة بدٌّ من اللجوء إلى دار بُدَيل بن ورقاء.

ولماتظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة؛ وقتلوا منهم مَنْ قتلوا؛ وأصابوا ما أصابوا، ونقضوا بذلك ما كان بينهم وبين رسول الله (ص) من العهد والميثاق؛ وكانت خزاعة في عقده وعهده. خرج عمرو بن سالم الخزاعي حتى قدم على رسول الله (ص) المدينة، فحدَّثه بما حدث وطلب نصرته، فقال له النبيّ (ص): قد نُصِرْتَ يا عمرو.

ثم خرج بديل بن ورقاء في نفرٍ من خزاعة حتى قدموا على رسول الله (ص) فأخبروه بما أُصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة فلقوا أبا سفيان بن حرب بعُسفان قد بعثته قريش إلى رسول الله (ص) ـ وقد رَهِبوا ما صنعوا ـ ليشدَّ العقد ويزيد في المدة، وليختبر نية النبيّ (ص) وموقفه مما وقع.

وقدم أبو سفيان المدينة فكلَّم رسول الله (ص) بالأمر فلم يرد عليه شيئاً وحاول أن يستعين ببعض المسلمين على ذلك فلم يجد مجالاً له للشفاعة عند هؤلاء.

فعاد إلى مكة مطروداً ذليلاً، وأعلم قريشاً بفشل جميع محاولاته ومساعيه.

ثم أمر رسول الله (ص) بالجهاز، وأعلم الناسَ أنه سائر إلى مكة، وحثَّهم على الجدِّ وحسن التهيُّؤ. فتجهز الناس، ومضى رسول الله (ص) لسفره؛ وكان ذلك لعشر مضين من شهر رمضان، وأوعب معه المهاجرون والأنصار فلم يتخلَّف عنه منهم أحد.

ولقي العباسُ بن عبد المطلب ببعض الطريق ـ وقد كان خارجاً من مكة ـ موكب النبوّة بكل عدّته وابَّهته فقال: واصباحَ قريشٍ؛ والله لئن دخل رسولُ الله (ص) مكة عنوةً قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. فعزم على العودة لايصال الخبر لقريش وحثِّهم على الخروج إلى النبيّ (ص) ليستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة.

وسار العباس في طريق العودة باتجاه مكة فرأى أبا سفيان وصاحبَيْه وقد خرجوا يتحسَّسو الأخبار عن رسول الله (ص) فقال له العباس ـ وكان صديقه ـ: ويحك يا أبا سفيان؛ هذا رسول الله (ص) في الناس، فقال له أبو سفيان: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟، فقال العباس: والله لئن ظفر بك ليضربنَّ عنقك؛ فاركبْ خلفي حتى آتيَ بك رسولَ الله (ص) فاستأمنه لك. فركب أبو سفيان خلفه حتى انتهى العباس إلى رسول الله (ص)، فقال له النبيّ: اذهب به يا عباس إلى رحلك؛ فإذا أصبحتَ فأْتِني به.

فذهب به العباس إلى رحله، فلما أصبح غدا به إلى رسول

الله (ص)، فقال له النبيّ (ص): ويحك يا أبا سفيان؛ ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله، قال: بأبي أنت وأمي!؛ ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننتُ أنْ لو كان مع الله إلهٌ غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد. قال النبيّ (ص): ويحك يا أبا سفيان؛ ألم يأنِ لك أن تعلم أني رسول الله، قال: بأبي أنت وأمي!، أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً، فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فتشهد ـ مضطراً ـ الشهادتين.

ثم إن العباس قال للنبيّ (ص): يا رسول الله؛ إن أبا سفيان رجلٌ يحبّ الفخر؛ فاجعل له شيئاً يكون في قومه، فأمر النبيّ (ص) أن يُعلَنَ في الملإ: مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمِن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

وذهب أبو سفيان لينصرف مع العباس، فقال رسول الله (ص) لعمّه: يا عباس؛ احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل حتى تمرَّ به جنود الله فيراها. فحبسه العباس حيث أمره رسول الله (ص)، وبدأت القبائل تمرُّ على راياتها، ثم مرَّ رسول الله (ص) بكتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يُرى منهم إلا الحَدَق من الحديد. فلما رآها أبو سفيان قال للعباس: والله يا أبا الفضل؛ لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيماً، فقال له العباس: يا أبا سفيان؛ إنها النبوّة، فالنَّجاء إلى قومك. فجاء أبو سفيان إلى قومه فصرخ بهم بأعلى صوته محذِّراً: يا معشر قريش؛ هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد؛ عملاً بما جاء في أمان النبيّ (ص) لهم.

وانتهى النبيّ (ص) إلى ذي طوى، وقسم جيشه هناك، فدخل الزبير بن العوام في بعض الجيش من كُدىً، ودخل سعد بن عبادة بالراية في

باقي الجيش من كَدَاء وهو ينادي بأعلى صوته: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستَحَلُّ الحُرمة. فأسرع أحدُ القرشيين إلى النبيّ (ص) يُخبره بنداء سعدٍ وقال له: ما نأمن أن تكون له في قريش صولة، فقال النبيّ لعلي: أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها، وقيل: إنه (ص) أمر بدفعها إلى قيس بن سعد. ثم دخل رسول الله (ص) من أَذَاخِرَ حتى نزل بأعلى مكة، وضُربت له هنالك قبّته.

وأندفع بعض المشركين يرومون المقاومة والحرب فقُتِل منهم حوالي اثني عشر رجلاً أو ثلاثة عشر، وانهزم الباقون. وكان النبيّ (ص) قد عهد إلى امراء جيشه حين أمرهم بدخول مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، واستثنى من ذلك نفرٌ سمّاهم فأمر بقتلهم وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة جزاء ما اقترفوا من جرائم وفظائع لا يمكن بإزائها أي عفوٍ وصفح وسماح.

ولما استقر المقام برسول الله (ص) في مكة، واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت، فطاف به سبعاً، ثم فُتِح له باب الكعبة فدخلها، ثم وقف على بابها مستقبلاً الناس وقد أحدقوا به واجتمعوا في المسجد، فقال:

لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. ألا كُلُّ مأثرةٍ أو دمٍ أو مالٍ يُدَّعى فهو تحت قدميَّ هاتين؛ إلا سدانة البيت وسقاية الحاج. ألاَ وقتيلُ الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدّيَة مغلّظة.

وقال أيضاً:

يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوةَ الجاهلية.. الناس من آدم وآدمُ من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن

ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

ثم قال:

يا معشر قريش؛ ما ترون أني فاعل فيكم؟.

قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم.

قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، فأعتقهم رسول الله (ص) وقد أمكنه الله من رقابهم عنوةً وكانوا له فيئاً.

وكان في المسجد ـ من شُهَّاد النبيّ ومستمعي كلامِه ـ أبو سفيان ابن حرب وعتّاب بن أُسَيد والحارث بن هشام، فقال عَتّاب لصاحبيه: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يُغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه مُحِقٌّ لاتَّبعتُه، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً، لو تكلَّمتُ لأخْبَرتْ عني هذه الحصى. فخرج عليهم النبيّ (ص) فقال لهم: قد علمتُ الذي قلتم، ثم ذكر ذلك لهم وأخبرهم به، فأسلم الحارث وعتّاب وقالا: نشهد إنك رسول الله، والله ما اطَّلع على هذا أحدٌ كان معنا فنقول أخبرك.

ثم أمر (ص) بتحطيم جميع الأصنام القائمة في داخل البيت والمبثوثة في أطرافه، وطمس كل بقايا الشرك والجاهلية من الصور والملصقات الوثنية.

وهكذا فتح الله لرسوله الفتح المبين؛ ونصره النصر العزيز، وانهارت أقوى قواعد الكفر وصروحه في جزيرة العرب؛ باستسلام قريش ودخول مكة في نطاق دولة الإسلام، وكان ذلك في العشرين من شهر رمضان في سنة ثمان من الهجرة، وقد شهد تلك الأفراح والمباهج من

المسلمين جميع المقاتلين القادمين مع النبيّ (ص) وكان عددهم عشرة آلاف مقاتل.

وصدق رب العزة إذ أنزل في محكم كتابه المجيد:

بسم اللّه الرحمن الرحيم: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ ـ ٣].

(*) المصادر:

(في الحديبية) سيرة ابن هشام: ٣/ ٣٢١ ـ ٣٣٦ وطبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٦٩ ـ ٧٦ وتاريخ الطبري: ٢/ ٦٢٠ـ ٦٤٠.

(في عمرة القضاء) سيرة ابن هشام: ٤/ ١٢ ـ ١٤ وطبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٨٧ ـ ٨٩ وتاريخ الطبري: ٣/ ٢٣ ـ ٢٦.

(في فتح مكة) سيرة ابن هشام: ٤/ ٣١ ـ ٦٩ وطبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ٩٦ ـ ١٠٥ وتاريخ الطبري: ٣/ ٤٣ـ ٦٤.

معركة حنين

لمّا سمعت هَوازِنُ برسول الله (ص) وما فتح الله عليه من مكة وأطرافها، جمعها مالك بن عوف النَّصري، فاجتمع إليه مع هوازن ثقيفٌ كلها، واجتمعت نَصْرٌ وجُشَمُ كلها، وسعد بن بكر، وناس من بني هلال وهم قليل. وتوجَّهوا نحو حرب رسول الله (ص) قبل أن ينقضَّ عليهم في عقر دارهم، وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وأبناءهم، ونزلوا بأوطاس.

وبلغ خبرُ زحفهم نبيَّ الله (ص) وكان لمّا يزل بمكة؛ فبعث رسولاً يتحسس أخبارهم، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم عِلمَهم ثم يأتيه بخبرهم. فذهب الرسول فدخل فيهم وأقام حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من الحرب، ثم أقبل فأخبر النبيَّ الخبر، فأزمع رسول الله (ص) السير إلى هوازن ليلقاهم، فذُكِر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً وأن تحصيله وتسليح المسلمين به مما يزيد في قدرتهم القتالية وحمايتهم من ضربات الأعداء، فأرسل إلى صفوان قائلاً: «يا أبا امية؛ أعِرْنا سلاحك هذا نلق فيه عدوَّنا غداً»، فقال له صفوان: أغصباً يا محمد؟، قال: «بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك»، قال: ليس بهذا بأس. فأعطاه مائة درع بما يصلحها من السلاح.

وخرج رسول الله (ص) من مكة للقاء أعدائه، ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة، وبلغوا في مسيرهم أرض حنين فانحدروا في وادٍ من أودية تهامة، وكان القوم قد سبقوا المسلمين إلى هذا الوادي فكمنوا في شعابه وأحنائه ومضائقه وقد أجمعوا وتهيّأوا وأعدُّوا. فبعث مالك بن عوف ثلاثة نفرٍ عيوناً يأتونه بخبر أصحاب رسول الله (ص)، فرجعوا إليه وقد تفرَّقت أوصالهم من الرعب. فأوعز مالك إلى أصحابه أن يباغتوا محمداً ومَنْ معه ويشدوا عليهم شدة رجل واحد، فخرجت كتائب هوازن ورفاقهم من مضائق الوادي وشُعَبِه؛ وحملوا حملة واحدة، فتراجع المسملون وانكشفت خيلهم؛ لا يلوي أحدٌ على أحد.

وانحاز رسول الله (ص) ذات اليمين، ثم قال: «أين أيها الناس؟ هلموا إلَيَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله»، فلم يلتفت المنهزمون إلى ذلك، ولم يثبت مع النبيّ سوى نفرٍ من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

فلما انهزم الناس؛ ورأى مَنْ كان مع رسول الله (ص) من جُفَاة أهل مكة تراجع المقاتلين وهزيمتهم، تكلَّم رجال منهم بما في أنفسهم من الضِّغن والشرك، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، وقال آخر: ألاَ بطل السِّحْرُ اليوم، وقال آخرون منهم قريباً من ذلك[1].

ولما رأى رسول الله (ص) ما حدث بجيشه قال لعمه العباس ـ

---

(١) هكذا ورد النص في المصادر التي نقلنا منها، وتقول رواية البيهقي: «اعتزل أبو سفيان وصفوان ومعاوية بن أبي سفيان وحكيم بن حزام وراء تلٍ ينظرون لمن تكون الدَّبرة»، دلائل النبوة: ٥/ ١٣١.

وكان صيِّتاً ـ: «يا عباس اصرخْ: يا معشر الأنصار؛ يا معشر أصحاب السَّمُرة؛ يا أصحاب سورة البقرة»، فنادى بصوته الجهوري كما أمره النبيّ، فأجابوا: لبيك لبيك، وأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّت على أولادها. وحملوا على المشركين ببأس وقوة، فكان الرجل منهم يأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره؛ فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله (ص).

واستقبل المسلمون أعداءهم فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكانت الدعوى أولَ ما كانت ـ كما أسلفنا ـ: يا لَلأنصار، ثم خلصتْ أخيراً: يا لَلْخزرج ـ وكانوا صُبُراً عند الحرب ـ وأشرف رسول الله (ص) على المعركة؛ فنظر إلى مُجتَلَد القوم وهم يجتلدون فقال: «الآن حَمِيَ الوَطيس».

وأقبل علي بن أبي طالب (ع) ومعه رجل من الأنصار يريدان صاحب راية هوازن، فأتاه عليٌّ من خلفه فضرب عرقوبَيْ جمله؛ فوقع على عجزه، ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربةً أَطَنَّ قَدَمَه بنصف ساقِه فسقط صريعاً. واجتلد الناس، فما رجعت راجعتُهم من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى مكتَّفين عند رسول الله (ص).

ولَّما فرَّت هوازنُ استحرَّ القتل في ثقيف؛ فقُتل من بني مالك سبعون رجلاً تحت رايتهم، وقُتِل من أحلافهم رجلان.

وانهزم المشركون حتى أتوا الطائف، وعسكر بعضهم بأوطاس، وتوجَّه بعضهم نحو نخلة، وتبعتْ خيلُ رسول الله (ص) مَنْ سلك طريق نخلة من الناس ولم تتبع مَنْ سلك الثنايا.

ومرَّ رسول الله (ص) يومئذٍ بامرأة من الأعداء مقتولة والناسُ مزدحمون عليها، فقال: «ما هذا»؟، قالوا: امرأة قتلها خالد بن الوليد،

فقال رسول الله (ص) لبعض مَنْ كان معه: «أدركْ خالداً فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليداً أو امرأةً أو عسيفاً».

ثم جُمِعت إلى رسول الله (ص) سبايا حنين وأموالها، فأمر بها إلى الجعرانة فحُبستْ بها، وكان السبي ستة آلاف من الذراري والنساء، ومن الإبل والشاء ما لا يُدْرى ما عِدَّته. فراجعته هوازن في ذلك فردّ السبايا إلى أهلها، ووزَّع الأموال على المسلمين، وأعطى المؤلَّفة قلوبهم ـ وهم الذين دخلوا حديثاً في الإسلام فأراد أن يتألَّفهم ويتألف بذلك قومهم ـ حصصاً من تلك الأموال، وكان من جملة هؤلاء المؤلفة قلوبهم ـ فيما روى ابن إسحاق ـ: أبو سفيان وابنه معاوية.

ولمَّا وزع رسولُ الله (ص) تلك المغانم على جميع من حضره من قريش وقبائل العرب باستثناء الأنصار؛ وَجِدَ الأنصار في أنفسهم، فأبلغه سعد بن عبادة ذلك، فأمره أن يجمعهم، فخرج سعد فجمعهم، فلما اجتمعوا له أخبر النبيَّ (ص) باجتماعهم، فأتاهم رسول الله (ص) فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال:

«يا معشر الأنصار؛ ما قالةٌ بلغَتْني عنكم؛ وجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟، ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله؛ وعالةً فأغناكم الله؛ وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم!».

قالوا: بلى، والله ورسوله أَمَنُّ وأفضل.

قال: «ألا تجيبونني يا معشر الأنصار»؟.

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟، لله ولرسوله المَنُّ والفضل.

قال (ص):

«أما والله لو شئتم لقلتم فلَصَدَقتم ولَصُدِّقتم: أتيتَنا مُكَذَّباً

فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك. أوَجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعةٍ من الدنيا تألَّفتُ بها ليُسْلموا، ووكلتكم إلى اسلامكم. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناسُ بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناسُ شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكتُ شعبَ الأنصار. اللهمَّ ارحم الأنصار؛ وأبناء الأنصار؛ وأبناء أبناء الأنصار».

فبكى القوم وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظّاً. ثم انصرف رسولُ الله (ص) وتفرقوا.

واتَّجه رسول الله (ص) نحو مكة، فأهلَّ بعمرةٍ من الجعرانة، ورجع بعد إكمال العمرة إلى المدينة؛ في بقية ذي القعدة أو في ذي الحجة من سنة ثمان.

وان مما نزل من القرآن الكريم في هذه المعركة قوله عزَّ من قائل:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٦].

(*) المصادر:
سيرة ابن هشام: ٤/ ٨٠ ـ ١٤٣.
طبقات ابن سعد: ٢/ ق١/ ١٠٨ـ ١١٣.
تاريخ الطبري: ٣/ ٧٠ ـ ٨٢.

المصادر والمراجع

- الاحتجاج، للطبري النجف ١٣٥٠هـ.
- الاستيعاب، لابن عبدالبرّ ـ هامش الإصابة، القاهرة ١٣٥٨هـ.
- أسد الغابة، لابن الأثير، القاهرة ١٢٨٥هـ.
- الاشتقاق، لابن دريد، القاهرة ١٣٧٨هـ.
- الإصابة، لابن حجر العسقلاني، القاهرة ١٣٥٨هـ.
- الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني ـ ج١٦، القاهرة (طبعة مصورة).
- الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني ـ ج٢٢، القاهرة ١٣٩٣هـ.
- إكمال الدين، للصدوق، إيران ١٣٠١هـ.
- أنساب الأشراف، للبلاذري ـ ج١، القاهرة ١٩٥٩م.
- أنساب الأشراف، للبلاذري ـ ج٥، القدس ١٩٣٦م.
- أوائل المقالات، لمحمد بن محمد المفيد، إيران ١٣٧١هـ.
- البداية والنهاية، لابن كثير، القاهرة ١٣٥١هـ.
- البيان في تفسير القرآن، للخوئي، النجف ١٣٧٧هـ.
- تارج العروس، لمحمد مرتضى الزَّبيدي، القاهرة ١٣٠٦هـ.
- التاريخ الكبير، للذهبي ـ ج١، القاهرة ١٩٧٥م.
- تاريخ، أبي الفدا، القاهرة ١٣٢٥هـ.
- تاريخ، الطبري، القاهرة ١٩٦٣م.
- تاريخ، اليعقوبي، النجف ١٣٥٨هـ.
- التبيان في تفسير القرآن، للطوسي، النجف ١٣٧٦هـ.
- التبيين في أنساب القرشيين، للمقدسي، الموصل ١٤٠٢هـ.
- تذكرة الحفاظ، للذهبي الهند ١٣٧٥هـ.
- تفسير، ابن كثير، القاهرة ١٣٥٦هـ.
- تفسير، الرازي ـ المطبعة البهية ـ القاهرة (بلا تاريخ)

- تفسير، الطبري، القاهرة ١٣٧٣هـ.
- تفسير، القرطبي - ج١٢، القاهرة ١٣٨٧هـ.
- تنزيه الأنبياء، للشريف المرتضى، النجف ١٣٥٠هـ.
- التهذيب، للطوسي، طهران ١٣٩٠هـ.
- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلاني، الهند ١٣٢٥هـ.
- جمهرة النسب، للكلبي، بيروت ١٤٠٧هـ.
- حديث الثقلين - إصدار دار التقريب بمصر، القاهرة ١٣٧٤هـ.
- حلية الأولياء، لأبي نعيم، بيروت ١٣٨٧هـ.
- الخدعة، لصالح الورداني، بيروت ١٤١٦هـ.
- دلائل النوبة، للبيهقي، بيروت ١٤٠٥هـ.
- الدولة في عهد الرسول (ص)، للدكتور صالح أحمد العلي، بغداد ١٤٠٩هـ.
- ديوان، أبي طالب - صنعة أبي هفان المهزمي، بغداد ١٤١٣هـ.
- ديوان، أبي طالب - صنعة علي بن حمزة البصري، بغداد ١٤١٣هـ.
- ديوان، كعب بن زهير، القاهرة ١٣٦٩هـ.
- الرجال، للنجاشي، الهند ١٣١٧هـ.
- الرسول، لبودلي - الترجمة العربية، القاهرة ١٩٤٦م.
- الروض الأُنُف، للسهيلي - طبعة دار الفكر، بيروت (بلا تاريخ).
- سنن، ابن ماجه، القاهرة ١٣٧٢هـ.
- سنن، أبي داود، القاهرة ١٣٧١هـ.
- سنن، الترمذي، القاهرة ١٣٨٥هـ.
- السير والمغازي، لمحمد بن إسحاق، بيروت ١٣٩٨هـ.
- سير أعلام النبلاء، للذهبي، بيروت ١٤٠٦هـ.
- السيرة النبوية، لابن هشام، بيروت ١٣٩١هـ.
- شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، القاهرة ١٣٧٨هـ.
- صحيح، البخاري - طبعة محمد علي صبيح، القاهرة (بلا تاريخ).
- صحيح، مسلم - طبعة محمد علي صبيح، القاهرة (بلا تاريخ).
- الصواعق المحرقة، لابن حجر الهيتمي، القاهرة ١٣١٢هـ.
- الطبقات الكبرى، لابن سعد، ليدن ١٣٢٢هـ.
- العقد الفريد، لابن عبد ربّه، القاهرة ١٣٨٥هـ.

- الفهرست، للطوسي، النجف ١٣٥٦هـ.
- فهرست، ابن خير الأشبيلي، ١٣٨٢؟هـ.
- الكافي، لمحمد بن يعقوب الكليني، طهران ١٣٧٥هـ.
- الكامل ـ في الأدب ـ للمبرد ـ طبعة نهضة مصر، القاهرة (بلا تاريخ).
- الكامل ـ في التاريخ، لابن الأثير، القاهرة ١٣٤٨هـ.
- الكشاف ـ في التفسير، للزمخشري، القاهرة ١٣٨٧هـ.
- لسان العرب، لابن منظور، بيروت ١٣٧٤هـ.
- مجلة، المجمع العلمي العراقي ـ الجزء الأول، بغداد ١٣٦٩هـ.
- مجلة، المجمع العلمي العراقي ـ الأول من الثالث، بغداد ١٣٧٣هـ.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، للطبرسي، صيدا ١٢٣٣هـ.
- المحبر، لمحمد بن حبيب، الهند ١٣٦١هـ.
- مذاهب الإسلاميين، للدكتور عبدالرحمن بدوي، بيروت ١٩٧١م.
- مسند، أحمد بن حنبل، بيروت ١٣٨٩هـ.
- المغازي الأولى ومؤلفوها، لهروفتس ـ الترجمة العربية، القاهرة ١٣٦٩هـ.
- الملل والنحل، للشهرستاني ـ هامش الفصل، بيروت (طبعة مصورة).
- المناقب، لابن شهرآشوب السروي، طهران ١٣١٧هـ.
- المنخول، للغزالي، بيروت ١٣٩٠هـ.
- منهاج السنة، لابن تيمية، بولاق ١٣٢٢هـ.
- النبوة، [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين ﷺ/ المؤلفات] بيروت.
- نشأة علم التاريخ، للدكتور عبدالعزيز الدوري، بيروت ١٩٦٠م.
- النظام السياسي في الإسلام، لأحمد حسين يعقوب، عمان ١٩٨٩م.
- نهاية الأرب، للنويري ـ ج١٦ و١٨، القاهرة (طبعة مصوَّرة).
- وفيات الأعيان، لابن خلكان، القاهرة ١٣٦٧هـ.

المحتويات

في رحاب الرسول